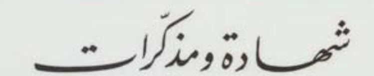
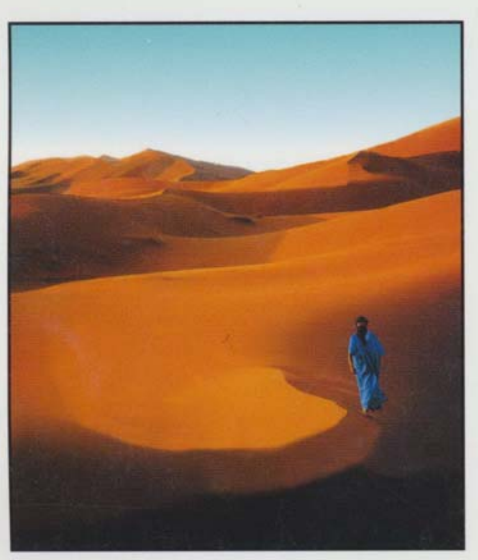
فاطمة أوفقير

حدائق الملك

الجنرال أوفقير والحسن الثاني ونحن


شهادة ومذكرات







ترجمة: ميشيل خوري

فاطمة أوفقير



حدائق الملك

الجنرال أوفقير والحسن الثاني ونحن

«شهادة ومذكرات»

ترجمة: ميشيل خوري

* فاطمة أوفقير
* حدائق الملك
* ترجمة ميشيل خوري

* الطبعة الأولى 2000
* موافقة وزارة الإعلام رقم 48828 تاريخ 2000/7/22
* الناشــــــر: ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053 ـ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشــراف الفني: د. مجد حيدر
* التــوزيع: دار ورد ☎ 3321053 ـ 5141441 ص.ب 30249

* حقوق المؤلف من ريع هذا الكتاب ستحوّل بكاملها إلى جمعية «بايتي BAYTI» التي تهتم في المغرب بمساعدة الأحداث الذين يعانون من ظروف صعبة.

العنوان الأصلي للكتاب:

LES JARDINS DU ROI

بناء على طلب السيدة فاطمة أوفقير فإن حقوق المؤلّف المتعلّقة بريع هذا الكتاب ستحوّل بكاملها إلى جمعية بايتي Bayti التي تهتم في المغرب بمساعدة الأحداث الذين يعانون من ظروف صعبة.

بفضل فريق عمل متعدّد الاختصاصات: مُسعِفات اجتماعيات، وعلماء نفس، وأطباء، ومدرّسين، وفنانين؛ تُقدِم بايتي المعونة في مجالات التأهيل العائلي والمدرسي، والاجتماعي المهني للأحداث الجانحين، أو المشرّدين، أو المستغَلين في العمل، أو ضحايا المعاملات السّيئة المختلفة.

بايتي Bayti منظمة غير حكومية، تتعاون مع صندوق رعاية الطفولة التابع لهيئة الأمم المتحدة (اليونيسيف UNICEF) ومع السلطات المحليّة.

الإهداء

إلى أولادي الستة الذين استمروا خلال تسعة عشر عاماً أُباة وشجعاناً يمدّونني بالقوة على الصراع.

إلى جميع أصدقائي في الصحافة المكتوبة أو المنطوقة الذين حملوا إلينا، دون معرفة منهم نسيم الحريّة.

إلى جميع الذين ساعدونا دون أن يعرفوننا.

إلى جميع الذين كافحوا دون أمل.

إلى جميع الذين آزرونا بتحطيم طوق العزلة الذي أُحطنا به بعد تحريرنا.

وأرجو المعذرة من الأصدقاء الذين لم أذكرهم في هذه الصفحات. فهم يعرفون أنني أردت أن أحافظ لهم على سكينتهم.

I

التحديات الأولى

كانت الأنسام نقيّةً عليلة، والبراري تنبسط على مدّ النظر، وحقول القمح ومزارع الذرة تكسو الطبيعة بألوان داكنة ذهبيّة تتلو الشقرة والسمرة فيها اخضرار المروج. والأبقار والأغنام ترعى بسكينة وترسم على الأراضي المعشوشبة ظلال تموّجات طويلة متقلبة، ونحن على الخيل أو ظهور الحمير نشرد بين سوامق النباتات في السهل لنصل إلى أفياء الأشجار العالية في الغابة القريبة.

في قلب ذلك الريف ينتصب «دُوارنا» العائلي، وهو بعض خيام سوداء أكبرها مضرب عبد القادر بن عبد القادر جَدّي والد أبي.

كان ذلك في سيدي علال البهروي، المسماة آنذاك مخيم مونو، القرية النائية في منطقة زِمُّور، تلك البقعة المغربية الممتدة بين الرباط ومكناس، ضمن قبيلة آيت علي أو لحْسن البربرية، ويقال إن أسلافنا القدماء وفدوا من أوروبا الوسطى، وعلى الأرجح من رومانيا، زمن الإمبراطورية الرومانية، واختلطوا بعد ذلك بأعراق عربية من أصل يمني وببعض عشائر بربرية.

كانت عائلة أبي وعائلة أمي تعيشان متجاورتين ولايفصل بين أراضيهما الخاصة إلا نبع ماء يقع ضمن بستان رائع وسط هضبتين.

من الناحية الأبوية سليلة أنا ذرية من المغامرين البُداة المأجورين

للسلطان، المقاتلين منذ أزمنة سحيقة في القدم لإخضاع البربر(*) المتمردين. هكذا دافع أجدادي دائماً عن السلطنة؛ ونقل إليّ بدوره هذا الميراث من التبجيل والوفاء؛ ومنذ أيام الطفولة كنت أرى باستمرار صورة محمد الخامس وولديه مولاي الحسن ومولاي عبد الله معلّقة في منزلنا. تعلمت معرفتهم، وإحترامهم، وحبهم، وكان هذا أمراً طبيعياً بالنسبة لنا، إنما لم يكن مألوفاً في تلك السنوات من عهد الحماية الفرنسية أن تُعَرض في صدر المنزل مثل هذه الصور، إذ أنها تعني اختيار رب البيت لمعسكره، معسكر الاستقلال.

كان جَدّي، مع شهرته كمقاتل، من قنّاصي المهور، الساعين إلى الثروة بالزواج من الوارثات الموسرات، وقد أجرى ثلاث زيجات رابحة مالياً. تزوّج جدتي الغنيّة بما تملك من أراض وقطعان مواشي وخيول وبغال... وهذا كاف في ذلك العصر لتوطيد ثروة؛ وتقدّم بعدها طالباً يدَ جارته فَدْمة(**)، الأرملة الشابة الواسعة الثراء المسيطرة على خمسين شخصاً يعملون في خدمتها... وكانت جميلة، طويلة القامة، لطيفة الوجه، ناعمة البشرة، عاجية اللون، ذات شعر أسود فاحم وعينين خضراوين. رفضت بخشونة طلب عبد القادر، كما رفضت من قبله عروض زعماء العشائر وجميع وجهاء زمُّور، فَفدَمة لم تَعُد ترغب أبداً أن تسلّم زمام أمرها لسلطة أيّ رجل وهي تدير بنفسها أملاكها، وتتجول فيما بينها على صهوة حصان، وتحيا حرّة طليقة في عصر اعتادت النساء فيه على الرضوخ والإذعان.

بعد عدة سنوات وقع اختيار محمد بن عبد القادر ـ هذا الذي سيغدو أبي ـ على ابنة فَدْمة، يمنى عمّار، ولم تكن قد تجاوزت العاشرة من عمرها، وكان محمد وهو في الحادية والعشرين من عمره يرفع البُنيّة حتى منكبيه العريضين ويُعلن:

ـ ستكون هذه زوجتي.

(*) البربر مجموعة عرقية في الشمال الأفريقي تسكن المناطق الجبلية (الريف، القبائل الأوراس، الأطلس) دخلوا الإسلام على يد عقبة بن نافع، لكنهم حافظوا على تقاليدهم ولهجاتهم اللغوية المحلية.

(**) فَدْمَة: اسم علم يعني ذات الوجه المشبع حُمرَةً ـ المترجم.

غير أن عبد القادر والده الحاقد أراد منع هذا الاقتران:

ـ لن تتزوّجها، فقد رفضتني أمها سابقاً.

وتجاوز الإبن تعنّت أبيه، لكنْ جدّي رفض دائماً الحديث مع أمي. متسلّط متشدّد، هذا الجدّ عبد القادر، بعينيه الرماديتين ووجهه المسفوع بالشمس وثيابه البيض دوماً: بابوج أبيض، وجلباب أبيض، وعمامة كبيرة من قماش قطني ناعم أبيض على عادة زعماء البربر، وهو يجلس في صدر خيمته التي فُرِشَت أرضها بسجاد سميك، يشرب الشاي ويقص علينا أخبار معاركه السابقة إلى جانب السلطان الحسن الأول(*) ضد القبائل المتمرّدة... ونحن الأولاد نستمع مبهورين إلى هذه الحكايات الرهيبة التي يجمع فيها عساكر السلطان غنائم حرب بقطع أيدي النساء لانتزاع خواتمهن وأساورهن الذهبية.

يتوقّف الجد عن الكلام ليصب لنفسه كأساً جديدة من الشاي، ولتأمين هذا الشراب الضروري في متناول يده يُهيّأ إلى قربه باستمرار السماور(**) النحاسي المغذّى بجمرات فحم متوقدة للمحافظة على الماء الساخن في درجة حرارة مناسبة لتحضير الشاي الأخضر بالنعناع صيفاً والشاي الأسود شتاء، فهو المشروب المرافق لجميع الأوقات، المكتسب لأهمية كبيرة حتى أنّ النساء لايحق لهن لمس أو غَسْل الأدوات الملازمة للرجال لتحضيره، فلكل رجل مستحضراته الخاصة. ويسود اعتقاد شعبي بأنّ المرأة الحائض تفسد نُكهة هذا السائل الشهي؛ والاختيار المتيقظ للخلاصات ومقارنة روائحها وتقدير جودة الصنف وَقفٌ على الرجال، وهو مناسبة لها تقاليدها الحقيقية؛ والجدُّ يقضي أحياناً لدى التاجر ساعات كاملة، يدخل يده في أكياس القنب الكبير، ويشمُّ الأوراق الملتفّة، ويلمسها، ويفحصها، ويقارن الأصناف متأمّلاً مدققاً قبل أن يحدّد الصنف الذي سيختاره. وقد أدرك الفرنسيون جيّداً أهمية الشاي والسكر في المجتمع المغربي، مما

(*) الحسن الأوّل: هو الحسن بن محمد من الأسرة العلوية، تولى سلطنة المغرب من 1873 إلى 1894 ـ المترجم.

(**) السماور Samovar: كلمة من أصل روسي تطلق على مرجل نحاسي صغير مزخرف نقّال يَعّد فيه الشاي ويحافظ على حرارته ـ المترجم.

دفعهم زمن الحماية من 1912 إلى 1956 إلى دَعْم هاتين المادتين والمحافظة على أسعارهما معتدلةً تجنباً للفتن الشعبية.

رافق جدي، وهو حَدَث، والده المكلّف بوسم بهائم السلطان، وقد اعتاد أن يردّد بعد عودته من مهمته دون انقطاع: «شِن... شِن...» بأزيز يحاكي نشيش وَاسِمَّة الحديد المحميّة حتى الاحمرار وهي تدمغ جلد الحيوان، مما دفع جميع الأولاد في الدوّار إلى التهكّم عليه وتسميته عبد القادر شنّ، وهو لقب كان يغيظه وغالباً ما وجّه لكمةً إلى من يتشبث بمناداته به. غير أن والدي قرّر في العام 1950 أن يُنادَى باسم محمد شنًّا بدلاً من محمد بنِ عبد القادر، وهذا ما أثار غضب جدّي الذي لم ير في كنية شنّا إلّا الهزء والسخرية، لكن آن الأوان لتثبيت الأسماء العائلية ولايمكن الاستمرار إلى مالانهاية في تسمية فلان بن فلان.

كانت عائلة أبي بدوية تعيش تحت الخيام، بينما عائلة أمي، بالمقابل حَضَرية تمتلك منزلاً، وهي ميزة تصنّفها في مستوى أكثر تطوراً زمن الحماية الفرنسية.

كان جدّ أمي ينتمي إلى عائلة ثريّة تمتلك أراضٍ في منطقة الدار البيضاء ضمن بقعة تسمى الشَوَايا، وهو زعيم قبيلتنا، وزعامته إقطاعية تنتقل عادة من الأب إلى الابن، وفدت زوجته من مشارف الصحراء، وهي تنتمي إلى قبيلة عَرَيبات وقد سميت باسمها، ولم يُرزَق الزوجان إلا ابنة وحيدة هي فَدْمة جدّتي.

زُوِّجت فَدْمة رجلاً أصهب ضعيف الشخصية، فَعوَّضت بقوة شخصيتها عن ضعفه! رُزِقَتْ بثلاث بنات قبل أن تحلَّ الوفاة بوالدها. ويُروى أن أحد عبيد الوالد، وهو سنغالي طويل القامة متين البنيان، امتطى يوم الوفاة حصان المرحوم وانطلق يتجول في الريف، ومع حلول المساء سقط هذا القِنُّ الأسود القوي البنية مصاباً بالشلل، فساد الاعتقاد بأنّه عوقب على جرأته ركوب حصان سيّده.

خلّف الفقيد زوجته عَريبات، وابنته فدمة، وحفيداته الثلاث، دون نَكَر من ذريته، ولما كانت تقاليد القبيلة تُورِّث الذكور فقط، وما يزال هذا العُرفُ سارياً رغم أن الإسلام قضى بتوريث الإناث؛ بل إن الفرنسيين «حماتنا» منذ العام 1912 شجعوا الالتزام بتلك التقاليد

والأعراف وتشريعها قانونياً وإنشاء محاكم خاصة بها سعياً لاستمالة القبائل البربرية المنشقّة والتصالح معها. وهكذا خُشي أن تسقط ثروة جدّ أمي بين أيدي بعض أنسبائه الذكور؛ وانتظر هؤلاء الأنسباء انتهاء أيام الحداد ليطردوا الأرملة وابنتها ويضعوا أيديهم على كامل أملاك المرحوم، ولن تصل بهم الأريحية عندها لأكثر من منح غرفة صغيرة في المنزل لتأوي إليها الأرملة حتى وفاتها، إنّما لاشيء يلزمهم بهذه الحسنة.

لكن جدّة أمي عَرَيبات كانت قد صحبت معها من الجنوب عدداً من الإماء، ومنهن الياسمين الشابة اليافعة الفاتنة بسوادها الأبنوسي، التي أسرّت لمولاتها أنّها حامل نتيجة معاشرة سيّدها... عندها أوقفت محكمة الأعراف جميع إجراءات الإرث بانتظار ولادة الأَمَة الحامل.

أنجبت الياسمين، لحسن الحظّ، طفلاً ذكراً؛ وبفضل هذا الوليد أمكن لجدّة أمي ولجدتي الاحتفاظ بملكياتهما والاستمرار في نمط حياتهما.

أذكر جيّداً تلك العبدة بسوادها الفاحم وبياض أسنانها الناصع، فقد استمرّت في العيش معنا، وعندما كانت تريد التخلّص من جَلَبتنا، نحن الأولاد، يكفيها أن تتظاهر بالابتسام وهي تكشّر عن أسنانها فيدبُ الرعب في أنفسنا جرّاء هذا التباين العنيف بين السواد والبياض ونلزم الهدوء.

أدركت الياسمين أن شمل العائلة استمر ملتئماً بفضلها، وأحسّت مع تقدّمها في العمر بمقامها وأرادت أن تكون لها الكلمة المطاعة بعد وفاة سيّدتيها عَرَيبات وفَدمة. لكن ابنها حميدة كان قد تربّى في كَنَف جدّة أمي حصراً؛ ولتأمين وريث ذكر للعائلة بأسرع ما يمكن زُوِّج هذا الفتى وهو في الرابعة عشرة من عمره بفتاة صغيرة لم تتجاوز العاشرة. وَوُضِعَ هذان الزوجان اليافعان بانتظام في السرير على أمل أن يحدث بينهما شيء يحقّق الهدف المرجو... لكنهما لم يتعديا الأفكار الطفولية والنوم بكل دعة وتعقّل.

اقترن حميدة بعد ذلك بزوجتين أخريين، إحداهما نسيبة من الشوايا تكشَّف طبعها عن خُلق نفور مشاكس، مما سبّب انفصال الزوجين بعد ولادة طفلة لهما، وكان زواجه الثالث من ابنة أحد زعماء

منطقة الرباط التي أمّنت له ذريّة وافرة: خمس صبيان وخمسة بنات! وفي السنوات التالية أنجبت له إحدى إمائه بنتاً وصبيين، وهكذا أمكنه أن يطمئن إلى وجود أيد عديدة تتلقّى ميراثه.

مارس حميدة حياة الرجل الموسر ذي الإيراد الكبير بفضل المرأتين اللتين هيّأتا له العيش الرغيد، الأَمَة السوداء التي أنجبته وجدّة والدتي التي ربّته، ونَعِمَ بالسعادة مع زوجاته المتواليات، وإمائه العديدات، وحشيشة كَيفه، وكأس خمره. لم يمارس أيّ عمل فألفا هكتار هي أراضيه تدرّ عليه إيرادات للعيش بسعة ورفاهية. كنت الإنسانة الوحيدة التي يزورها بانتظام بين أنسبائه وبدا لي أنني الأثيرة لديه منهم، وأعتقد أنه كان يعتبرني مثل إحدى بناته.

توفي الخال حميدة كهلاً لم يتعد الستين من عمره؛ وذلك في العام 1991 ، عشية خروجنا من السجن، وأسفت كثيراً لعدم استطاعتي زيارته قبل موته.

في ربيع عمرها الثالث عشر تزوّجت الفتاة التي غدت أمّي، يمنى عمّار ابنة فدمة والدي محمد بن عبد القادر وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وبعد سنة من قرانهما، وبتاريخ 4 شباط 1936 وُلدتُ في مكناس حيث كان أبي الضابط في موقعها العسكري. وتمّت الولادة بمساعدة قابلة فرنسية مما يُعَدُّ شبه ثورة على التقاليد! بعد فترة قصيرة، سافرنا إلى سورية بناء على أمر موجّه إلى أبي من قيادة الجيش الفرنسي، وكانت أمّي حاملاً، وولد أخي فؤاد في دمشق.

* * *

كنت أحلم بالحرية طوال حياتي؛ وعندما أغوص في ذكرياتي البعيدة أرى نفسي طفلة صغيرة في الثالثة من العمر أجري وحيدة على درب تغمره أشعة الشمس، دون هدف، غير الشعور باستقلالي وتحرّري.

كان ذلك في دمشق، عشية الحرب العالمية الثانية، واليوم هو عيد الأضحى، أوّل أيام *العيد الكبير* إحياء ذكرى تضحية إبراهيم بالنسبة للعالم الإسلامي.

في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم حضر الجندي الوصيفُ يوقظنا، أنا وأخي فؤاد، ويُجهزنا. غَسَلنا الرجلُ، وألبسنا ثيابنا، ورتب هندامنا واعتنى بزينتنا، وأعدَّنا للذهاب لنطرق باب أبوينا لتهنئتهما بالعيد. وفي اللحظة التي دخل فيها إلى الحمّام انتابتني نزوة مفاجئة فهرعت أدير المفتاح بالقفل موصدة الباب عليه... حُبس الجندي الوصيف في حجيرة الحمام الضيّقة، وأخي الصغير خلف قضبان القفص المعد للعبه، وأنا حُرَّة! أحضرت كرسيّاً وضعته عند حافة باب المدخل الخارجي لمنزلنا، وتسلّقت عليه للوصول إلى مقبض القفل، وبعد عدة ثوانٍ كنت أجري خارجاً.

سلكت الطريق المنفتح أمامي، وهو طريق عريض ومستقيم، وسرت، وتابعت السير سعيدة بتلك اللحظات التي لايستطيع أحد فيها إيقافي؛ وتوجهت بالطبع نحو المكان الوحيد الذي أعرفه في الجوار: وهو ثكنة أبي.

لقيت الضباط مجتمعين على مائدة الإفطار، فهرعوا إلى استقبالي بكلّ مودة وترحاب؛ وأجلسوني على المائدة وأشبعوني من السكاكر والحلويات... كم بدت لي الحياة في تلك اللحظات جميلة وسهلة! فأنا ملكة العيد، ومركز العالم في ثوبي الصوفي الجديد العاري الذراعين. لكن والدي وصل مغتاظاً، مقطّب الجبين، يفور غضباً.

في المنزل استيقظ أبواي متأخرين ذلك اليوم، يتساءلان عما حَدَث للجندي الوصيف؟ سمعا قرعاً على باب الحمّام، ولاحظا بسرعة اختفائي، وانتابهما الذعر ففتّشا عني في كلّ مكان إلى أن خطرت لوالدي فكرة الحضور إلى الثكنة...

انتهى هربي بشكل يرثى له: فعلى طريق العودة الممتد لأكثر من كيلومتر ساقني أبي وهو يسوط فخذيّ بقضيب غصن سوحر ترك على بَشَرتي حزوزاً حمراء طويلة. وبذلك دفعت غالياً ثمن فراري، فلسعات غصن السوحر آلمتني بشدّة، وكان مظهري يدعو إلى الشفقة عند وصولي إلى المنزل لأن أمي أخذت تنتحب مذعورة لرؤيتي في هذه الحالة المؤلمة... إنّها إحدى الذكريات النادرة التي أحفظها عن أمي.

بقي هذا العقاب الصارم، الشديد القسوة محفوراً في أعماق ذاكرتي، وانقضت مدة طويلة قبل أن أصفح عن أبي، غير أنني في

النهاية أسامح دائماً من أساؤوا إليّ. أسامح، لكنني لا أنسى، فالأحداث المؤلمة تبقى حيّة في نفسي.

أيّاً كان الأمر، فإنني في ذلك اليوم، من طفولتي سعيت إلى الحرية. تلك الحريّة التي لم أعرفها أبداً. في الوقت الحاضر أيضاً، ومع أولادي الستة، وأنا بالنسبة لهم مركز العالم، لايمكنني أن أكون حرّة فعلاً. كلّهم الآن راشدون، لكنهم ليسوا كالآخرين، ولم يعرفوا الحياة الطبيعية، وينتابهم الذعر عندما لا أكون باستمرار حاضرة لدعمهم وللاستماع إليهم.

* * *

استعر أوار الحرب في أوروبا العام 1940 ، وشعر الفرنسيون أنهم سيغادرون سورية، وبدأ الجلاء يُحضّر سرّاً. أعطي الأمر للضباط بترحيل عائلاتهم؛ وأصعدنا إلى سفينة لإعادتنا إلى المغرب.

كانت أمي في الثامنة عشرة من عمرها، وهي حامل بولدها الثالث، وأصيبت بالبرد خلال رحلتنا البحرية فذهبت لتلد في قريتنا من منطقة زِمُّور بين أهل عشيرتها. لكن متاعب السفر، والعلّة الرئوية التي أصيبت بها وهي على ظهر السفينة أضعفاها بشكل مريع: فتوفيت وهي تلد طفلاً لم تكتب له الحياة.

يسود الاعتقاد لدينا، نحن معشر البربر، أن المرأة التي تقضي نحبها أثناء الولادة تُعَدُّ زوجة للسماء، فتزيَّن مثل العروس، وتُكسى بحلة بيضاء، وتبهرج بالحلي والجواهر، بعد أن تغسل في احتفال حزين، وتُحضّر للدفن، وتُلبَس من جديد ثوبها البتولي.

اقترنت الوفاة مع مشاهد شاقّة مروّعة، فقد فَقدت جدتي فدمة صوابها كليّة، إذ سبق لها أن نُكبت بوفاة ابنتين أصيبتا بالتدرن الرئوي، وهو داء مايزال متفشيّاً حتى أيامنا هذه في منطقة زمُّور، وأمام هذه الأحزان المتتابعة ثارت على قدرها، وعلى الله، وقرب ينبوع دوارنا ضجّت بألمها، وقطّعت شعرها الغزير بسكين، ولطمت وجهها، وأنشبت أظافرها في وجنتيها حتى أدمتهما ولطّخت جسمها بالوحل والسناج... وتملكني الروع. رأيت جدّتي تتلوّى من الألم الذي

أفقدها الرشد، ورأيت أمي في غاية الجمال والتألّق وهي في ثوب العروس، ولم أفهم لماذا تستمر في النوم رغم كلّ هذا الصَخَب.

أخرجوا بعد ذلك الجثمان من المنزل ووضعوه على منصّة في صحن الدار، وغطّوه بملاءة مطرّزة بصُفيحات من فضة كانت أمي قد نَسَجتها بنفسها قبل ذلك بوقت قليل؛ وأعولت النائحات وتعالت تفجعاتهن ومراثيهن... وفي اللحظة المحدّدة لإنزال أمي في لحدها، وصل أبي وفتح النعش. أخرج الجثمان وغمره بالقبلات والدموع، وهزّه وهو يجأر شاكياً فداحة مصابه... هي ذي صور لم أستطع نسيانها ومازالت تلاحقني طوال حياتي.

كنت في الرابعة من عمري، وحاول أخي فؤاد، وهو يصغرني بسنتين، أن يطمئنني ويهدّئني، ويمثّل أمامي مسرحية الغياب المؤقت. كان موهوباً حقاً وهو يتحدث تماماً برزانة طفل صغير. إنّه العنصر المستقرّ في محيطنا، وهو الذي طمأنني مكرراً عليَّ قوله:

- أصغي إلي يا أختي الصغيرة، سافرت أمّي لتوّها إلى فاس.

صرخت، وثرت لأنني كنت أعلم في قرارة نفسي أنها لن تعود أبداً. وسوَّيتُ بعد ذلك المسألة بتوجيه اللوم إليها لأنها تخلّت عنا. إنّها طريقتي في تفسير الموت وفهمه.

أعادنا والدي إلى مكناس وعهد بنا إلى دادا فضيلة، الأَمَة التي وُضِعت تحت تصرف أمّي عند زواجها. يجب الاعتراف بأن عبيدنا كانوا يجهلون حتى الخمسينات أن العبودية قد ألغيت، كما أننا بدورنا كنّا ننظر إليهم كأفراد من العائلة. كان هذا هو العُرف؛ ولم تغيِّر القوانين التي وضعها المُحتلّ الفرنسي شيئاً. لم تقتصر العبوديَّة على بقاء الإماء في المنزل بل إن ربّ البيت يعامل الأَمَة كجارية، وعليه أن يمارس الجنس معها، وإذا أنجبت ولداً فمن واجبه الاعتراف به ومعاملته مثل ذريته المولودين من زوجته الشرعيّة.

ما أن دُفنت أمي حتى انطلق أبي إلى ميادين القتال. عاد أولاً إلى سورية حيث بقي أيضاً سنة ونصف السنة، ثم نُقل إلى أوروبا على نهر الرين ولم نشاهده إلا بعد تحرير فرنسا.

استقبلتنا، مع مربيتنا دادا فضيلة، عائلةُ بن زيدان، إحدى أكبر عائلات مكناس. ورب العائلة مولاي عبد الرحمن بن زيدان، العالم الجليل، والرئيس الروحي لعسكريي مدرسة دربيدة - مدرسة الضباط في المدينة - يلقي محاضرات في الفقه الإسلامي، وكان هذا المعلم المهيب يحب أبي كثيراً وقد رحّب برعايتنا في منزله كأنّنا حفيدان له.

في ذلك المنزل - أو بالأصح في ذلك القصر - ورغم صغر سني، تعلمت حبّ الجمال، والاعتدال، ورهافة الذوق. أستيقظ في الصباح الباكر وأخرج لأستنشق عطر الأزهار، وأستمع إلى شدو الطيور والاستمتاع برؤية جمال ألوانها وهي تتنقل مزقزقة بين الأشجار، وأتنزّه عبر النباتات والأشجار المثمرة أو أقفز على المصاطب المغطاة بعرائش الكرمة التي تتدلّى منها عناقيد العنب الحمراء والخضراء، وفي الصيف أصَحَبُ لّلا مليكة زوجة السيّد الكبير بن زيدان وهي ترتدي قُفطاناً ذا ألوان زاهية، وتعتمر عمامة غريبة بشكل قرني كبش، وتزين جبينها بجوهرة كبيرة لنجمع أزهار الياسمين الأصفر والياسمين الأبيض من الخمائل ونصنع منها قلائد. لو أمكن تصوير الجنّة لوجب أن تكون صورتها مماثلة لذلك المقر الرائع.

بوساطة هذه العائلة تسنّى لي لقاء محمد الخامس للمرّة الأولى، فشقيقة السلطان، للّا زينب هي زوجة مولاي مصطفى الابن البكر لِبنْ زيدان، وقد شملتني تلك المرأة الشابة برعايتها، وكانت لي بمثابة العرّابة تستدعيني في الأعياد وتعاملني معاملة الأم التي أفتقد حنانها.

صحبتني للّا زينب وأنا في الثامنة من عمري إلى قصر مكناس المقام على قواعد المقر البسيط لمولاي اسماعيل[*]، السلطان السابق الذي أراد الزواج من ابنة لويس الرابع عشر. يتألف القصر حاليّاً من تتابع غُرَف واسعة ذات سقوف مزخرفة بشكل دقيق رائع، وتتوالى الحدائق بأحواض مياهها ذات الفسيفساء المُلوّنة. وعند قاعدة السور الأحمر، وأمام الفتحات المخصصة سابقاً لفُوّهات المدافع، والمكتظة الآن بأعشاش الحمام، وبين العضائد، حيث تتغلغل أسراب طيور

(*) هو اسماعيل بن محمد تولى سلطنة المغرب من العام 1672 إلى العام 1727 - المترجم.

اللقلق؛ نبتت أشجار البرتقال والزيتون والتين التي تعطّر الأجواء بروائحها الحلوة المطيّبة.

أمّا البناء بالذات فكئيب بل مخيف، ففي داخله تتصاعد ضجّة مستمرّة تدفع إلى الاعتقاد بأنه مسكون بالأشباح... إذ تجري في بيوت مكناس مياه غزيرة ذات مظهر عكر لكنها عذبة المذاق حتى لَيخالُ لشاربها أنّها محلّاة، وهي تعطي أطيب الثمار مذاقاً وأنضر البقول مظهراً على سطح الأرض؛ وهي تتدّفق جداول وشلالات في قلب القصر بالذات فيُسمع خريرها في جميع أرجائه كأنَّه هدير سيل عَرِم؛ وهذا ماكان يخيفني في طفولتي حتى أثناء النهار.

تميّز محمد الخامس ببساطة فائقة وهو يرتدي باستمرار غندورة(*) قصيرة بيضاء، ويبدو متضايقاً من مظاهر الترف ومراسم التشريفات، ويقدّر خاصة الموسيقى والموشّحات الأندلسية التي تعزفها وتغنّيها جواريه. إنّما رغم طيبته يشعر المرء بالرهبة في حضوره، وبالمهابة لشخصه إذ يبثُّ من خلال وجوده إشعاعاً فريداً، ونفوذاً طبيعياً قد يكونا ناتجين عن إشعاع إيمانه العميق بالله ومظاهر ورعه. إنّه الوحيد الذي أثار بحقّ إعجابي بين عظماء هذا العالم الذين حظيت بلقائهم.

اقتربت من السلطان فطرح عليّ بعض الأسئلة التقليديّة:

ـ ما اسمك؟ ابنة من أنت؟ أين تعيشين؟

كان لون للّا زينب يزداد شحوباً مع كل كلمة ينطق بها أخوها، وترتعش جميع أعضاء جسمها، وبدا لها أن التعقّل يوجب عليها إبعادي. انتابها خوف مروّع: خوف من أن يقع اختيار السلطان عليّ.

قالت لي: إنّك جميلة، وأنت يتيمة، وأبوك بعيد عنك؛ فكل شيء يتوافق مع اختيارك واحدة من محظياته. وهذا ما أرفضه لك! فأنا لا أريد أن تبكي طوال حياتك داخل قصر وتلعنينني كلّ يوم.

رأيت محمداً الخامس مرّة أخرى بعد ذلك بسنتين في منزل أخته. وكنت أرتدي في ذلك اليوم ثياباً على الطراز الإنكليزي: تنورة اسكوتلندية، وجوارب بيضاً، وحذاء لمّاعاً، وسترة زرقاء غامقة، وقد

(*) غندورة: صدار دون كمين يُلبَس تحت البرنس في المغرب ـ المترجم.

جُدِل شعري ضفيرتين... طلب السلطان أن يؤتى بي إليه، لكنني كنت مريضة ونَحُل جسمي بشكل مخيف، وأعتقد أنّه تأثر لرؤيتي بهذا الضعف، فهو يتذكر صورة أخرى عن الفتاة الصغيرة التي رآها في قصره، صورة الفتاة ذات الخدين الممتلئين الموردين، بنظرتها البالغة الأسى المثيرة للشفقة والمعبّرة عن الإخلاص الذي أكنّه له وسأبقى محافظة عليه حتى آخر نسمة من حياتي.

كان التأهيل المخصّص للفتيات يقتصر في زمن حداثتي بشكل أساسي على التطريز وأصول الطهي. وارتأى أنسبائي الراشدون أن أتلقى هذا التثقيف الضروري فأرسلوني إلى مخرِّمة مطرِّزة تكّشفت عن معذِّبة حقيقية. صحيح أنني لم أكن قطعاً طفلة سهلة، إنّما كنت طفلة، لكن التربيّة كانت رهيبة: فالصغار يُضربون حتّى بالنسبة لحبة عنب أُخذت دون إذن.

في أحد الأيام صعدت مع أربع فتيات كسولات على مقعد: تسلّقنا واحدة على كَتِفَي الأخرى إلى أن بلَغنا أحد رفوف خزانة جدارية كانت المطرّزة تخبئ فوقه مرطبان عَسَلٍ لَعَقناه على آخره... وعندما اكتشفت «المعلمة المطرّزة» «جريمتنا» انهالت على كل منا ضرباً بالسوط حتى غدا القسم اللاحم من أطرافنا السفلية مزرقّاً بلسعات السوط. وفي اليوم التالي رفضت العودة إلى جلّادتي، وصرّحت بعناد:

- كلا لن أذهب إليها، ولا أريد أن أتعلّم التطريز. أريد الالتحاق بمدرسة الراهبات لأتعلّم القراءة والكتابة.

رغبت في الذهاب إلى الدير لأنني أعلم أنه يضمُّ عدداً من اليتيمات أمثالي. وهكذا التحقت تلميذة داخلية بميتم الراهبات الفرنسيسكانيات في مكناس؛ ويضمُّ ديرُهنَّ الواقع بين المدينة القديمة والمدينة الجديدة نحو خمسين راهبة في ثياب بيضاء وغطاء رأس أسود؛ وقد عُهد إليهن بتربية وتعليم نحو مئتي فتاة وافدات من مناطق وبلدان مختلفة: مغربيات، وبرتغاليات، وإسبانيات، ويهوديات؛ وكلّهن يرتدين الزي النظامي للدير وهو فستان رمادي بياقة بيضاء، عدا أيام الأعياد التي نرتدي فيها ثياباً زهريّة اللون.

كانت الديانة الأولى التي تعلّمتها في ذلك الدير وفهمتها ومارست شعائرها هي المسيحية الكاثوليكية. أذهب صبحاً وظهراً ومساءً أصلي في الكنيسة الجميلة ذات الزخرفات المذهّبة؛ وأجلس على أحد المقاعد الخشبية المبطّنة بمخمل أزرق أتعبّد للمسيح المصلوب ولتمثال العذراء المحبة بنظرتها الصافية الحنون التي تغمرني؛ وقد وضعت حول عنقي وفي قلبي بكل ورع صليباً وإيقونة مريم. ودامت إقامتي الداخلية في مدرسة الدير خمس سنوات، وهي الفترة التي كان أبي فيها محارباً خارج البلاد، حتى العام 1946 .

كان زوّاري قلائل جداً، أحد أعمامي فقط يأتي لرؤيتي فقط مرّة في العام، لكنني كنت مندمجة في ذلك المجتمع الرهباني حتى أنني تجنّبت الاتصال مع الناس خارجه، فهم ينتمون إلى عالم آخر.

تعلّمت أن أحيا منعزلة وأن أعتاد على العزلة، وكنت طفلة ضعيفة البنية، مريضة غالباً، مصابة بخَمَج ابتدائي تكراري، أعالج منه بالأدوية السائدة في تلك الفترة: أشرِبة، ولزقات، وحجامات؛ عدد من الوسائل البدائية التي تسبّب غالباً آلاماً شديدة، ولاتشفي، مما ألزمني أن أقضي نصف أوقاتي في السرير أتأمّل وضعي الصحي.

كوّنت مع ذلك صداقات عديدة مع فتيات فقدن أمهاتهن مثلي وعانين من المصيبة نفسها مما مكّن من تفاهمنا بشكل تام؛ وأنا أعتقد إنني أمتلك موهبة اكتساب الصديقات، بطريقة تثير الفضول أحياناً. وهكذا فخلال الحرب لم يكن لدينا في كلّ الأيام ما يشبع جوعنا، لكن ذلك لم يشكّل أزمات بالنسبة لي؛ وعلى كل حال فأنا أفتقد الشهية، صفراء ناحلة؛ وأنا أتخلى بسرور عن طبقي من العدس أو البطاطا مقابل قطعة صغيرة من الشوكولا أو مثلث جبن صغير؛ مبادلات تتمُّ لمصلحة مُبادِلَتي وتكسبني صداقة جميع زميلاتي.

*

دام ذلك حتى عودة أبي من أوروبا في العام 1946 . كيف كانت حياته خلال سنوات غيابه في أوروبا؟ لم أتمكن أبداً من معرفة الحقيقة على وجه الدقّة. ربّما أنجب طفلاً من إحدى الألمانيات، فقد رأيت صوراً تثير الشبهات... كنت صغيرة ولم يخطر لي تعليل لها مباشرة،

لكنني ببلوغ سن الرشد راودتني أفكار محيّرة بشأنها. لماذا يحتفظ بهذه التذكارات وهو الرجل غير المتصف بالرقة العاطفية؟ إنّه ليس من الصنف الذي يخلّد علاقة تأسّست على مغامرة عابرة فقط... إن وُجِد هذا الولد فعمره يزيد عن الخمسين عاماً الآن. لكن هل له وجود؟ وهل سأكتشف الحقيقة يوماً؟

بعد عودة أبي إلى المغرب، وكان في الثلاثين من العمر، تزوّج ثانية من شابّة اختارها له آل زيدان، هي خديجة، فتاة لطيفة لم تعرف شيئاً من أمور الدنيا، ولم تر وجه زوجها إلا ليلة عرسها. وبعد شهر العسل جاء أبي إلى الدير ليخرجني منه، فجميع الناس في محيطه العائلي يلومونه:

ـ كيف ترضى؟ إنَّ ابنتك قد غَدَت مسيحية! هذا مخجل.

صحيح أنني خلال هذه السنوات الطويلة لدى الراهبات اتبّعت الطقوس الكاثوليكية، وما تزال متجذرة بعمق في نفسي، وحين أقيم صلاتي، وأتضرع إلى الله، فالعذراء مريم شفيعتي وبقي ذلك مبهماً ومختلطاً في رأسي... مسلمة أو مسيحية؟ هذا لايعني شيئاً. فالإسلام يعترف بالقدرات التي منحها الله لمريم عندما جعلها فوق كلّ نساء العالمين. ولايُعَدّ تبجيلنا، نحن المسلمين للعذراء تجديفياً أو متناقضاً مع الشرع. الأمر الوحيد الذي لا أستطيع قبوله هو أن يكون المسيح ابن الله. فهذا ممنوع علينا. نعم يسوع نبي؛ وقد وُلِد من نفخة الله، لكن لايمكن، وفقاً لديننا أن يكون ابن الله. وبهذا الفارق تقريباً بقيت في موقع ما بين الإسلام والمسيحية.

تركت إذن الدير، وسجّلني أبي في المدرسة الفرنسية. تغيُّر في الوضع بشكل مفاجئ: تثقيف علماني وصفوف مختلطة. تقع تلك المؤسسة قرب باب منصور، وهي متاخمة للملّاح ـ الحي اليهودي ـ على ساحة فسيحة ينتشر حولها حرفيو المعادن، يخلطون في انسجام من الألوان والأصوات الصياغة النفيسة وتطريق النحاس. وكانت مكناس في تلك الحقبة مقسّمة إلى أحياء عديدة خاصة: حي اليهود، وأحياء *الأشراف* أيضاً ـ من سلالة النبي ـ وفق أصولهم.

لم أتكيّف مع حياتي الجديدة، وبقيت وفيّة بشكل سرّي لتعليم الراهبات. وكان أبي يسحب بانتظام إيقونة العذراء التي أتقلّد بها،

فينتزعها من عنقي ويلقيها في بئر المنزل... وأتباكى طوال الليل، وأستيقظ محمّرة العينين. ونعاني كلانا - أنا وأبي - الأسى: هو لأنه كدّرني وأنا لأنني تكدّرت. وعند انصرافي من المدرسة أجري دورة كبرى لأمرّ على الدير، وتعطيني الراهبات أيقونة أخرى لأخبئها بطريقة ما إلى أن يكتشفها أبي.

أحبّتني الراهبات كثيراً، وقابلتهن بالمثل. كنّ سوريات عربيّات، واستوعبن تماماً حيرتي واضطرابي ونظرتي المضاعفة للأمور؛ وحاول أبي من جهته بكل وسيلة أن يحفّظني القرآن. وجدت ذلك في البداية غير متوافق مع التربية الدينية التي تلقيتها، ثم أدركت أن الإله نفسه يُعبد في كل مكان؛ إنّما يجب فقط أن نعرف كيف ننظر إلى الأشياء. أليس هو الله ذاته رب المسلم والمسيحي واليهودي؟

بقيت مع أبي وزوجته في مكناس سنتين إلى أن أراد الجيش الفرنسي إرسال أبي إلى الحرب في الهند الصينية، فرفض هذه المرّة السفر؛ فقد مات أخي فؤاد خلال غيابه من سرطان لمفاوي ولم يتجاوز الثامنة من عمره؛ وهو لايرغب في الابتعاد عن الابنة الوحيدة التي بقيت له:

- فقدت أولاً زوجتي، ثم ابني، وأنا في الحرب، وليس لي إلا ابنة ولا أريد الاستمرار في العهدة بها إلى الغرباء.

هكذا ترك أبي الجيش، وغدا ضابطَ احتياط، وانتقل بنا إلى سلا قرب الرباط، فغدونا في منطقتنا زمّور، وبين أفراد قبيلتنا. كنا نملك وراثة عن أمي بيتاً جميلاً هناك في قلب المدينة، وهو ڤيلا تملأ أرجاءها أشعة الشمس وتطل مصطبتها على سلاّ والرباط بكاملهما. وهي إحدى البيوت المغربيّة القليلة التي يمكن أن تصل السيّارة حتى بابها، وهذا ما يزيد من بهجتها. لكن أبي أجّر هذه الدار سابقاً إلى طبيب أسنان فرنسي لايرغب في التخلّي عنها مباشرة، وبانتظار استعادتها أقمنا في بناء صغير رطب وقاتم.

انصرف أبي أولاً إلى الزراعة فاستأجر أراضٍ من خالي حميدة يزرعها بندورة صيفاً وملفوفاً شتاء، وبصلاً ربيعاً. كنا نكدّس

محاصيلنا في أهراء واسعة يُعلّق فيها البصل جدائل سنفات، وتُغمس البندورة في زيت الزيتون وتحفظ في جرار من فخّار.

تابعت الذهاب إلى المدرسة الفرنسية مرتدية مريولاً أصحر اللون ذا ياقة بيضاء هو زيُّ التلميذات الرسمي. كانت تلك الكليّة تقع عند مدخل المدينة مما يوجب عليّ السير مسافةً طويلةً؛ ورغم ضعفي غدوت مبعث رعب الجميع، فقد أعدّ لي والدي حذاءً عالي الساقين من النمط العسكري لتصحيح عيب مشيتي باتجاه قدميّ إلى القسم الأنسي؛ وليَحْذَر الصبيان الذين يريدون مشاجرتي، فمداسي سلاح رهيب أوجّه به ركلات مؤلمة إلى ظنبوب ساق مهاجمي...

استمر ذلك حتى يوم قرّر فيه فتى يافع في السابعة عشرة من العمر أن يباري جسمي الضعيف في الأذى، فانقض عليّ بكل ما يملك من قوة ووجّه إلى ظهري ضربة بعنف خارق... سقطت على أثرها فاقدة الوعي إذ أن إحدى رئتي قد انفكت عن موضعها بتأثير الصدمة؛ وعانيت آلاماً طويلة معلّقة بين الموت والحياة مدة شهرين، لم أتمكن خلالهما من تناول أي طعام سوى قليل من الحليب في زجاجة رضاعة كطفل لم يُفطَم.

تناوب الأطباء على معالجتي دون طائل. قنط والدي ولفّني في أحد الأيام ببرنس، وسار بي إلى الدكتور جِبْلِي. كنت في الثانية عشرة من عمري، ولم يبق مني إلا الجلد على العظم... سمعت، وأنا في شبه غيبوبة، اختصاصي الأمراض الصدريّة ينطق بهذه الكلمات الجازمة:

ـ يمكنك إعادتها إلى المنزل، لن يمرّ عليها هذا الليل وهي حيّة.

دوّت هذه العبارة في رأسي كصرخة تحدٍّ. أردت أن أتصدّى للموت الذي انتزع مني أمّي وأخي الصغير. فكّرت في نفسي «من يخالني هذا الطبيب؟ وكيف يحكم أنني لن أستمرَّ حية خلال هذا الليل؟» أعادني أبي إلى منزلنا، ثم أرقدني في سريري، وسهر يتلو القرآن قربي. استيقظت نحو الساعة الرابعة صباحاً وقد انتابتني نوبة سعال معنّدة... أخيراً أمكنني أن ألفظ بضع كلمات:

ـ أريد أن آكل معكرونة بالحليب...

أسرع الجميع إلى المطبخ معتقدين أنهم يعملون على تحقيق

الرغبة الأخيرة لمحتضرة؛ التهمت طبق المعكرونة، ونحو الساعة الثامنة طلبت شيئاً آخر، ثم قلت لأبي.

ـ أريد أن أخرج من هنا والإقامة في منزل جدي.

شعرت أنني لن أبرأ أبداً في بيتنا الرطب، وأنني بحاجة إلى الهواء النقي والأجواء الفسيحة في دوّارنا العائلي.

انتقلت العائلة بكاملها معي: أبي وزوجته وأختي غير الشقيقة وأقمنا في كوخ من لِبْن(*) سُقف بأغصان الشجر، وفرشت أرضه بسجّاد سميك نُضّد بعضه فوق بعضه الآخر؛ في منطقة يصفو فيها الجو، وتترقرق مياه النبع العذب، وتكسو خضرة الربيع الأرض. نأكل الحبوب والزبدة الطازجة، ونشرب الحليب، ونستمتع باحتفالات البربر وهم يسوقون قطعانهم إلى المراعي، ونشهد كل صباح ولادة عجل أو عجلة، نقبل بعدها على تناول نوع من القشدة الطازجة اللذيذة المحضّرة من حليب البقرة الولود.

بقيت شهرين آخرين وأنا عاجزة عن الوقوف، فكانت ابنة عمي عاشورا، التي تزيدني سنة في العمر لكنها أقصر مني قامة، تحملني على ظهرها وتجري بي، بوزني الخفيف، ورجلي المتدليتين، بين الحقول نشاهد البهائم أو نقطف الأزهار. وعملت أنسام الغابات المحيطة بأراضينا، واعتدال الجو المنعش بندى الصباح، والهدوء السائد في تلك الطبيعة الساحرة على إنعاشي. لقد شفيت لأنني أردت أن أشفى. كان هذا تحدياً لي، إنّه أوّل تحدّ جابهته، ولو لم يتوقع الطبيب موتي ويعلن عنه بتلك الطريقة الجازمة لبقيت مستسلمة لانهياري الصحيّ إلى مالانهاية.

* * *

فيما بعد، أثناء السجن، جابهت دون انقطاع تحديّات أخرى. عندما أمرض أو يمرض الأولاد وعندما كنّا نصاب بالقنوط بعد معاناة القهر والظلم، أستعيد ذكرى اللحظة التي سمعت فيها الطبيب المختص

(*) اللِبْن: الطين المضروب يُخلَط بالقش ويُصَبُّ في قوالب ويترك ليجف في الشمس ثم تبنى منه الأكواخ ـ المترجم.

بالأمراض الصدرية يُصرِّح: «لن يمر عليها هذا الليل وهي حيّة».
وأكرّر عند ذلك ماكنت قد قلته لنفسي وأنا في الثانية عشرة من عمري:
«لن تموتي، سترين انقضاء كل هذه المِحَن، وسيأتي يوم تنعمين فيه بالسعادة...». كان أولادي يجيبونني عندما أردّد عليهم هذا القول:

ـ أمي، أتعتقدين حقاً أن كل شيء سينقضي؟ لكنك لاتدركين أبداً ما نقاسي. لا أحد منا سيخرج من هنا...

وأعود لأكرّر لهم بصبر لايَهِن:

ـ أنا أعدكم أنكم ستخرجون.

كنت متأكدة. هناك أشياء أعرفها، أحسُّ بها... قد يحدث هذا لجميع الناس، إنّه نوع من الحَدْس الراسخ: في قرارة النفس، ينبثق يقين بأن الأحداث ستأخذ مجرى آخر. لا أحد كان يتصوّر للحظة واحدة أننا سننجو من الزنزانات القاتلة التي رمينا فيها. كنت الوحيدة المؤمنة بالخلاص.

لايمكن للحياة أن تتكوّن من النكبات فقط، ففيها النهار والليل، وفيها إشراق الشمس وتلبّد الغيوم الممطرة، وفيها نضارة الشباب وذبول الشيخوخة، وفيها المرض الذي ينتهي أحياناً بنعمة الشفاء.

قلت كلّ ذلك لأولادي، إنّما يجب الإقرار بأن المصيبة المطلقة موجودة؛ فقد اختفى كثير من الأشخاص نهائياً. لكنني كنت أعلم أننا نحن لن نختفي؛ إذ لايمكن لحياتنا أن تتوقف بهذه الطريقة، ولابدّ للقيد أن ينكسر.

* * *

قرّر والدي بعد الحادث الذي جرى لي إخراجي من المدرسة التي تعرّضت فيها لخطر القتل. بقيت ثلاث سنوات في المنزل لا أعمل شيئاً. اقتصرت مطالعاتي على مجلتي «الألفة» و«نحن الإثنان»،ومن خلالهما اكتشفت العالم والثقافة! قرأت رواية الكونت دي مونت كريستو مثلاً بشكل مسلسلة مصوّرة، ونظّمت نوعاً من حياة صغيرة خاصة بي تقوم على اعتزالي في غرفتي، وحيدة مع أغراض أمي وأثاثها، والأشياء الخاصة بها التي أتت بها من سورية...

لم يكن التفاهم وطيداً بيني وبين زوجة أبي خديجة في البداية؛

فقد أرادت أن أناديها «ماما»، وشقّ علي ذلك. وحسماً للجدل والمناقشة كنت ألجأ إلى غرفتي منصرفة إلى قراءة المجلات والاستماع إلى الراديو، وكنا من أوائل من امتلك هذا الجهاز الذي أحضره أبي معه عند عودته من ألمانيا، وبانزوائي في عالمي الخاص تجنّبت الاصطدام مع خالتي زوجة أبي وكذلك المشاكل مع الآخرين.

لايمكنني القول بأنني قضيت مراهقة سعيدة أو تعيسة، إنّما كانت مراهقتي خارجة عن المألوف، وخارجة عن المجتمع، ولا تشبه حداثة فتيات المحيط الذي أعيش فيه. وفي اللقاءات التي تتمُّ مع النسيبات أو أولاد أصدقاء أبي كنت دائماً وحيدة أحمل بين ذراعي مولود العائلة الأخير، وعندما أشارك في اللعب فأنا على الدوام طرف شجار مع الصبيان أتبادل معهم اللكمات حتى في أوقات ضعفي وهزالي.

* * *

تبقى العزلة قدري. فمنذ موت زوجي غدوت وحيدة بشكل رهيب. بالطبع كان معي أولادي، لكنهم تلاءموا في السجن فيما بينهم، واعتزلت مع أصغرهم. ومنذ ثمانية وعشرين عاماً وأنا منكمشة على نفسي، وخلال عقدين من الزمن تمّ ذلك رغماً عني، وبسبب ظروف سجننا. لكننا خرجنا منذ تسع سنوات وبقيت منعزلة لا أتوصّل إلى عقد أواصر صداقة مع أي كان، وأخال أحياناً أن الطوق قد اكتملت حلقاته، وأنني أعيش مجدّداً في العزلة التي عرفتها في منزل أبي عندما كنت أنزوي في غرفتي مع مجلاتي وجهاز الراديو.

II

رجل مجهول بثياب بيضاء

اهتممت منذ صغري بالاستماع إلى محادثات البالغين، والاهتمام بالسياسة؛ وكان معظم أصدقاء أبي ينتمون إلى الأحزاب التقدّمية في البلاد. أما هو فقد رفض الانخراط في أيّ منها أو ممارسة فعالياتها؛ والأرجح أن غرامه بالنساء حال دونه ودون الانصراف الفعلي إلى السياسة، فمغامراته العاطفية تستغرق معظم وقته؛ لكنه كان يستقبل في منزله أنصار الاستقلال ويقضي ساعات في الاستماع إلى زوّاره دون التفوّه بكلمة.

عبر الاحتكاك بهؤلاء الأشخاص الذين يأتون إلى منزلنا ينظرون في أمر المغرب مستقبلاً أو يستحضرون بتعابير مؤثّرة، الإذلال الموجّه لعائلة السلطان، تحركت أوتار الوطنية الوليدة في نفسي. وهكذا تعرّفت في منزل محمد اليازدي، أحد قادة حزب الاستقلال، على المهدي بن بركة، الخصم العنيد الزلق اللسان للمستعمر الفرنسي، وحفظت في ذاكرتي، من هذا اللقاء الأوّل بشكل رئيس صورة رجل وطني شديد الحماس يُقنع والدي بضرورة تعليمي اللغة العربية، عدا عن استهجانه، مبدئياً، وهو الأستاذ القدير، لانقطاعي عن متابعة الدراسة.

وُضع المغرب منذ العام 1912 تحت الحماية الفرنسية، وقَدِم

الجنرال ليوتي بناءً على طلب السلطان مولاي عبد الحفيظ(*) ليوطّد السلام في البلاد. فكان أوّل مفوّض مقيم لفرنسا، وبعد رحيل ليوتي في العام 1925 تحوّلت البلاد إلى مستعمرة حقيقية وانتشر الفرنسيون في كل مكان وغدوا أصحاب الأمر والنهي، وأمسى السلطان دمية. كان الاستقلال غير متصوّر في ذلك الحين، بل إن المتجرّئين على المطالبة بنوع من الحكم الذاتي أرسلوا إلى غياهب السجون.

في العام 1927 اختار الفرنسيون محمداً الخامس سلطاناً على المغرب، وفضلوه على أخيه البكر غير المطواع لهم ووجدوا من الحكمة في سعيهم إلى السلام واستمالة الرأي العام في داخل البلاد أن يضعوا على عرش السلطنة هذا الشاب ابن الثمانية عشر عاماً، المغمور، والخَضوع المطواع ظاهريّاً؛ فهو لايخرج من قصره إلا يوم الجمعة ليتوّجه إلى المسجد، وهو ورع مستقيم، ورصين. وتوهَّم الفرنسيون أنّه لن يتمكن من كشف دسائس السياسة أو التصدي لها.

تشكّل حزب الاستقلال في العام 1943 بتصميم ثابت على طرد المستعمر المحتل؛ وتوهّم بدوره أن السلطان كائن ضعيف، عديم الشخصية، دمية استعراض ستتكفل الأحداث بقلبه. وكان حزب الاستقلال كالفرنسيين، كلاهما على خطأ.

برز محمد الخامس وطنياً كبيراً ورجلاً بعيد النظر، وكان لخطابه في طنجة بتاريخ 10 نيسان 1947 وقع القنبلة، عندما طالب باستقلال المغرب؛ وبدأ الفرنسيون حملة استنزاف ضد السلطان مستخدمين جميع الوسائل لإذلاله وإبعاده عن السلطة. وهو خلال ذلك الوقت وتلك الظروف الصعبة يقود بلاده ببطء نحو الحريّة، وإذا كان لم يمتلك، على الأرجح، ذكاء ابنه مولاي الحسن الحاد - الذي غدا الملك الحسن الثاني - فإنه امتلك على الأقل بُعد نظر السياسي الماهر وصبره.

أدرك حزب الاستقلال عقب خطاب 1947 أنه لايستطيع التظاهر دون محمد الخامس؛ كما أن هذا الأخير لاحظ بوضوح أنه لايتمكّن من متابعة المطالبة بالاستقلال دون الحصول على دعم الشعب والقادة

(*) عبد الحفيظ بن الحسن (1875 - 1937) تولى سلطنة المغرب من 1908 إلى 1912 وخلفه أخوه يوسف بن الحسن من 1912 - 1927 - المترجم.

السياسيين الرئيسين. وبدأت منذ تلك الفترة التيارات المختلفة التي تشكّل الحَلَبة السياسية المغربية تتقارب، إذ ليس لديها أي سبب ليحترس أحدها من الآخر، لكن أخذت بعض المواقف المتباينة تظهر، ففئة تدعو إلى ملكية قويّة، وأخرى ترضى بسلطان في ظل نظام دستوري، وجماعة ثالثة تحلم بدولة اشتراكية، لكنهم متفقون كلّهم على هدف عاجل ومباشر: الكفاح ضد المستعمر.

حتى المهدي بن بركة، وقد غدا زعيم اليسار، ادّخر مناهضته لنظام محمد الخامس المطلق، وارتضى المدرّس الاشتراكي أن يعمل أستاذ رياضيات للأمير الشاب مولاي الحسن. غير أن المعلم وتلميذه لم يتحابّا ولم يقدّر أحدهما الآخر كثيراً، فكلاهما يتميّزان بذكاء خارق، وكل منهما يريد استخدام قدراته لتحقيق أهدافه الخاصة من مركزه المرموق؛ فمولاي الحسن بدأ العمل السياسي منذ مطلع شبابه، وهو شديد الطموح ويرغب في سلطة مطلقة في ذات الوقت الذي يكافح فيه من أجل الاستقلال تماماً مثل بن بركة.

هكذا جرت مرحلة حداثتي بين السياسة التي أتتبع أصداءها، وعزلة عالم صنعته لنفسي أرى فيه سعادتي وطمأنينتي في غرفتي الخاصة، وجهاز راديوي الخاص، ودُمايَ الخاصة؛ حتى اليوم الذي التقيت فيه بمحمد بن أحمد أوفقير.

تشاجرت مجدّداً مع خالتي زوجة أبي، ولجأت خلال شهر رمضان إلى منازل أعمامي في الريف فغمرني أبناء عمومتي وبناتهم وجميع أفراد العائلة بألطافهم. كان هذا أوّل شهر صوم أقضيه خارج المنزل الأبوي منذ عودة والدي إلى الوطن، وفي اليوم السادس والعشرين من رمضان حضر أبي لإعادتي إلى المنزل. قال:

ـ يجب قطعاً أن تصالحي خالتك، ليس مقبولاً هذا الخلاف بينكما، ويجب أن تعودي إلينا، ابتعادك غير جائز...

كنت في الرابعة عشرة والنصف من العمر، ورددت عليه:

ـ سأعود شريطة أن تزوّجني.

نظر إليّ منذهلاً وهتف مستنكراً:

ـ أزوّجك؟ ألا تلاحظين أنّك في عمر مبكر؟

ـ لكنني أعرف فتيات متزوجات وهنّ في عمري. وقد ولدتني أمي وكانت في الرابعة عشرة من عمرها!

استأنف أبي وقد بدا عليه الحزن: نعم، ولهذا السبب لاأريد تزويجك في هذا العمر المبكّر. أنجبت أمك أولاداً وهي يافعة، وهذا ما سبّب موتها.

ـ أريد أن أتزوّج، ولن أعود إلى البيت إلا إذا عاهدتني على السعي لتزويجي.

كان ذلك في العام 1951 ، وقد أبديت في ذلك العصر وذلك المكان من المغرب جرأة هوجاء. ما من فتاة في ذلك الزمن تجسر على القول لأبيها: «أريد أن أتزوّج» وخاصة في مثل عمري! وأمام عنادي وعدني أبي بشكل مبهم بتحقيق رغبتي، وعدت معه مساء ذلك اليوم إلى منزلنا.

* * *

في اليوم التالي لم يبق أحد في المنزل، فأبي وزوجته وأولادهما ـ أخي وأختاي غير الأشقاء ـ وابنة عمي عاشورا ووالدة زوجة أبي، ومربيتي، ذهبوا كلّهم مع بعض الأصدقاء إلى الحمام المغربي، فهذه الليلة هي «ليلة القدر» وفيها تهبط الملائكة من السماوات لتغفر للمؤمنين التائبين خطاياهم.

في المساء كنت وحدي أقوم بتحضير العشاء، وطهو الحساء التقليدي، وإعداد المائدة، عندما دوّت طلقة المدفع تعلن مغرب الشمس وانتهاء يوم الصيام وحلول موعد العشاء، وكنت غارقة في غبش عتمة المساء. في تلك اللحظة المحدّدة رأيت رجلاً مجهولاً يرتدي بزّة من الحرير الأبيض، ويعقد رباط عنق مخطّط، تبدو عيناه البراقتان وهما ترسلان نظرات ثاقبة من وراء زجاج نظارته الصغيرة الغريبة، وشعره المنتصب بسواد أبنوسي، ووجهه الملوّح بالسمرة جعلني أحار عند رؤيته، فهل هو آسيوي أم مغربي؟ على كل حال كان منظره غير مألوف وهو يتقدم نحو منزلنا وسيجارته في يده.

لحق به أبي بعد دقائق قليلة، وتقدّم ضيفه إلى الصالون الكبير حيث جُهّزت مائدة الإفطار. ووجب أن أبقى خارجاً كالمعتاد: فالتقاليد تقضي بأن تبقى الفتيات خارج القاعة التي يستقبل رب المنزل فيها ضيوفه؛ لكن أبي كان يضمر بالتأكيد فكرة مسبقة؛ فقد طلب مني تقديم

القهوة. دخلت إلى الصالون أغضُّ الطُرف أمام نظرة هذا الرجل المجهول الفاحصة. لم أعتد أبداً على هذه النظرة الرجولية المُعجَبة المختلفة عن نظرات أصدقاء أبي الذين يعتبرونني طفلة لاصبيّة ناضجة... وعندما رفعت عينيّ رأيته واقفاً يتوجّه لتحيّتي.

قال أبي: أقدم إليك أوفقير.

* * *

إنّه ضابط لامع برتبة نقيب في الجيش الفرنسي، تزيّن صدره ميداليات رائعة. تطوّع في الجيش الفرنسي وهو في التاسعة عشر من عمره، العام 1939 ، وبعد أن قضى بعض الوقت في الجزائر، اشترك في الحملة على إيطاليا. وفي بداية العام 1944 أجرى اختراقاً بطوليّاً فَقَدَ من جرّائه نصف عناصر كتيبته لييّسر للأمريكيين دخول مونت كاسينو. وفي 4 حزيران دخل بشكل مظفّر إلى روما تحت العلم الفرنسي المثلث الألوان.

كنت أمتلك صورة عن هذا الحدث، صودرت مني وأُتلِفَت. هي صورة رائعة يُرى فيها أوفقير يلوّح بالعلم على رأس الحملة الفرنسية.

ثم كانت الحرب في الهند الصينية حيث دخلت فرنسا في نزاع مسلّح جديد، وكان أحد الضباط المرموقين بأوسمتهم المتعدّدة. حاز على وسام جوقة الشرف في ميادين القتال؛ وحاز أيضاً على صليب الحرب ذي الأنجم الأربعة والسعفات الثلاث، وعلى وسام النجم الفضي الأمريكي، وعلى القلادة الاستعمارية، ووسام فرسان مالطة، ووسام الاستحقاق العسكري الشريفي المغربي، وأوسمة أخرى مُنحت له لجهوده في ميادين القتال، لا لبروزه في الصالونات.

في العام 1950 حصل على إجازة ثلاثة أشهر، فذهب أولاً إلى منزل ذويه في بودنيب، إحدى قرى الجنوب، على مشارف الصحراء، إذ أنه، قبل كل شيء، رجل صحراوي؛ يعرف أسرار الصحراء ومفازّها، وقد قضى أيام شبابه يتسلّق وحيداً كثبانها القاحلة التي لانهاية لها. وهو الآن يستريح بعد عشر سنوات من حرب متواصلة، عشر سنوات مرّت عليه والسلاح في يده؛ وهو يتناسى الآن عنف المعارك وينصرف إلى تأمّل السباسب الجافة الفسيحة، يجوبها وحيداً، وقبعته على رأسه،

وعصاه في يده، وقربة ماء في كتفه، يسبر الأرض منقّباً عن الفلزات المعدنية... إنّه يبحث عن عروقها، وهو هوى استبد به وخَبِره، وهكذا كشف عن خامات من المنغنيز، والرصاص، والحديد، والنحاس في تجواله. وهو مغرم بالعمل بيديه، واستخلص بعض قطع معدنية من الفلزات التي عثر عليها وحدّد معالمها وصنع منها حلقات أعطاها لأمه. كان قانون المناجم في تلك الحقبة يمنح مكتشف المنجم حقّ استثمار منجمه مدة خمس سنوات قابلة للتجديد، فامتلك أوفقير عدة مناجم صغيرة عهد باستثمار مواردها لأصدقائه.

كان آنذاك في الثلاثين من العمر، وقد خبر الحياة ورأى كثيراً من الأشياء... عرف إلى جانب الحرب الكازينوهات، والملاهي، والنساء، والمغامرات، وعاشر نخبة مجتمع آسيا الجنوبية الشرقية، وغدا من رواد بلاط الإمبراطور باوداي، وصادق ابنة الإمبراطور الذي هزت الحرب عرشه، بل وُضِعَت مشاريع للزواج منها... وعاد إلى المغرب، فعمل في قيادة أركان الحامية الفرنسية، وسمي مرافقاً عسكرياً للجنرال دُوڤال قائد القوى الفرنسية المعسكرة في البلاد.

كانت تلك المدة التي قضاها أوفقير في الجيش الفرنسي مفيدة جداً له، فقد أتاحت له أن يكشف عن مواهبه، ويعرف الجهة التي يجب أن ينحاز إليها، وكانت الجهة العاملة لاستقلال المغرب، رغم وجود عدد من الضباط المغربيين الموالين لفرنسا، الذين لم يفكروا أبداً بقدرة البلاد على نيل حريتها، ولم يؤمنوا أبداً بالالتحاق يوماً بجيش خاص بالمغرب. أمّا أوفقير فقد توقّع منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن يغادر الفرنسيون البلاد يوماً، وأراد أن يكون من العاملين لهذه المغادرة، لا من المشاهدين. وهكذا انضم سريعاً إلى صفوف الوطنيين.

* * *

قال والدي: أقدّم إليك أوفقير.

أجبت بكلمة «عِمْ مساءً» هامسة بلا مبالاة؛ ووضعت صينية القهوة على المائدة. أوفقير... ظننت عندئذ أنّه اسمه الكامل وغدوت أُسميه على الدوام، وبكل بساطة أوفقير.

توجّه أوفقير عند خروجه من زيارتنا لرؤية أصدقائه وبادرهم بالقول:

ـ رأيت فتاة ناعمة جدّاً لدى شنّا...

ـ لدى شنًّا؟ لكننا لانعرف في منزله غير ابنته، وهي يافعة في مطلع الصبا...

ـ كلا، كلا، إنها شابة جميلة جداً بشعرها المسترسل الطويل، وهي تعجبني، إنها رائعة!

ـ لكنك مجنون، إنّها طفلة دون الخامسة عشرة...

ـ لايُهم، سأنتظرها.

كان ذلك الحبَّ من أول نظرة؛ أخيراً بالنسبة له. أمّا أنا فلم أكن أعلم ما يعنيه الحبّ من أول نظرة! ولم أتثقف ضمن هذا المنظور، وكجميع أترابي كنت أخال نفسي عاشقة كل يومين، ومتيّمة بفتى وسيم أراه يجتاز الشارع أو من فارس أتصوّره بمخيلتي. لكنني لم أفكر أبداً برجل حقيقي ماثل أمامي، يرغب الاقتران بي.

في الواقع بعد ثلاثة أيام طلب أوفقير يدي رسمياً؛ وتردّد أبي، لكنني كنت راغبة في الزواج وهو لايريد أن يعود صديقه أوفقير إلى الهند الصينية.

ردّد أوفقير عند ذلك: ليس لدي ما أعمله هنا، فأنا لم أخلق لوظيفة في الأركان العامّة أو في المكاتب، ثم إن الرواتب مجزية في الهند الصينية، وأريد الذهاب إليها.

صاح به أبي: أنت مجنون! أتريد أن يخترق الرصاص صدرك من أجل أرض سيخسرها الفرنسيون على كلّ حال!

كان أبي يكره الحرب دائماً، ويعتبر أن من الحمق الذهاب إلى الموت من أجل مستعمرة مهما كانت أهميّتها. أخيراً رضي بتزويج ابنته لأوفقير الذي لم يذهب للقتال في الهند الصينية.

لم أكن في المنزل عندما حضر أوفقير يطلب يدي، فقد ذهبت لزيارة أصدقاء لأبي بعيداً عن فاس عندما أُعلمت بكل بساطة عقد قراني على رجل، وتمّ كتابة الكتاب، فأنا زوجة الآن.

لم يكن يُطلَب رأي البنات، فالأب وحده يقرّر. ولم يكن لي إلا رغبة واحدة هي مغادرة المنزل. لم يكن بالإمكان تزويجي لأي رجل بأيّة

حال، وقد اقتُرِح عليَّ رجال آخرون لكنني لم أقتنع بهم، فهم غير مثقفين، وليس لديهم شيء يوجهونني به، فأنا لاأريد الحياة مع إنسان أحمق. وقد حافظت على الصمت عندما ذُكِرَ لي أوفقير، ولم أعبّر عن عاطفتي. وعندما ذُكِر لي أنه طلب يدي وتمّت الموافقة على الطلب، أجبت فقط بعبارة: «جيّد جدّاً».

عندما تواجهت مع أوفقير لأوّل مرّة، أدركت مباشرة أنني سأتفاهم مع هذا الرجل؛ فهو سخيٌ ذكيٌ، ظريف الحديث، صاحب فكاهة؛ وقد كان متيّماً بي في البداية على الأقل، حريصاً على تلبية جميع رغباتي. دامت خطبتنا سبعة أيام بلياليها؛ أسبوع مآدب أهديت لنا فيها الخراف وأفراخ الدجاج.

على مصطبة منزلنا ذات الأرضية المبلّطة ببلاط آجري سداسي الأضلاع، وبين الجدران البيضاء المطلّية بالكلس وفي غرفة صغيرة مخصّصة لتخزين الفحم رتّبت جميع ألعابي. فاجأتني خالتي زوجة أبي غداة عقد خطوبتي في هذا المخبأ أواصل التلّهي واللعب بالدمى التي سبق أن أعددتها بنفسي من عيدان القصب. فانتابها غضب رهيب. دُمى! ليست هذه اهتمامات زوجة المستقبل... ولم أر ثمة مانع، لكنها هتفت قانطة:

- فتاة تصوم شهر رمضان، وقد عقدت خطبتها الآن وماتزال تلعب بالدمى.

صَادَرَت جميع ألعابي. يجب الاعتراف أن فتاة في الخامسة عشرة من عمرها آنذاك تختلف اختلافاً بيّناً عن مثيلاتها في الوقت الحاضر؛ فما من وسيلة تساعد على نضوجها المبكّر إلا هاجس الزواج.

أمام اختفاء دماي بكيت بدموع حارّة. لكن أوفقير حضر لمواساتي، وعندما علم سبب بكائي، وجده، دون شك، مدعاة للسخرية. قطّب حاجبيه، وبدت على محياه ابتسامة حاول أن يخفيها. ثم طمأنني واعداً بأن يشتري لي جميع الدمى التي أرغب بها.

ذهبنا في اليوم التالي فعلاً واشترينا دمية كبيرة الحجم ودُمى أخرى أصغر منها، وعملنا هذه المرة متواطئين على إخفائها بعناية بعيداً عن تحريات زوجة أبي وقدرتها على اكتشافها.

هكذا تعلّقت حياتي بهذا الرجل الذي فهم جيّداً عزلتي ومدى حاجتي إلى المودَّة والحنان؛ وكان شهماً جوّاداً، لم يرفض لي طلباً أيّاً كان شأنه، كما لم يحاسبني يوماً على إنفاقي. كان سيّداً كبيراً في نبله.

تمّ الاحتفال بزواجنا في 29 حزيران 1952 ودامت أفراح العرس اثنين وعشرين يوماً، اثنين وعشرين يوماً من الموسيقى والرقص والولائم. كما كانت المآدب والمآكل جنونية في تلك الحقبة، حتى ليصاب الآكلون بالمرض! ففي كل يوم تعمر الموائد بنحو خمسين فرخ دجاج، وبخراف كاملة عدا قطع من لحم العجل. إنَّها التقاليد.

كانت الاحتفالات متتابعة، بدأت بحفلة حمَّام العروس، وخرجتُ بموجبها من بيت أبي برفقة موكب من النساء والموسيقيين الذين يعزفون أنغاماً تقليدية على أدوات عديدة من الطبول والمزاهر والمزامير، ثم احتفال الحِنّة وفيه ترسم على يديّ نمنمات دقيقة، وبعد ذلك حفلة راقصة في نادي الضباط. لكنني أذكر بصورة خاصّة احتفال تقدمات الهدايا: حيث يحيط بي المدعوون، وتتقاطر هداياهم على صينية كبيرة من النحاس أمام قدمي، وتتراكم الأساور، والقلادات، والخواتم، ومشابك الزينة، والأقراط وكلُّها من الذهب... هذا هو التقليد السائد آنذاك؛ ويساهم المدعوون في لوازم المآدب فيحضرون معهم اللحوم والسمن والزيت ويقدّمون بعض الدراهم للموسيقيين، ويشاركون في تنظيمات الاحتفال وزيناته وأعماله، وهذا ما يُمكّن من إقامة أعراس رائعة في جميع الأوساط على تنوّعها.

أما أنا الفتاة الصغيرة التائهة في جلال هذه الاحتفالات التي لاتنتهي فقد احتفظت بدُماي العزيزة، وحملت معي أجملها. وانصرفت تحت مظلّة الطرحة التي تخفيني عن أنظار المدعوين إلى لعب دور الأم؛ وأعددت بجزء من طرحتي اقتطعته خفية، طرحات صغيرة لعزيزاتي الدمى الصغيرة ليستطعن بدورهن الزواج والظهور بمظهر العرائس...

لم يّبق لي للأسف شيء من هذا الزواج، لاتذكاراته، ولاصُوَرُه. صادروا كل شيء وأحرقوه.

لاحظ أوفقير بسرعة أنني لم أختبر الحياة، ومازلت بعقلية

الطفلة، ولم يوجّه لي أيّة ملامة. كنّا نذهب إلى حفلات ممتعة، وبدلاً من التصرّف مثل جميع الناس فأشارك في الشرب والتسلية والنقاش أركن إلى زاوية صغيرة منعزلة ومريحة وأنام... ففي منزلنا الأبوي اعتدنا على النوم في الثامنة مساء، والاستيقاظ في الخامسة صباحاً؛ وصعب عليّ أن أعتاد على نسق حياتي الجديدة، فلم يوّبخني أوفقير أو يعاتبني، بل قال لي بكل هدوء:

ـ عندما تحسين بالرغبة في النوم، لاعيب في أن تنامي.

أحببت هذا الرجل لصبره اللامتناهي. ورثيت له بعد أن غدوت أكثر نضجاً لما وجب عليه أن يتحمل من فتاة مثلي، يافعة لاتعرف شيئاً عن الحبّ، والحنان، والثقافة، وهو الذي يختلط مع نخبة أفراد المجتمع من المثقفين، والمحامين، والمهندسين، والصحافيين، والفنانين ويصحبني إلى هذه الأوساط المتميزة حيث أبقى صامتة معظم الوقت، وعندما أحاول، على غير عادتي، أن أشارك في الحديث أخرج عن الموضوع وعن اهتماماتهم.

كانت ميزتي الوحيدة في تلك الفترة حُسَن الاستماع، أقضي ساعات أصغي إلى المدعوين إلى أن أنام. وفي اليوم التالي أشتري الكتاب الذي تحدثوا عنه في محاولة لمجاراتهم ولأكون على مستوى ذلك المجتمع، سواء عن بعض شعورٍ بعقدة النقص، أو عن أنفة وإباء. وأنا أتأسَّف في سرّي لأن أَبي أخرجني باكراً جداً من المدرسة رغم أنني أملك على الأرجح القدرة على مواصلة الدراسة بنجاح.

بعد زواجي ترك لنا أبي بيت سلاّ، ذلك المسكن الجميل الواسع والمشمس، بعد أن تركه في النهاية طبيب الأسنان الفرنسي. لكننا في العام 1955 وبعد ولادة مليكة طفلتنا الأولى، قررنا الذهاب للسكن في مبنى عسكري مجاور لثكنة فرقة قنّاصة المدرّعات الأولى القريبة من أحد الأحياء الشعبيّة في الرباط على امتداد شارع فوش، وأسف أبي لمغادرتنا سلاّ، وألحّ علينا بالبقاء قائلاً لي:

ـ هذا البيت لك، فهو من إرث أمّك، ويمكنك البقاء فيه...

لكنني كنت أريد مشاركة زوجي الكاملة في حياته، ونحن نسهر خارج المنزل كل مساء، وسلاّ بعيدة عن أماكن اللهو والتسلية في

الرباط. كانت تجري آنذاك لدى الفرنسيين والمغاربة سلسلة متواصلة من حفلات الرقص والاستقبالات الرسمية، فقد انطلق مجتمعُ ما بعد الحرب ما وسعه الانطلاق في الترويح عن نفسه وفي المرح والمسرّات. واكتشفت الحرية بعد أن بقيت مدة طويلة معتزلة محتجزة في المنزل، ولم أعد ألازم الزوايا القصّية، بل أقضي عصر كل يوم في إحدى صالات السينما، والسهرة في إحدى حفلات الرقص. كنت أستمتع بسعادة كاملة.

كنت من هواة السينما المولعات بل المدمنات، أحضر أحياناً ثلاثة أفلام في اليوم الواحد حتى لايفوتني فيلم يعرض في صالات الرباط بما فيها الأفلام العربيّة والوثائقية! وعندما أستنفد جميع برامج الأسبوع في العاصمة، أذهب إلى الدار البيضاء. ومازلت حتى الآن أحب السينما لكنني أصطفي بعض الأفلام؛ لقد عرفت كثيراً من المآسي، وتنتابني الرغبة في نسيان ذكرياتها والترويح عن النفس... لقد حطموني معنوياً، وسحقوا قلبي بتعذيب معيب تفننوا فيه، مدفوعين بتصميم شرس على إبادة عائلة كاملة.

أنتقل من قاعات السينما إلى المراقص لتكتمل أفراحي، ولو لم تتخلّل حياتي تلك الظروف الطارئة المتكرّرة الناتجة عن الحمَل لكانت سعادتي تامّة.

لم أشعر بالرغبة في إنجاب ولد أوّل في وقت مبكّر، ولكن كيف يمكن تجنّب ذلك؟ لاتوجد أيّة وسيلة لمنع الحمل، وخاصة بالنسبة لامرأة شابّة فقدت أمّها منذ الطفولة، وليس إلى جانبها من يقدّم لها النصيحة. سمعت بطريقة أوجينو، إنّما يجب عدّ الأيام على الأصابع، وحساب تاريخ الاتصالات الجنسيّة التي يزعمون أنّها غير مخصبة... لكنها طريقة غير فعّالة. وملايين الولادات التي تمّت بعد الحرب العالمية الثانية جرت غالباً رغم لجوء الأمهات إلى طريقة أوجينو. يضاف إلي ذلك أن آلاماً رهيبة تنتابني أيام الحيض، وقد أخطرني الطبيب:

- لن تجدي الراحة إلا بعد الحمل.

هكذا أنجبت ابنتي البكر بسرعة، وبعد الوضع بثمانية أشهر كنت حاملاً من جديد... وأيضاً، وأيضاً... أنجبت ثلاثة أولاد، وحدث لي

إجهاض طارئ بعد بلوغ الحمل في الشهر الخامس؛ لقد تمّ كل ذلك وأنا لم أتجاوز الثانية والعشرين من العمر.

كان شعوري بعاطفة الأمومة كبيراً؛ فأولادي عائلتي، وقد أردت أن أخلق شيئاً يخصّني، إذ أنني فقدت أمي منذ طفولتي، وليس قربي عمّة أو خالة... وكنت أقول لنفسي وأنا صغيرة «سأنجب اثني عشر ولداً على الأقل» ورُزقت بستة وضيّعتْ عليَّ المدة الطويلة التي قضيتها في السجون فرصة إنجاب ستة آخرين.

بعد إنجاب ولدنا الثاني أراد أوفقير الاكتفاء بولدينا، وغالباً ما قال لي:

ـ ماذا ستفعلين بكل هذه الذريّة؟ ليس لدينا عرش نريد أن نضمن استمراره. وستجدين نفسك يوماً تعانين المشاكل.

أجبته: ذلك لأن ليس لي عائلة.

الواقع أن العائلة التي أفتقدها هي عائلة أمي، إذ أن الأعمام والعمّات وأبناءهما وبناتهما كُثُر فقد كانوا ستة عشر أخاً وأختاً، ولكل منهم نحو عشرة أولاد. كذلك كان آل أوفقير عديدين. ستة عشر أيضاً، ماتوا كلهم الآن، ولم يبق منهم إلا واحد فقط وهو نصف معتوه.

* * *

عرف أوفقير ولي العهد مولاي الحسن زمن عزوبيته، وصادفه ثلاث مرات أو أربعاً على الشاطئ في أحد المطاعم، وتبادلا الحديث بل ولعبا البليارد في تلك الفترة.

كما التقى محمداً الخامس لأوّل مرّة في العام 1953 في حفل استقبال رسمي كبير. كنت في السابعة عشرة من العمر وقد أنجبت ابنتي البكر، وأنا وزوجي من المدعوين.

ما أزال أذكر تلك الموائد العامرة بالحلويات، وأنا في ثياب أنيقة: تايور أسود وقبعة صغيرة، والمدعوون جميعاً مقبلون بنَهَم على الموائد يلتهمون قطع الحلوى الشبيهة بقرون الغزلان وقد تناثرَ عليها ذرور السكر الأبيض الناعم، والسلطان يتأمَّل هذا المشهد من بعيد. كنت أجلس على كرسيّ أقضم إحدى القطع، وتساقط بعض المسحوق الأبيض على ثوبي الأسود، فوقفت أنفض هذا المسحوق عندما التقت

عيناي بعيني محمد الخامس. أشار لي طالباً مني أن أمثُل أمامه، فهرعت مخترقة هذه الجموع المحتشدة حول الموائد، وتوجّهت إلى المنصة التي يجلس عليها مع نسائه وبناته.

ـ من أنت؟

إنّها المرة الثالثة في حياتي التي يطرح عليّ خلالها هذا السؤال.

ـ أنا زوجة أوفقير.

ـ أين يعمل؟

ـ في المفوّضية.

بدا عليه الامتعاض عند سماع جوابي، ورأيت عينيه تبرقان، فالمفوّضية مقرُّ السلطة الفرنسية... وهذا الضابط في خدمة المحتل إذن! لكن ربّما فكر السلطان في تلك اللحظة بأن رجلاً يشغل مهاماً في ذلك الموقع يستطيع تقديم بعض الخدمات له...

رأيت محمداً الخامس بعد ذلك بشهر لدى إحدى الصديقات. قالت لي:

ـ أحضري لي ابنتك.

عندما تطلب إحدى العائلات الكبيرة رؤية طفل، فهذا يعني في التقاليد المغربية إكرامه وتقديم الهدايا له. وبالفعل قدّمت تلك السيدة لمليكة أساور صغيرة، وزناراً من الذهب؛ وبعض الملبوسات... وفجأة رأيت السلطان قادماً من إحدى الغرف؛ أخذ طفلتي البالغة خمسة أشهر من العمر بين ذراعيه، وأجلسها على ركبتيه، وأخذ يبتسم لها... ثم وضع على بطنها كيساً من مخمل أخضر رُبط بشريطة مذهّبة: في داخله خمس وعشرون لويسية ذهبية وغادر المكان. لم نشاهده بعد ذلك إلا قبل الاستقلال بوقت قصير.

* * *

قامت الانتفاضات السياسية المفاجئة فبلبلت وجودنا؛ فالفرنسيون العازمون على الحطّ من تعاظم السلطان أرسلوا إلى المغرب رجالاً من أمثال موريس بابون الذي سمّي مديراً للشرطة، وغيره من كبار الموظفين بهدف الحدّ من نفوذ محمد الخامس وعزله، ومكافحة التيار الوطني الوليد.

في هذا الصراع الدبلوماسي المبطّن استخدم المحتل الاقطاعيينَ وشجعهم؛ وفي محاولةٍ لجعل النظام يستتب في المحميّة لعبت المفوّضية ورقة زعماء الإقطاع المرتشين، والمتعاونين معها وأولئك الذين قبلوا العمل في ظل حمايتها. استخدم المستعمرون بعض وجهاء كبار العائلات ليشكّلوا نواة لمعارضي السلطنة، وزينوا لهم الحسنات والفوائد التي جنتها البلاد من الحماية الفرنسية؛ وتمكّنوا من خداع اثني عشر زعيماً من رؤساء القبائل الكبرى في المغرب ارتضوا أن يوقّعوا طلباً بخلع السلطان محمد الخامس. كان معظم هؤلاء الرؤساء شبه أميين لايعرفون إلا ترداد بعض آيات حفظوها من القرآن دون إدراك لمعانيها السامية، وهم من متقلّبي الرأي الذين يسيرون مع التيار... إذ أنّهم بعد ذلك سعوا ليقتاتوا من فتات موائد الملك.

كان متقدّم هذا الرتل تهامي الغلاوي(*)، باشا منطقة مراكش، وقد جابه منذ مدّة طويلة سلطة محمد الخامس، وأراد دون شكّ اغتصاب عرش السلطنة... وهو يعيش في رخاء داخل قصره بين عبيده ومحظياته، حيث يمارس سلطة مطلقة متصرفاً بحياة أتباعه وموتهم على هواه. ويسود في قبيلته طاغية، محرَّضاً من فرنسا؛ يفرض قضاءه وأوامره بضربات الهراوات؛ ففي يوم الجمعة ـ يوم الصلاة ـ يجوب رجال الغلاوي الشوارع، والويل لمن يوجد مخزنه مفتوحاً، فهو يقاد لتنفذ عليه عقوبة الجلد، ويغلق متجره لأسابيع عديدة.

كنت أكره المستعمر، بسبب ما نتعرض له من تحقير مستمر؛ فالمغربي بالنسبة لبعض الفرنسيين عبدٌ، بونيول(**)، كائن حقير لاشأن له. في يوم خاطبتني صاحبة بقالية فرنسية بازدراء:

ـ فَطْمة، ماذا تريدين(***)؟

(*) الغلاوي: تهامي (1875 ـ 1956) زعيم قبائل الغلاوة في منطقة مراكش ـ المترجم.

(**) بونيول Bougnoule: كلمة من مفردات لغة قبائل الأولوف المنتشرة في السنغال وتعني «الأسود» وقد عمّمها المستعمرون البيض على السنغاليين تحقيراً لهم، واستخدمها الفرنسيون بقصد التحقير والإهانة أيضاً لسكان الشمال الأفريقي ـ المترجم.

(***) إهانة مزدوجة: فطمة رغم أنه تصغير لاسم «فاطمة» تخاطب به الخادمات في الشمال الأفريقي، والمخاطبة بالمفرد من خارج الأهل والأصدقاء تحقير ـ المترجم.

أجبتها: لا أعتقد أننا رعينا الأبقار معاً! كيف تجيزين لنفسك رفع الكلفة في مخاطبتي وأنت لاتعرفينني؟

ذُهلت البقّالة، فقد فوجئت بردّي الغاضب في البدء ثم استأنفت: لكنك إحدى «الفطمات!».

- لست خادمتك، ولا «فطمتك»؛ ومادمت لا أوجه إليك الكلام بصيغة المفرد، فإنّي أمنعك من مخاطبتي بهذه الصيغة.

كانت صهباء اللون، بدينة، مبتذلة؛ وانتابتها غصَّة، وتصببت عَرَقاً، وقالت:

- ماذا تريدين؟ سأستدعي الشرطة!

- هيّا، يجب أن تستدعيهم، وفي الحال!

تناولتُ قفصاً خشبياً ممتلئاً بالبندورة وقلبته على رأسها؛ فخرجت عن طورها، وخلت أنّها تكاد تنفجر... ووصل أفراد الشرطة فاقتادوني إلى أمام بابون.

كان هذا المدير يعرف أوفقير؛ فقال:

- فاطمة، إن عدت إلى مثل هذا التصرف سأضعك في السجن.

صحت به: تريد وضعي في السجن من أجل بقّالة تخاطبني بصيغة المفرد، وتناديني «فطمة» بازدراء؟

أراد موريس بابون التظاهر بالودّ فاستأنف مسترضياً:

- أردت المزاح، هيّا يا عزيزتي فاطمة، لن أضعك في السجن لهذا السبب، لكن لاتعودي لمثله كيلا تُحرجين موقفي...

بالمقابل، كان أقل وداً يوم مَثُلتُ أمامه مرة أخرى عندما أُلقي القبض عليّ وأنا على رأس مظاهرة تدعو لعودة محمد الخامس المنفي في كورسيكا مع جميع أفراد عائلته. فهذه المهانة القصوى كانت بالنسبة لنا البداية الحقيقية للكفاح الذي أوصلنا إلى الاستقلال وأنا أتذكّر تفصيل كل مرحلة.

في يوم الخميس 20 آب 1953 ، نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، كنا نجلس إلى مائدة الغداء، وقد دعونا أربعة أو خمسة ضباط،

وبعض السياسيين أمثال محجوبي أهردان الذي قاد كفاحاً ضارياً من أجل الاستقلال، وغدا فيما بعد وزيراً للدفاع. فجأة سمعنا جلبة حركات صادرة عن الثكنة المجاورة... بُهتنا جميعاً، وأدركنا أن أحداثاً هامّة تجري على بُعد خطوتين من المنزل، وغادرنا المائدة، وهرعنا إلى الحديقة. رأينا الدبابات تتوجّه إلى القصر، وبعد نحو ساعتين حلّقت الطائرات الحربية في الجو، وملأ الفضاء أزيزُها... علمنا أن السلطان قد أقصي عن العرش، ورُحِّل إلى المنفى. كان هذا كارثةً بالنسبة لنا.

منذ تلك اللحظة عَزَمنا على التحرّك وبدأت الثورة في صميم نفوسنا. وبموافقة إجماعية، واستنكاراً لما حَدَث، أحدث كل منا جرحاً في أوردة يده ـ ماتزال ندبته ماثلة في معصمي ـ لنوقّع عهداً بالدم، ونقسم على الجهاد حتى عودة السلطان إلى أرض المغرب.

نصّب الفرنسيون على عرش السلطنة أحد تابعيهم، المخلصين لهم، محمد بن عرفة، وهو عجوز ضعيف الشخصية بقي سنتين في منصبه مجازفاً بحياته. إذ أنه في أوّل صلاة جامعة حضرها بصفته سلطاناً هاجمه علّال بن عبد الله والسكين في يده، غير أن الفدائي الوطني لم يتمكن من الوصول إلى السلطان العميل العجوز، فقد اخترقت جسده مئات الرصاصات التي أطلقت عليه من رشيشات الحراس؛ وكان علّال أوّل بطل، أوّل شهيد يسقط في سبيل الاستقلال.

إن كانت المفوضيّة قد سعت لإحكام سلطتها أيّاً كان الثمن، فإن الوضع في باريس كان مشوّشاً فقد عارضت بعض الشخصيات السياسية، وبشدّة أحياناً، خلع محمد الخامس ونفيه. من هؤلاء فرانسوا ميتران، وكان وزيراً للداخلية في حكومة منديس فرانس، إضافة إلى شخصيات أخرى ذات نفوذ مثل بيير جولي، وجورج بيدو، ورينه بليڤن. بالمقابل أيّد المارشال جوان، المفوّض العام السابق في المغرب، علانية وصراحة إبعاد السلطان وعائلته؛ فبإمكانه في أسوأ الأحوال التغاضي عن محمد الخامس، لكنه يرتاب بالأمير الحسن الذي سيرث عرش والده، ويعرف طموحه اللامحدود، وطبعه المتصلّب.

لم تكن الجمهورية الرابعة شديدة الاستقرار، فالحكومات فيها

تتوالى بتواتر سريع، مما دفعنا إلى التفكير بأن على المحتل تنظيم شؤونه الداخلية قبل أن يعمد إلى إعطائنا دروساً.

* * *

أقسمنا، إذن، في ذات الوقت الذي نفي فيه محمد الخامس على الكفاح من أجل الاستقلال. ولم يشكّ أحد في المفوّضية بأن اجتماعاً سرّياً عُقد في منزلنا الصغير لتنظيم تكتُّل متآلف ضد السلطة الفرنسية.

وجب أن يتمّ كل شيء في الخفاء فنحن نجازف بحياتنا، ومن الضروري حماية أوفقير، فهو يقدّم للوطنيين معلومات ثمينة عن كلّ ما يجري في قيادة الأركان الفرنسية. غير أنه، في سخطه أحياناً، يكاد يعرض نفسه للخطر في مجابهته لبعض الضباط الفرنسيين الذين يسيئون معاملة المغاربة. فهو مثلي لايرضى الهوان ويشمئز ممن يسكت عنه، لكن يجب أن يكبت غضبه، ويتحمل على مضض كثيراً من المضايقات حتى لايستطيع أحد كشف عواطفه الحقيقية.

توالت الاجتماعات السريّة باستغلال بعض المناسبات الطارئة: حفل زواج، أو اجتماع عائلي، وبينما ينصرف الحضور إلى بهجة المناسبة يتجمع بعض الأشخاص خفية حول أوفقير.

أمّا أنا فقد قضيت حياتي في زلّات اللسان. أذكر هفوة رعناء ارتكبتها في منزل أحد القادة السياسيين، وكان آنذاك مايزال محامياً ناشئاً. وتطرّق الحديث عن رجل سمعت عنه أنه كان على علاقة طيّبة مع بن عرفة سلطان الفرنسيين العميل...

هتفت بلهجة حاسمة: إنّه ذلك الأحمق الذي مدّ يده مصافحاً بن عَرَفة.

لكنني لم أكن أدري أن ذلك «الأحمق» حمّو مضيفنا! وأعقب صمتُ مربك ملاحظتي الرعناء التي ينتابني الخجل عند تذكرّها.

منذ العام 1951 اعتُقل عدد من قادة الاستقلال وسجنوا في الجنوب، وأُودع بعض هؤلاء في سجن مدينة بودنيب معقل آل أوفقير.

إنّها مدينة ميتة الآن، فمنذ غياب زوجي، رفض وزير الداخلية أن يخصّ تلك البلدة بفلس واحد، ولم يبق فيها إلا العجائز والكلاب الشاردة...

في زمن الحماية الفرنسية بلغ عدد الجنود المعسكرين في بودنيب خمسة وعشرين ألفاً عدا سكانها الأصلاء؛ وكان الفرنسيون يقيمون فيها حفلات الرقص والاستقبال الرائعة.

في تلك البلدة النائية، الواقعة على بعد مئة كيلومتر من الحدود الجزائرية، في تلك الصحراء الحجرية الوعرة، وفي مناخ صيفها القائظ، وشتائها القاسي، وفي سجن تلك المدينة - الذي اشتهر بأنه الأكثر صرامة في البلاد - زجَّ الفرنسيون قسماً من سجنائهم السياسيين. قدّم لهم شقيق أوفقير، مولاي هاشم كلّ المساعدة. كان يرسل لهم الطعام يومياً، ويوافيهم بالشاي والسكّر، ويؤمّن غسل ثيابهم. واسم أوفقير يعني «آل الفقير»... وهم بالفعل ملاذ الفقراء وبيتهم مفتوح في كل لحظة حيث يُؤًّمن الطعام والمأوى لكل من يقصده.

كان بن بركة من هؤلاء المساجين المبعدين. وحاول عند خروجه من السجن أن يجتمع بمحمد أوفقير ليحفزّه على مزيد من النشاط في الحركة الاستقلالية. وسعى لإيجاد وسيلة للوصول إليه خفية، وكنت أنا هذه الوسيلة إذ سبق له التعرف عليَّ في الرباط.

التقى بي بن بركة إذن، وصحبته عدّة مرات سرّاً إلى منزلنا ليتمكن من التداول مع أوفقير. كنت أقود سيارة رسمية تعود للمفوضية، يمكنني المرور بها دون تفتيش من الشرطة أو الدرك. ولما كان هذا المنشقّ يسكن قرب بقاليّة في شارع تمارا (شارع الحسن الثاني حاليّاً)، فقد كنت أحضر مساءً لشراء حاجياتي من تلك البقالية، وأصحب معي ابنتي مليكة وزجاجة الرِضاعة بين يديها وكرسيُّها مشدود إلى المقعد الخلفي. أفتح الصندوق لأضع فيه مشترياتي فينزلق بن بركة بين البقول والفواكه! وأغلق الصندوق وأمرّ من أمام المفوضية وأدخل إلى المنزل، وما بين الأبواب والنوافذ الموصدة ينصرف أوفقير وبن بركة إلى مداولاتهما مدة ساعات.

حضرت جزءاً من هذه المداولات التي أسخطتني خلالها أفكار بن بركة. فضيفنا السرّي يرتئي عدم عودة السلطان مباشرة إلى المغرب، ويريد أن يراه مقيماً لعدة أشهر في باريس إلى أن يتسنّى للبلاد إعداد دستور يوافق عليه الشعب، دستور يقلّص سلطات السلطان لتقتصر على الصفة التمثيلية فقط، هذا مافهمته من الآراء المعروضة على بساط البحث. بل إن ابن بركة لايرضى هذه التسوية إلا لمعرفته بألفة المغاربة للحكم الملكي، واحترامهم العميق لمحمد الخامس. وهل يمكن أن يكون هناك غير الشعور بالحب نحو الرجل الذي يريد استقلال البلاد والذي ضحّى بعرشه في سبيل ذلك. ما كنت أريده، بدوري، هو أن يعود السلطان وعائلته مباشرة إلى المغرب، وأن يمارس القصر سلطة حقيقيّة.

غير أنني لم أكن أفكّر جدياً بالسياسة في تلك الفترة، فما أنا إلا فتاة طائشة، هواها السينما، والخروج للرقص مساءً، واللعب، والاستماع إلى الفكاهات، والاجتماع مع الأصدقاء، والمزاح والضحك. لكنني مارست آنذاك السياسة دون أن أدري، ودون أن أعرف ما هي السياسة. دافعت عن قضية بَدت لي عادلة، ونطقت بكلمات لم يجرؤ أحد أن يعبّر عنها صراحة؛ فأغلب الناس ملتزمون بالرصانة والحذر؛ وأنا لست كذلك، ففي الصالونات أعلن جَهاراً مناصرتي لحرية المغرب وأشيد بذكاء الأمير الشاب مولاي الحسن، ولم أكن قد تعرّفت عليه جيّداً، لكنني حُدّثت عنه كثيراً... صادفته مرّة قبل وقت قليل من نفيه مع والده، في مطعم صغير على شاطئ البحر قرب الرباط. حيّاه أوفقير وقدّمني إليه، وتبادلنا بعض كلمات مجاملة، وكان هذا كلّ شيء.

نظّم الوطنيون صفوفهم بعد ذلك، وبدأ الصراع من تازه إلى طنجة، وحتى الدار البيضاء وكانت صلتي وطيدة بزعيم المقاومة الدكتور عبد الكريم الخطيب، وهو صديق مقرّب. وقد عَقَد قرانه في ذات اليوم الذي نفي فيه محمد الخامس، وقضى ليلة عرسه في تنظيم الهجوم المضاد وإعداد جيش التحرير المستقبلي. ذهبت لمقابلته في الحيّ الشعبي من الدار البيضاء حيث كان يعالج مجّاناً مرضاه أبناء

الطبقات الفقيرة؛ ونفذت ما طلب مني أن أفعله. واكبت إرسال أسلحة وشارات وملابس عسكرية... ولم يفكّر أحد وهو يرى طفلتي إلى جانبي بتفتيش سيارتي. لكنني لم أرغب أن أُعطَى تفاصيل عما أنقل، فقد خشيت أن أرتكب هفوة:

- لاتَقُل لي ماذا تحوي الصناديق. سأنقلها وهذا ما ألتزم به. لا أريد أن أشعر أنني مسؤولة عن موت أيّ كان. ضعها في السيارة وقل لي إلى أين يجب إيصالها، ولاشيء غير ذلك.

عرفنا خلال سنتي نفي السلطان حياة مضطربة ورهيبة، إذ وجب أن نلعب دوراً مضاعفاً وأن نتعرض للمخاطر. كنتُ أتميّز بجسارة الشباب، وفي كلّ تصرّف جريء تكمن نسبة من اللاشعور، وكان لاشعوري أكبر من جرأتي. إنني شابّة وأريد أن أفعل شيئاً دون أن أخلّ بمجرى حياتي الخاصة. عملت على نقل أسلحة في الصباح؛ إنّما أردت، مهما حَدَث، أن أتفرّغ اعتباراً من الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر لهوايتي في ارتياد دور السينما.

قمت بواجبي كالآخرين، ولم أتحدّث عن ذلك أبداً فيما بعد، لا للملك ولا لأي شخص آخر. لقد عمل كل إنسان وفق حسّه الوطني وإمكاناته؛ بعضهم قدّم حياته، وآخرون قاطعوا المنتجات الفرنسية، وامتنعوا عن شراء السجائر أو الكتب، أو مشاهدة العروض المسرحية أو المشاركة في حفلات اللهو الفرنسية.

فيما يتعلق بنا، عشنا، بالتأكيد، مرحلة خطرة، لكننا لم نعرف فيما بيننا الدسائس، أو التزوير، أو الرياء. وكانت هي الحياة التي أحببتها، حياة لم أصادفها بعد ذلك أبداً. أمّا القصر فقد غدا الجوُّ، فيما بعد، مختلفاً تماماً فيه، إذ وجب التستّر، والهمس، والمناورة، وكان الانتصار لعدم الثبات على رأي، ولمؤامرات قاتلة أحياناً.

III

تباشير الاستقلال

في صيف 1955 انطلقت مع أوفقير في رحلة شهر العسل التي لم يتسنَّ لنا القيام بها حتى ذلك الحين. اشترينا سيارة مرسيدس سوداء لمّاعة جديدة؛ واجتزنا برفقة ضابطين صديقين إدريس بن عمار، وحسن ليوسي، إسبانيا وفرنسا حتى باريس.

ربّما كانت رحلة عسل، لكنها بالتأكيد رحلة سياسيّة؛ نجري فيها اتصالات مع أصدقاء فرنسيين مثل جورج سالفي مدير الاستخبارات الخارجية ومكافحة التجسس SDECE - وإدغار فور رئيس مجلس الوزراء. قابلنا في درو(*) بيير جولي وزير الشؤون التونسية والمغربيّة. بفضل هذه الاتصالات طرأ تطوّر على الأفكار، وبخطوات صغيرة بدأت مسيرة استقلال المغرب تشقّ طريقها، إذ اقتنع الفرنسيون بعدم استطاعتهم الاستمرار في دعم بن عرفة، السلطان الدمية، الذي يغيظ جميع المغاربة؛ ويجب الحصول على تنازله بسرعة وأوكل بيير جولي هذه المهمة إلى أوفقير:

- أمنحك موافقتي، ودعمي وتشجيعي، وما عليك إلا أن تعود إلى المغرب وتضّع بن عرفة في طيارة...

قمنا أيضاً بزيارة بعض المبعدين المغاربة: مولاي حسن، شقيق

(*) درو Dreux: بلدة فرنسية إلى الغرب من باريس.

محمد الخامس، وعبد الحكيم بوعبيد، أحد زعماء المعارضة، ومبارك البقاعي الذي غدا رئيساً لأوّل حكومة مغربية، وكثيرين غيرهم. فقد كان في باريس آنذاك عدد كبير من الشخصيات المغربية، وكلهم يجدون أنفسهم في معرض كبير سارّ يعبّرون فيه عن مختلف الأفكار المتباينة.

كانت نظرياتهم تدبّ السأم في نفسي. أعرف فقط أنني لا أحبّ المحتلّ، وأن عليه مغادرة بلادنا، وأن عليّ من موقعي المتميّز مساعدة الوطنيين. لكنني في التاسعة عشرة من عمري، وأريد أن أتنعّم بالحياة، أن أخرج، وأتناول المرطبات، وأرتاد المسارح ودور السينما، وأستمتع بالتسليات التي ترنو إليها كل فتاة بمثل عمري.

أخافتني العاصمة الفرنسية عند وصولي إليها. بدت سوداء، مكفهرة بالغيوم، كئيبة. لكن سرعان ما عادت أشعة الشمس تسطع خلال شهر تموز هذا، وأقفرت الشوارع، فالناس في عطلة، والمدينة بكاملها تحت تصرفنا، كم أحب باريس.

قضينا ثلاثة أسابيع في فرنسا، انتقلنا بعدها إلى ألمانيا؛ واستقبلنا الجنرال كتّاني، وهو الجنرال المغربي الوحيد في الجيش الفرنسي، وقائد الفرقة المعسكرة في كوبلنز. قال لي أثناء حديث عن محمد الخامس وعائلته:

ـ إنّك تحبّين كثيراً تلك العائلة، وستأسفين على ذلك في يوم ما.

لم أدرك مغزى كلامه، لكنه شدّد عليه مؤكّداً:

ـ سترين، وستقولين يوماً، لقد نبّهني الجنرال كتّاني...

أصررت على جهالتي، شيء واحد معتبر في نظري: عودة سلطاننا إلى عرشه وقصره.

زرنا بعد كوبلنز، كولونيا(*)، وهامبورغ، واضطررنا لوقفة صغيرة في اللوكسمبورغ لإصلاح مكابح سيارتنا التي أخذت تتراخى

(*) كولونيا، أو كولن Koln مدينة غرب ألمانيا على نهر الرين، مركز صناعي هام، تشتهر بآثارها. تضررت كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية ـ المترجم.

رغم جدتها وجودة المرسيدس؛ وتابعنا رحلتنا بعد ثلاثة أيام إلى النمسا وبلجيكا وهولندا.

في 30 آب، وبعد نزهة دامت شهرين، تلقى أوفقير أمراً بالعودة في الحال، فالوضع يتدهور في المغرب يوماً بعد يوم؛ وفي وادي زيم قام المغاربة بذبح ثمانين فرنسياً، بينهم نساء وأطفال وشيوخ. عمل قبيح جدّاً؛ ردّ عليه المحتل بعنف لايُصدّق، فقد قبض على أكثر من ألفي شخص، ورصّهم صفوفاً وقام الجنود بإطلاق مدافع الدبابات عليهم لتمزقهم إرباً إرباً، ثم جمعوا بقية السكان في معسكرات اعتقال ومنعوا عنهم الطعام والشراب؛ والفصل صيف والحرّ لايُطاق.

عند عودة أوفقير قابل أبي فقال له:

ـ هي الظروف العاجلة التي يجب أن تهبَّ فيها لخدمة بلادك، انظر ماذا يحدث في وادي زيم، حيث يتعرض الناس للموت جوعاً وعطشاً.

لم يُرد أبي أن يغوص في هذه القضية الشائكة وأجاب أوفقير:

ـ ماذا تريد مني أن أفعل؟ أتريد أن أغرق في هذه النيران اللاهبة الآن؟

استأنف أوفقير: إنّه أمر، لابدّ أن تتوجه إلى هناك، يجب عليك الذهاب لتقديم العون لهؤلاء المساكين ومراعاة الجانب الإنساني في ظروفهم القاسية.

اقتنع أبي بقبول المهمة وأُرْسِلَ قائداً إلى وادي زيم في مهمة إنقاذ السكان.

بدأ المغرب كله يلتهب. ففي وجدة، وفاس، والدار البيضاء، وأغادير، ومراكش، وورزازات، وفي كل مكان تحركات، واعتداءات، واعتقالات، وتعذيب، وساد العنف من هذا الجانب ومن الجانب الآخر.

كان أوّل ما يجب الحصول عليه لتهدئة الخواطر الخلع المباشر لبِن عرفة. وأوفقير ـ المدعوم من قبل الوزير بيير جولي ـ يستطيع وحده أن يقنع السلطان بالتخلي عن العرش؛ فتوجّه إلى القصر مهدّداً:

ـ ليس لك أي حظّ في البقاء. وسيقتّص منك الشعب بطريقة أو

بأخرى، فمكانك ليس هنا؛ وجميع المغاربة يرفضونك. فكّر جيّداً: هنا تجازف بحياتك؛ وهناك تنعم بالراحة في ڤيلا فخمة على الكوت دازور(*)! والرأي الصواب أن تتبعني لأضعك على متن طائرة لتكون غداً صباحاً مطمئناً تحت أشعة الشمس.

عرض أوفقير الأمر على طبقٍ من ذهب، فانصاع له ابن عرفة وتبعه؛ وفي الساعة الثالثة صباحاً صعد السلطان الدمية إلى طائرة توجّهت به إلى فرنسا حيث عاش في نيس تحت حماية قوى الأمن حتى وفاته في العام 1976 .

بتنحية ابن عرفة غدا كل شيء واضحاً، وتسارعت الأحداث، وأعاد الفرنسيون محمداً الخامس إلى باريس، وكنت في ڤيلّاكوبلي(**) يوم 12 أيلول 1955 لحظة وصول السلطان قادماً من مدغشقر المحطة الأخيرة من مرحلة نفيه. وفي الوقت الذي علم فيه بانتهاء إبعاده حرص على أن يستقبل أولئك الذين كافحوا خلال سنتين من أجل عودته إلى العرش، وأعتقد أنّه ألحّ على حضور زوجي.

غير أنه لم يكن يعرف أوفقير إلا بالإسم وبما اشتهر عنه كمحارب مقدام. كما أنه لمحه بالتأكيد قبل سنتين خلال حفل استقبال دار السلام إنّما كمدعوّ بين آخرين كُثُر؛ وفي هذه المواجهة الأولى على مدرج المطار بدأ الرجلان يبنيان المستقبل؛ فقد رأى السلطان في أوفقير رجلاً شديد الفعالية سيجعل منه قريباً مرافقه العسكري، وتهيّأ أوفقير ليقدّم للسلطان كفاءاته وخبرته.

ماكاد محمد الخامس يصل إلى باريس حتى بدأت المساومات في المغرب، بين مختلف الأحزاب. ماذا سنفعل بالسلطان؟ ما هو دوره؟

(*) الكوت دازور Cote d'azur، أو الشاطئ اللازوردي: هو القسم الشرقي من الشاطئ الفرنسي على البحر المتوسط من كاسي إلى منتون، يشتهر بمنتجعاته الصيفية والشتائية المتميزة بمناخ لطيف وشمس مشرقة، أهم مدنه نيس وكان ـ المترجم.

(**) ڤيلاكوبلي Villacoublay: بلدة قرب فرساي جنوب باريس تحوي أحد المطارات الفرعية.

هل تجب عودته مباشرة إلى البلاد؟ هل يجب الانتظار لتشكيل حكومة في الرباط؟

كان الشعب متلهفاً لعودة محمد الخامس، ويطالب بأن تتمّ مباشرة؛ فهذا الرجل ابن السادسة والأربعين من العمر، الورع جداً، الوسيم جدّاً، محط الإعجاب والحب على الدوام يمتلك جاذبيّة ساحرة، وهالة روحية حقيقية. وبسبب هذه الدرجة العالية من التبجيل والولاء اللذين يكنّهما الشعب له، فكّر العديد من رجال السياسة المغاربة بضرورة تنظيم البلاد، وإقامة حكم ديمقراطي قبل وصوله، وقبل أن يوطد سلطة ملكية مطلقة.

لكن ربّما كان الكفاح من أجل الاستقلال غير كاف، وربّما لم تكن تضحيات الأحزاب كافية لتفرض شروطها، بينما تعرّض السلطان لمعاناة لم يتعرض لمثلها إلا قلّة من الزعماء السياسيين، فقد تخلّى عن عرشه، ونُفي، وامتُهن، وحُطّ من قدره، وتحمّل كل ذلك من أجل خير البلاد. أمّا هم، زعماء المعارضة، فماذا فعلوا؟ علّال الفاسي وحده نفي إلى الغابون لتسع سنوات. أمّا الباقون فجُلّ ما قاسوه بضعة أشهر في السجن، وبالتالي فلن يستطيعوا المزاودة على محمد الخامس.

بعد لقاء ڤيلاكوبلي لم نطل المقام في فرنسا؛ فقد وجبت العودة إلى المغرب للتحضير لقدوم السلطان بعد طول انتظار، إذ ليس من المناسب أن يصل خلال الفوضى الشاملة في بلاد اختل فيها النظام؛ فالفرنسيون مايزالون يسيطرون على الجهاز الإداري. لكن الجماهير المستثارة بالشعور بقرب الحصول على الاستقلال خرجت إلى الشوارع مندفعة بكل حماس تبحث عن صورة محمد الخامس في كل مكان، حتى في القمر، وفي أحلامها؛ فهو محرّر، وأب، وأسطورة تُنتَظر؛ ووجد الفرنسيون، المنطقيون خاصة، أنفسهم وقد تجاوزهم هذا الاندفاع المنبعث عن الجماهير الملتهبة المشاعر.

كان أنصار بن عرفة قد أتلفوا في القصر كل شيء. أحرقوا المفارش والسجّاد، ونهبوا الغرف واقتلعوا المصابيح وحطموا الثريات؛ ولم يبقوا شيئاً.

فيما بعد، حدث بالنسبة لنا ماهو أسوأ بكثير. فقد ألقيت جميع أمتعتنا خارجاً نهباً للطامعين، ودُمر منزلنا ومُسح عن وجه الأرض فقدنا كل شيء. غدونا أشخاصاً دون ذكريات. أحرِقَت صورنا، وتناثر أثاثنا.

ما يهمنا بعد استقبال السلطان في باريس الإعداد لوصوله إلى المغرب. كنت قد تلقيت كثيراً من الهدايا أثناء حفل زواجي وعند ولادة كلّ من ابنتي: أواني مائدة متنوّعة وغزيرة، وشراشف، وفضيّات عَبّأتُ معظمها وحملته إلى القصر؛ ثمّ أجريت الترتيبات اللازمة في الغرف والأبهاء المجتاحة التي تنتظر ضيوفها.

وصل محمد الخامس وعائلته إلى الرباط بتاريخ 16 تشرين الثاني 1955؛ وعمّت البهجة جميع سكان المغرب، واكتظت شوارع العاصمة بالجماهير. كان المشهد رائعاً يجلّ عن الوصف، والهتافات المتواصلة تنطلق من كل مكان.

ـ يعيش الملك، يعيش الاستقلال.

في الواقع، كانت البلاد تتوّجه نحو الاستقلال؛ وفرنسا قد خسرت الهند الصينية، وهمّها الجديد محاولة قمع الثورة المتفجّرة في الجزائر؛ فالمغرب في مثل هذه الظروف ـ وهو محمية من الوجهة الرسميّة ـ لايستحق خوض حرب طويلة ومُكلِفة. أطلق الفرنسيون بعض الرصاصات هنا وهناك لإنقاذ ماء الوجه وتراجعوا سريعاً عن القتال. لم يكن هذا الانتصار السهل نسبيّاً مؤاتياً للمغاربة فالشعب الذي لايدفع غالياً ثمن حريته يتعثر على الدوام كالأعرج.

في قصر الرباط البَشع، المرمم كيفما أمكن من الدمار الذي ألحقه به ابن عرفة وحلفاؤه؛ استقبلتُ السلطان وعائلته. كان المكان أشبه بدير حقيقي في ذلك الحين، فمعظم الغرف فارغة، والصالات الصغيرة لاتحوي إلا القليل من الأثاث. لكن القصر جُدّد في عهد الحسن الثاني وتميّز بالأبّهة والفخامة.

كان محمد الخامس سعيداً عند وصوله بأن يرى فيّ وجهاً صديقاً، وتذكّر في ڤيلاكوبلي رؤيته لي سابقاً في منزل أخته بمكناس، ثم في الرباط قبل نفيه، وارتاح حالياً باكتشافه شخصاً يمكن أن

يساعده على الاستقرار كما ينبغي، شخصاً قادراً على أن يحمل إلى البلاط نفحة جِدّة، نَفحة حريّة. وبالطبع غدوت إحدى الرائدات المقرّبات من القصر.

* * *

ترك أوفقير الجيش الفرنسي في نهاية العام 1955 برتبة مقدَّم، وتلقى تعويضاً يتناسب مع خدمته مدة سبعة عشر عاماً ومع الأوسمة العديدة: ثمانية عشر مليون فرنك(*) ذلك العصر. وكان هذا التعويض ثروة بالنسبة لنا. اشترينا ثلاث قطع من الأرض بمساحة ستة آلاف متر مربع - بسعر ثلاثة دراهم للمتر المربع - وهي أراض قريبة من مقر ولي العهد في زنقة الأميرات من حي السويسي السكني، الذي يضمّ قرب ميدان سباق الخيل بعض ڤيلات وحدائق واسعة. وبقيت إحدى أراضينا دون بنيان، مما يُجنِّبنا جواراً مزدحماً ويؤمّن لمنزلنا الهدوء بعد أن بنيناه على الطراز الأمريكي الحديث، بكوى مزجّجة، وغُرَف تنفتح على صالون واسع، وأبواب منزلقة، وأقمنا مرآباً على القطعة الثالثة.

سبق لزوجي أن استأجر مزرعة صغيرة بمساحة خمسة وعشرين هكتاراً، قرب الرباط، مقابل مبلغ أوّلي نقدي مقداره خمسون ألف فرنك ودفعة سنوية ثابتة مقدارها عشرون ألف فرنك. كما كان يمتلك أرضاً بمساحة سبعة عشر ألف متر مربع في مراكش، وقطعة أرض صغيرة في أغادير أقيم فوقها بيت مسبق الصنع. واشترى فيما بعد تقسيطاً كوخين على الشاطئ مقابل دفعة نقديّة أوليّة لكل منهما مقدارها خمسة آلاف فرنك، ولم يتسن له أن يدفع الأقساط السنوية عنها.

هذه هي الأملاك التي جمعناها، وهي بعيدة كل البعد عن ملايين الدولارات التي اُتهمنا فيما بعد بتكديسها. وقد صودرت مني جميع هذه الأملاك. وتعمل حالياً أقسام من الشرطة في المزرعة، ويحتل الجيش بيت أغادير، ويستغل مستشارو الحَسَن الثاني السابقون كُوخَي

(*) عدّلت قيمة الفرنك الفرنسي في العام 1960 وأصبح الفرنك «الجديد» يساوي مئة فرنك «قديم» - المترجم.

الشاطئ، وقد دمّر بيت الرباط، ولم يبق لنا شيء. بعد انقضاء عدة سنوات على خروجنا من السجن، أرادت الإدارة المغربيّة أن تدفع لي قيمة أراضي الرباط بسعر تسعين درهماً للمتر المربع، وهو سعر أدنى مما يدفع للمتر المربع في عمق الصحراء. رفضت:

- دفع زوجي ثمن هذه الأراضي من عرقه ودمه، وهي له، ولن أبيعها بهذا السعر. أرادوا، لإسكاتي، أن يعطوني بدلاً عنها ثمانين هكتاراً من أراضٍ محصبة في مراكش، منطقة من الركام والحصى القاحلة، الخالية من أيّ بناء. ماذا أفعل بهذه الأراضي التي لاتصلح للفلاحة، وأنا لست مزارعة. ورفضت أيضاً.

غدا أوفقير بعد أن ترك عمله في الجيش الفرنسي كمرافقٍ عسكريٍ لآخر مفوض مقيم في المغرب الجنرال بوايه دلاتور، مرافقاً عسكرياً للسلطان. هكذا نُقلت السلطات، فالفرنسيون يتعجّلون لمغادرة المغرب، والمغاربة يستعجلون رؤيتهم مغادرين.

في 2 آذار 1956 حصلت المغرب على الاستقلال، وبعد ذلك بوقت قصير غدا السلطان ملكاً. وترك المحتل فراغاً كبيراً خلفه إذ لم يتمّ أي تحضير للحلول محله؛ فقد بقيت أزِمّة الأمور حتى الاستقلال موجّهة من قبل الفرنسيين بِدءاً من الزراعة حتى الجيش، وفجأة اختلّ النظام الإداري ووجب إعادة تقويم الأمور كلها.

كان وضع أوفقير أشبه بوضع مفجّر الألغام، يُرسَل إلى كل مكان للقضاء على المؤامرات وكبح محاولات التمرّد على السلطة الناشئة، فهو القيّم على تأمين استمرار الملكية بجميع الوسائل، ولكن لايمكن القول - كما كتب بعض صحافيي السوء بقصد التحريض والإثارة - بأنّه كان مُعذِّباً، وباغياً، وقاتلاً. وأنا أعترض على هذه الأكاذيب الملفّقة؛ وسياسيو المغرب يعرفون أنّها لم تكن إلا شعارات سياسيّة وإشاعات قذف وقدح وذمّ.

خلال السنوات الخمس من ملكية محمد الخامس راج التردُّد والتلكؤ في تسيير أمور الدولة. تألّفت حكومة بالطبع، لكن الملفّات والوثائق اختفت في الوزارات والإدارات، وفُقِد كل شيء، ووجب إعادة بناء الدولة.

في تلك الظروف الصعبة كان أوفقير رجلاً جليل الفائدة، فقد اكتسب خبرة في المفوّضية ورئاسة الأركان الفرنسية، وهو يملك المؤهّلات الحقيقية لتنظيم البنيات الإدارية حول الملك. وقد أنشأ مكتب المرافقين العسكريين، وشكّل الحرس الملكي من ضباط مغاربة خدموا سابقاً في الجيش الفرنسي، ونظّم الجيش المغربي وسلّحه مستفيداً من مساعدة فرنسا التي حوّلت لنا جميع المعدات والأسلحة السيّئة التي لم تعد بحاجة إليها بعد انتهاء حرب الهند الصينية. أسلحة حوّلناها بعد ذلك إلى الجزائريين، حيث صوّبت إلينا في العام 1963 خلال «حرب الرمال» التي نشأت بين البلدين من أجل قضايا حدوديّة.

في زمن الخضوع للسلطة الفرنسية كان البربر وحدهم يصلون إلى مراتب الضباط في الجيش. أراد الملك أن ينهي تلك السياسة التفريقية التي أقامها المحتل بين العرب والبربر، فأرسل بعثات طلاب من مختلف مناطق المغرب ومدنه: الريف، وتطوان، وطنجة، وفاس، والدار البيضاء، إلى المدارس العسكريّة في طليطلة(*) وسان سير(**)، ليعود أفرادها بعد تأهيل مكثّف لمدة تسعة أشهر برتبة ضباط ملازمين يتولون قيادة سرايا الجيش. إنّها «دورة محمد الخامس» التي أتاحت تكوين جيش يضمّ جميع السلالات العرقية في البلاد.

بعد الاستقلال مرّت البلاد بأوقات صعبة، وبدا المغرب صعب المراس، منقسماً شيعاً وأحزاباً، ورغب الملك في أن يكون حَكَماً فوق التشكيلات السياسية، لكن الاتجاهات اليسارية الأكثر راديكالية - وعلى رأسها بن بركة - لم ترض بهذه السلطة: على القصر أن يسير في اتجاه واحد مستقيم، ويجب أن تكون السلطة الحقيقية في يد حزب الاستقلال وحده، كما في بلدان المعسكر الشرقي. غير أن الأحزاب اليسارية نفسها تجابهت، فحزب الاستقلال الديمقراطي (PDI) يريدها ملكيةً على

(*) طليطلة Tolède: مدينة إسبانية على نهر التاج، ازدهرت في العصر الأندلسي، تعد مركزاً عالمياً لصناعة السيوف، فيها مدرسة عسكرية.

(**) سان سير Saint-cyr: بلدة قرب فرساي في نواحي باريس. أسس فيها نابوليون، العام 1808 المدرسة العسكرية الفرنسية لتخريج الضباط. دُمرت هذه المدرسة بين 1940 - 1944 ونقلت إلى كويتكيدون في 1946 ، أعيد فتحها في سان سير العام 1966 - المترجم.

النسق البريطاني، وحزب الاستقلال يطالب بدستور؛ وقد انشطر في العام 1959 مشكّلاً يميناً محافظاً، ويساراً ثورياً تحت راية الاتحاد الوطني للقوى الشعبية (UNFP). وكان بن بركة زعيم هذا الاتحاد الجديد يسود في الجنوب، بينما وُجد زعيم آخر في الشمال، وزعيم ثالث أيضاً في الشرق، وكل من هؤلاء الزعماء يدافع عن منطقة نفوذه بإجراءات ترهيبيّة، منها اختطافات رؤساء عشائر قادة(*)، وخلفاء(**)، ومقدّمين(***) في جنح الليل ـ من المتعاونين مع السلطان زمن الفرنسيين ـ وإيداعهم في معسكرات اعتقال. كان أوفقير يملك صوراً عن هذه المعسكرات والسجون، حفظها في المنزل، متجنّباً إيداعها في ملفّات الشرطة، خشية أن يتهم بالتحريض على إجراءات انتقامية ضد اليسار.

بعد موت زوجي، وعندما بدئ باستجوابي، لم أجد من أعهد إليه بهذه الصور والوثائق، ولم أشأ أن تكون أدلّة يمكن أن تقع بين يدي العقيد دُليمي مدير الأمن، الذي غدا سجّاننا، فأحرقتها كلّها.

بقيت البلاد كلّها خلال سنوات في غليان، لايستثنى منه أي مكان، وهي منقسمة كليّاً، دون أن يهتدي الملك إلى وسائل جمع شملها.

كان المغرب متفككاً، لكن الأشخاص المتأثّرين بالمشكلة فعلاً هم الذين يعرفون مدى خطورتها. تكوّنت عصابات تقتل، وتنهب، وتهاجم المصارف لتشتري البنادق والمسدسات؛ واحتفظ وطنيو زمن الاحتلال الفرنسي وإرهابيوه بترساناتهم وأقلقوا السلطة. أُحرِق أشخاص في الشارع لأنهم تعاونوا مع الفرنسيين؛ واختفت شخصيات ثم عثر على رؤوسها المقطوعة في مكان، بينما كانت جُثثها في مكان آخر.

كوّنت كل مجموعة الميليشيا(****) الخاصة بها، وخلال كل ذلك

(*) قادة: ج قائد Caid، اصطلاح ساد في الشمال الأفريقي زمن الاستعمار الفرنسي ويطلق على زعيم العشيرة المعتبر قاضياً، ومديراً ورئيس شرطة.

(**) خلفاء: ج خليفة Khalifa: رئيس شيعة أو ملّة يحظى باحترام ديني خاص.

(***) مقدمون: ج، مقدّم Mokadam: وجيه في حيّه أو بين قومه ولديه عصبة مسلحة على الأغلب ـ المترجم.

(****) ميليشيا Milice (من كلمة Militia اللاتينية وتعني الخدمة العسكرية): فرق أهلية مسلحة تتبع بعض الأحزاب أو تنشأ في زمن الحروب لمقاومة المحتل أو لدعم قوى الجيش والشرطة ـ المترجم.

الضجيج، وتلك البلبلة، وعمليات الانتقام والأخذ بالثأر، كان جيش السرقة يجوب البلاد للنهب: العصابات غير المنظَّمة تدخل إلى بيوت العائلات وتستولي على المواشي، والحلي والصوف؛ وساد الإرهاب في المدن. احتفظ الوطنيون المزعومون، الذين يتباهون بأنهم طردوا الفرنسيين، بالأسلحة؛ وراحوا يرتكبون بلا عقاب تجاوزاتهم؛ حتى أنهم قتلوا توريا الشاوي، المرأة الطيارة الوحيدة في البلاد آنذاك. هكذا في جميع الحروب، وجميع الثورات وانتفاضات التحرير يستغلُّ بعض الناس الأحداث ليكوّنوا ثروة، ويوطّدوا سلطتهم.

كانت تلك التجاوزات إهانة جديدة لمحمد الخامس؛ فهو من جهة يلقى الاحترام والإجلال من الشعب، ومن جهة أخرى تقوم المعارضة والأحزاب بنشر البلبلة وتجعل عالي البلاد سافلها. وقد دام هذا الوضع خمس سنوات.

لم تقتصر مهمة أوفقير على رئاسة المكتب العسكري في القصر الملكي، فقد كان محمد الخامس يرسله دوريًّا إلى أماكن القلاقل لمحاربة الشغب وتوطيد الأمن. وكانت هذه المهمات تستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر، يُستدعَى بعدها ليعود إلى مكتبه ليتناسى الأحداث. وهكذا أطفأ الفتنة في مناطق عديدة.

ذلك أن جميع المناطق قد انتفضت، وبذرائع مختلفة؛ ففي تفيلاليت تمرّد القائدان لَهْسُن الليوسي وعادي أوبيهي على القرارات التعسفيّة لحزب الاستقلال، وهما من عُرفا بولائهما للسلطان أيام الفرنسيين. وتمكن أوفقير من القضاء على هذا التمرد، وهَرَب أحد العاصيين إلى إسبانيا وأوقف الآخر، وحكم عليه بالإعدام ثم أُعفي عنه؛ واستمرت البلاد تتصدّع من جميع الجوانب.

* * *

كانت علاقاتي وطيدة بمحمد الخامس؛ فأنا أكنّ له كل الاحترام، وتميّز بدوره بمنتهى اللباقة في معاملة الآخرين، فهو يبدي مراعاته واهتمامه لأبسط خلق الله. كنا نُعدُّ أنفسنا بعض خدمه إذا صح القول؛ وكان يعتبرنا مثل أفراد عائلته. لم يرفع صوته مرّة بلهجة أمر لنا، يسأل بانتظام عن أحوال أولادنا وأنسبائنا. إن رآني يوماً متعبة أو

متكدّرة سألني عن السبب، وهو يجد دائماً الكلمة اللطيفة والمناسبة للترويح عني، وينوّه برقة بجمالي وشبابي؛ يقول لي:

ـ لو أنَّك زوجتي لما سمحت لشعاع الشمس أن يراك.

كنت زوجة المرافق العسكري، بالتأكيد، لكنني الصديقة، وابنة المنزل. لم أرد يوماً أن أمثّل دور زوجة أوفقير، حتى أثناء عمله في المفوضيّة الفرنسيّة.

لم أحضر أيّاً من اجتماعات محمد الخامس مع زوجي، بل أنا دوماً إلى جانب النساء، أهتم بزينة القصر ومساعدة سيداته في الحصول على ما يرغبن، وأرتّب الصالونات، وأؤمن المشتريات اللازمة. قضيت حياتي مع العائلة المالكة، أسافر معها إلى سويسرا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وأمريكا في رحلات رسمية أو زيارات خاصة.

كانت حياتي في أوساط القصر رائعة، تربطني بالعائلة المالكة أواصر أجلّ من الصداقة، أو الإعجاب، أو الحب؛ فهي عائلتي. خلال السنوات الخمس من مُلك محمد الخامس، بعد الاستقلال، لم يكن لي حياة خاصّة، أنطلق منذ الثامنة صباحاً لتناول طعام الإفطار مع الملك، وأحياناً لا أعود إلا بعد منتصف الليل، بل قد أقضي الليل في القصر. خلال خمس سنوات، كنت مدلّلة، غَنجة بشكل فائق؛ فمحمد الخامس يُنعم عليّ، ويقدّم لي وسائل الزينة والحلي والملابس على مثال ما يقدّمه لزوجاته وبناته.

كانت زوجةُ الملك للاّ(*) عبلة فريدة في رزانتها ورفعة مقامها. وكانت تلقّب أم سيِّدي (والدة ولي العهد)، لكنها في ذلك المجتمع الذي لايريد أن يرى فيها إلا والدة الأمراء متميّزة أيضاً بشخصيتها الفذّة الحقيقية. وقد أرادت أن تخصّني بمكانة خاصة فطلبت مني أن أناديها «أختي» لطفاً منها وتعبيراً عن عاطفة حميمة. من يراها يخيل إليه أنّها

(*) للاّ Lalla: لقب تقدير واحترام يُطلق على نساء الأشراف في المغرب، سبق لنا كتابته في رواية «السجينة» تأليف مليكة أوفقير ابنة فاطمة أوفقير، إصدار دار ورد. ولاحظنا كتابته في منشورات المغرب الرسمية بالشكل المثبت هنا فاقتضى التنويه ـ المترجم.

خلقت أميرة، لكنها بربرية انتُزعت من أهلها صغيرة... إنّما هي بمهابة ملكة، وسلوك ملكة، وكأنّها خلقت لتسود؛ وهي بمنتهى الدماثة، وإذا كانت، على الأرجح، لاتملك ذكاء ابنها الفائق الأمير مولاي الحسن، فقد برهنت عن حصافة دبلوماسية، وحَدْس دقيق، ومهارة كبيرة؛ وهي تعرف جيّداً الطبيعة البشريّة! وقد أهلّتها إخفاقاتها وخيبات أملها وأكسبتها الخبرة، ولو أن ابنها استمع إليها أحياناً لتجنب كثيراً من الأخطاء.

كنت لا أرى أولادي في صغرهم إلا عندما أعود مساءً إلى المنزل. إلى أن أتى يوم اختار فيه محمد الخامس ابنتي البكر مليكة لتعيش مع ابنته للاّ أمينة آخر أولاده التي ولدت في المنفى، وكانت بمثابة هدية له من السماء بعد أن اعتقد أن القَدَر السعيد قد تخلّى عنه.

عندما تطلب العائلة المالكة ولداً لينشأ مع أحد أولادها فهذا في نظر الكثيرين شرف وحظوة، أما بالنسبة لي فكان قهراً وبالنسبة لابنتي عذاباً. هي طفلة ذكيّة جداً وشديدة التعلّق بي؛ فالفرقة بيننا مأساة لكل منا؛ وقد كانت في الخامسة من العمر عندما أراد الملك أن يجعل منها رفيقة ألعاب ابنته. ومنذ ذلك الحين عاشت مليكة مع للاّ أمينة في الفيلاّ التي خصّهما الملك بها؛ ولم نَعُد نراها أو نعرفها، حتى الآن وهي معنا ـ رغم ظروف السجن التي عانيناها معاً ـ تبدو مختلفة جدّاً. فهي تفكر كأبناء القصر، وتتكلم مثلهم، وترتكس على شاكلتهم، وهي تبدو وسط أخوتها وأخواتها، حتى الآن، ضيّقة الخُلُق، صعبة العشرَة.

غدا أوفقير تدريجياً شخصية نافذة، يُرهَب جانبه. واحتفظ به محمد الخامس مدة طويلة مرافقاً عسكرياً له، مع تكليفه بمهمات ومسؤوليات أكثر فأكثر أهمية؛ فالمغرب، كبقية البلدان الأخرى، لم يستقرّ في يوم واحد، والنار التي تُطفَأ في مكان تعود إلى الاشتعال في مكان آخر؛ ويتجدد تكليف أوفقير بالقضاء على التمرّد.

في 29 شباط 1960 ، دمّر زلزال مدينة أغادير، فعمد بعض الجنود إلى النهب بين أنقاض المدينة، وكُلّف الجنرال إدريس بإعادة النظام

إلى نصابه؛ فأمر بإعدام جنديين أو ثلاثة جنود قُبض عليهم بالجرم المشهود. لكن هذه الأحكام العسكرية السريعة والقاسية أغاظت الملك، وأرسل أوفقير عندئذ قائداً للموقع حيث بقي أربعة أشهر وأعاد الهدوء إلى المنطقة.

عند عودة أوفقير إلى الرباط في 13 تموز استدعاه الملك وقال له ببساطة:

ـ سأسلمك قيادة الشرطة.

سمّى محمد الخامس بناءً على نصائح بن بركة أوفقير مديراً للأمن؛ وفي اليوم الذي استلم فيه زوجي مهام وظيفته؛ غادر أربعمئة وخمسون موظفاً فرنسياً عملهم وفقاً للاتفاقات المعقودة مع السلطة الاستعمارية السابقة؛ ووجد مدير الشرطة الجديد إدارة فارغة، فوجب إعادة بناء كل شيء، وتكوين جهاز أمن جديد بما فيه المخابرات السريّة.

خلال تلك الفترة، وجد الملك محمد الخامس، الذي أراد أن يضم في السلطة جميع اتجاهات البلاد السياسية، نفسه في وضع غير مستقر. فعبد الرحيم بو عبيد وزير الاقتصاد الوطني، في حكومة أحمد بلفريج، ذو الميول اليسارية، ظهر شديد الاستعجال للحدّ من السلطة الملكية؛ وزاد من تمحيص الاعتمادات المالية المخصصة للقصر حتى أنه قنّنَ الأسبيرين والضمادات الطبيّة، فضلاً عن تحديد راتب مئة درهم للخادم؛ فكيف يمكن العيش بمئة درهم حتى في ذلك الحين؟

حاولت حكومة عبد الله ابراهيم، منذ شهر كانون أول 1958 عدا عن كبح السلطة الملكية، العمل على إقامة نظام اشتراكي. إنّما هو نظام اشتراكي غريب.. فمثلاً، سُنَّ قانون يقضي بمنح الأم تعويضاً عائلياً عن كل طفل مقداره ثلاثون درهماً في الشهر! أي عشرين فرنكاً(*)! صدقة! ودون أي تأمين اجتماعي. إنّه البؤس المنظّم؛ عدا عن أنَّ هذا التعويض لايشمل إلا ستة أولاد في العائلة، مما يتناقض مع تصريحات

(*) الدرهم المغربي يعادل 0.64 فرنك فرنسي ـ المترجم.

أحد زعماء اليسار البارزين، علال الفاسي، الذي كان يحلم بعدد سكان للمغرب يصل إلى خمسين مليوناً(*). فهم من ناحية يشجعون نسبة الولادات، ومن ناحية أخرى يقترون على عيش المواليد بقوانين غير معقولة.

لم يكن المغرب وحده في هذا الوهم عن الاشتراكية، فأفريقيا بكاملها، وأمريكا الجنوبية يشاركانه السراب نفسه، وكذلك الأمر بالنسبة للشيوعية. لكن لئن كانت الجاذبية للاشتراكية حقيقية في المغرب فإنّ الشيوعية لم تجد فيه صدى أبداً. هي إيديولوجية تسعى لإبعاد الله من المجتمع وهذا غير مقبول بالنسبة لنا؛ فعدم الإيمان بالله يبدو مستحيلاً لمغربي.

بعضهم يريد الآن أن يعلّمنا كيف نكون مسلمين؛ لكننا كنا دائماً كذلك، ولسنا بحاجة إلى هؤلاء الأشخاص الذين يريدون أن يجعلوا الإسلام سياسة. أهلنا أقاموا الصلوات، وصاموا رمضان، ومنحوا الزكاة؛ والأصولية استراتيجيّة سياسية، لا يجب مطلقاً أن تنتشر في المغرب. الإسلام ليس هذا التزمت؛ ولو اتُّبع الإسلام كما أُنْزِل وكما تمّت الدعوة إليه لغدا المغرب جنّةُ، لغدا العالم جنّة؛ فالإسلام دين الاستقامة ومكارم الأخلاق، وهو يجعل الإنسان شريفاً، يمنعه من الغَيبة، وارتكاب الإثم؛ ويحثّه على عمل الخير، ومساعدة الفقراء، واحترام الأرملة واليتيم. هل يمكن تحمّل إسلام على الطريقة الجزائرية؟ لم نر أبداً الإسلام يُحرّض على قتل النساء والأطفال والشيوخ، أو على اغتصاب الفتيات وبَقْر بطون الأبرياء. الإسلام قبل كل شيء دين الحلم والتسامح. لا أحد يلزمك بالصلاة، لا أحد يلزمك بالصيام. الدين رابطة شخصيّة بين الإنسان والله؛ وحساب المسلم المؤمن أمام الله لا أمام البشر.

•

أقال الملك في أيار 1960 الحكومة، وأعلن عن رغبته بتسيير أمور الدولة بوساطة ولي العهد؛ بدأ يحضر منذ ذلك الحين خلافته.

(*) يبلغ عدد سكان المغرب حالياً نحو 28 مليون نسمة ـ المترجم.

كان محمد الخامس خبيراً في تحليل طبائع الناس، وقد أدرك الفرق بين عقلية ابنه وعقلية أوفقير؛ وقدّر أن اصطداماً سيحدث في يوم أو آخر بين الرجلين. فالأمير مولاي الحسن يتصف بتلك العجرفة الرهيبة في فرض أوامره بشكل متعال يقف حاجزاً بينه وبين الآخرين. ولكونه من الأسرة العلوية الشريفة، وزعيماً روحيّاً، فإنه يريد سلطة مطلقة، وأوفقير ينتمي إلى عائلة كبيرة جداً. وإذا كان مولاي الحسن من الجيل الخامس والثلاثين في الذرية النبوية الشريفة، فإن عائلة أوفقير من الجيل الثامن والعشرين أو الثلاثين في تلك الذرية، فهي عائلة نبيلة جداً. لكنها عائلة من الصحراء لاتفتش عن الترف، ولاتفهم الازدراء؛ فحالتها الفكريّة مختلفة؛ ولم يدرك الأمير مولاي الحسن الدقة التي يجب اتباعها ليفرض هيبته على أوفقير؛ بينما عرف والده تماماً كيف يعامل هذا الضابط الطموح والأنوف والفعّال.

في رحلة حجّ إلى مكّة، ناشد محمد الخامس أوفقيرَ المرافقَ له الاستمرار في خدمة ولده مستقبلاً.

قال الملك: أنا لا أوجب عليك بأن تصرح لي إن كنت ستخونه أم ستستمر وفياً له، وكل ما أطلبه هو أن تعمل معه لمصلحة المغرب.

خلال تلك الرحلة كان محمد الخامس مريضاً، دون أن يشكو ودون أن ندري، لكنه بعد شهر، وذات مساء من شهر رمضان، رشقنا بهذه العبارة، وهو يرانا نقبل بنهم على مائدة الإفطار:

- كُلوا وتنعّموا، وستأكلون قريباً في مأتم ملككم.

اعتبر جميع الحاضرين هذه الملاحظة مزاحاً. كيف يمكننا تخمين غير ذلك؟ فهو يبدو بوجنتيه المتوردتين ووسامته، وسنيّه الاثنتين والخمسين في تمام الصحة والعافية. وعندما كنت أجد نفسي وحيدة معه كنت أعبّر عن سروري لمرآه في صحه جيّدة...

- كلّا يا فاطمة، لو تعلمين كم أتألّم! حتى لتخالجني الرغبة أحياناً في أن ألقي بنفسي من النافذة للخلاص من آلامي.

ربّما أراد أن يموت، وربّما سمح بانزلاقه. أحسّ أن السلطة المطلقة تفلت من يده، فرغب على الأرجح بانتقال العرش بسرعة إلى ولده، وهو يعلم أن الأمير الحسن عندما يغدو ملكاً لن يرضى أبداً أن

يُملي عليه سلوكه، وأن تقتصر سلطته على تدشين افتتاح معرض الزهور.

لم يعلم أحد بالضبط أي داء أضنى الملك؛ وأعتقد من جهتي أنه كان مصاباً بورم سرطاني في منطقة الأذن؛ وهو يتعرض لآلام عنيفة باستمرار. إنّه عذاب مبرح، ومروّع، منعه أخيراً من احتمال أيّة ضجة حوله.

حذّره الأطباء من المداخلة الجراحية، لكنه لم يتحمّل الألم الشديد. أجريت له العمليّة الجراحيّة يوم الأحد 26 شباط 1961 ، دون حضور اختصاصي بأمراض القلب؛ بل كان جرّاح الأذن والأنف، بكل بساطة، وحده. كان الملك يعرف أنه لن ينهض من هذه العمليّة؛ صرّح لنا بذلك، وأعلنه لحاشيته. أعتقد أن شعوراً شديداً بالألم يمكن أن ينبئ بقرب النهاية.

كانت عملية جراحية غير معقّدة، لكن برزت مشاكل قلبيّة. أجري له تدليك للقلب، لكن فات الأوان، فقد توقّف تنفسه مع توقف نبضات قلبه.

تلاشيت وفقدت الرشد. لم أتصوّر انقضاء عهد الملك بهذا الشكل المفاجئ؛ وكنت الوحيدة التي ارتدت ثياب الحداد عليه مدة سنة كاملة؛ بينما لاتُلْزِمُني الأعراف والتقاليد إلا بأربعين يوماً. كان موته بالنسبة لي صدمة رهيبة. كيف يمكن أن يغادرنا رجل مايزال شاباً، ويتوجّه سائراً على قدميه إلى المشفى، ويختفي بهذا الشكل المفاجئ؟

يزعم جيل برو في كتابه *صديقنا الملك*(1) أنّ ولي العهد قتل الملك. إنّه ادّعاء مثير للسخرية؛ فقد أحبّ الحسن الثاني أباه وأُعجب به أكثر من كلّ شيء في العالم. بل إن هذا الحب كان نقطة ضعفه التي لازمته حتى نهاية حياته؛ فحتّى في آخر خطاب له بتاريخ 9 تموز 1999 لم يستطع إلا أن يتطرق إلى ذكر أبيه. كان بالنسبة إليه بمثابة تميمة أو لازمة لابُدَّ له من ترديدها في خطاباته لتمنحها المحتوى المؤثّر، والعمق، والشّرعيّة.

---

(1) كتاب Notre ami le roi: كتاب الصحافي الفرنسي G. PERRAULT نشر دار GALLIMARD، 1990 ، باريس. ورد ذكره أيضاً في رواية مليكة أوفقير La prisonniere انظر ص303 من «السجينة». نشر دار ورد 2000 ـ المترجم.

IV

في عِشْرَة الحسن الثاني

مع ارتقاء الحسن الثاني عرش البلاد تغيّر كل شيء، فالملك الجديد في الثانية والثلاثين من العمر، يحتاج إلى تسليات ومصاحبة. وشوهدت عندئذ حوله أسراب من النساء الشابات، سئم منهن سريعاً، واستبدلهن بأخريات في ميعة الصبا؛ وانفتح القصر، وهو حتّى ذلك الحين شديد الانغلاق، ليستقبل مجموعات من البشر لم تسبق مصادفتها في ذلك الوسط المخملي. حلّاقات يافعات ناعمات الوجوه، باسمات الثغور، ومجهولات بقوام جذاب؛ بل توصّلت بعض فتيات عرفن في الرباط بسوء السمعة إلى التوظّف سكرتيرات لبعض الوزراء.

حاولت أن أقنع الحسن الثاني بالزواج من امرأة واحدة فقط. قلت:

- يجب أن تغيّر الأشياء ولاتتبع حياة أبيك نفسها. فهو قد بدأ ملكه في العام 1927 والأمر مختلف الآن...

ضاعت محاولتي هباء، فقيِّمة محظيات محمد الخامس السابقة الحريصة على استمرار التقاليد نجحت في تشكيل قصر حريم للملك الجديد، لم يُعْرَفن جيّداً واعتُبرن محظيّات؛ باستثناء زوجة واحدة رسميّة، هي أمّ أولاده: للّا لطيفة، الشخصية المدهشة، التي لم تظهر عَلَناً إلا مرة واحدة خلال زواج ابنتها الأخيرة، ولفترة قصيرة جداً. هي امرأة صغيرة القامة تتميّز بذكاء وإباء وشجاعة تثير الإعجاب حقّاً.

وصلت إلى البلاط الملكي مع إحدى بنات عمّها، فاطمة؟ تصحبها عائلتها الوافدة من الأطلس المتوسط. كان عمّها أحد الزعماء الإثني

عشر الذين وقعوا سابقا على عريضة إقصاء محمد الخامس عن العرش، وهو رجل قوي يسيطر على قبيلة كبيرة في منطقة خنيفرة.

توجّهت أنظار الملك الشاب أولاً إلى فاطمة، مفضّلاً تلك الفتاة ابنة الثلاثة عشر ربيعاً، الجميلة كصباح يوم مشرق. انتشر الخبر، وتردّد القول: هذه اليافعة تُحضَّر لتكون الزوجة الأولى؛ حتى أن الأطباء الذين يعرفون أنها دون البلوغ أخذوا يعالجونها بالهورمونات لتستطيع الإنجاب في أقرب وقت، وتأمين وريث ضروري للعرش.

في أحد الأيام، وخلال وليمة في القصر صرّح الحسن الثاني:

ـ لن يكون لي أولاد إلا من امرأة واحدة هي فاطمة.

كانت ابنة عمّ فاطمة في السابعة عشرة من عمرها، ذات جسم صغير ناعم بلون اليَشب، وشعر طويل يصل حتى نهاية الظهر، وعينين واسعتين، وفم مكتنز. قد تكون دون الجمال الفاتن، لكنها تملك جاذبية تفوق الجمال، وشخصية لاترتضي أن تقتصر على دور المحظية المغمورة. وقد وضعت شوكتها عند سماع التصريح السابق، والتفتت بكل هدوء نحو الملك قائلة:

ـ كيف يا سيدي؟ ألا تريد أولاداً من غير فاطمة؟

أجاب الملك: نعم، إنّه تقليد سنّه أبي، فلم ينجب أولاداً إلا من امرأة واحدة وسأسير على نهجه، خلافاً لأسلافنا متعددي الزوجات الولودات الذين خلّفوا أولاداً تمرّد بعضُهم على بعضِهم الآخر، وسبّبوا اضطرابات لم تنقطع ولا أريد لها أنْ تتجدّد.

كانت سليلة البربر الشابة تتكلّم العربيّة بمشقة، ومع ذلك نطقت أمام الجمع المنبهر بهذه الكلمات الصريحة:

ـ سيدي، إذا لم ترد أن تنجب مني أولاداً، فعليّ الرحيل، فأنا لاأتمكن من العيش دون أولاد.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام أقيم للبربرية حفل زواج متعة، كان زواجها من الملك كمحظية لا كزوجة شرعيّة. وصدرت عن فاطمة اليافعة، الزوجة الموعودة نوبات هستيرية، قيل عنها نوبات صرع،

بسبب الهورمونات التي أعطيت لها وجعلتها بمنتهى العصبية. الواقع أنَّ الغيرة انتابتها فهي مغرمة متيّمة بالحَسَن الثاني، وقد خشيت أن ترى امرأة أخرى تأخذ المكان الذي وُعِدت به.

أخيراً ذَهَبتُ مع فاطمة الصبيّة اليافعة ومجموعة كاملة من نساء القصر في رحلة إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ بصحبة للّا عبلة الملكة الوالدة، وهناك أُنبئنا أنّ ابنة عمّ فاطمة حامل. لقد انتصرت! وكانت ابنة العم هذه تسمّى أيضاً فاطمة، فأطلق عليها الحسن الثاني اسم لطيفة تمييزاً لها عن ابنة عمّها. وهكذا غدت الزوجة الشرعية للملك وأم أولاده الخمسة: محمد الملك الحالي باسم محمد السادس، وأخيه مولاي رشيد، والأميرات للّا مريم، وللّا أسما، وللّا حسنا.

. حرصت لطيفة على حسن تربية أولادها كما حرصت على توطيد روح التعاضد والألفة بينهم، بدلاً من الفُرقَة والتباعد. كانت الأسرة العلوية منذ زمن سحيق تعزل الأولاد، بعضهم عن بعضهم الآخر منعاً لتشكيل العصائب والزمر المتفرقة، وبروز الخيانات، وقيام التكتلات. بينما سعت لطيفة لإيجاد اللُحمة ووحدة الصف في ذرّيتها، وأعتقد أنها نجحت في مسعاها.

كان محمد الخامس يعرف أصدقاءه كما يعرف أعداءه؛ بينما لم يبرهن ابنه عن تمتّعه بهذه الدِراية. وهكذا قرّب إليه بعض الأشخاص الفاسدين تماماً الذين نهبوا البلاد دون شفقة، ودون أن يطالهم العقاب.

لكن أيكون الملك هو القدوة والمثال؟ لقد جمع ثروة طائلة. هذا ما يعرفه جميع الناس. لذلك لايمكنه إلا أن يصمت ويتغاضى؛ فعند وفاة أتباعه المتحمسين، الذين كنزوا الذهب، يكتفي الملك بالاستيلاء سرّاً على المبالغ المختلسة؛ متخلّياً عن جزء يسير لعائلاتهم ليفرض عليها الصمت.

لو لم ينهب هؤلاء السادة الخدّاعون المغرب لما وصلت البلاد إلى الحالة الصعبة التي تتردّى فيها. نحن حتى الآن نجهل إلى أين تذهب أموال الفوسفات. لا أحد يمكنه القول أين يختفى ناتج أول ثروات

الأمة. كما أننا لانعلم ما مصير *الحَبُوس*(*) وأموال الزكاة المخصصة للفقراء وفقاً للشريعة الإسلامية؛ ولها في المغرب وزارة خاصة تديرها. لكن جميع هذه الهبات والغلال تُختَلس وتلتهمها أسرار الإدارة البعيدة الأغوار.

في الجهة المقابلة لهذه الطغمة من أسماك القِرش، عرفتُ أشخاصاً كافحوا من أجل بلادهم، وسعوا ببطولة أحياناً، وقد اختفوا؛ وطواهم النسيان. لم يتبوؤا أبداً المناصب التي يستحقونها، ولم يحصلوا أبداً على أيّة مكافأة لقاء تضحياتهم.

يحق التساؤل كيف أمكن للحسن الثاني، بما عُرِف عنه من ذكاء، وحَدْس مرهف أن ينخدع أحياناً بهذه الطغمة المستغِلّة ويغرق في هذا الفساد. لكن سبق لفيكتور هوغو أن قال: «آذان الملوك في أقدامهم»؛ وهي حقيقة تنطبق على المغرب حيث تخلّى رعايا جلالته عن كلّ كرامة واعتادوا أن يقبّلوا قدمي السلطان ويديه... بعد كل حساب أليس هو سليل النبي، ألا يوجّهنا، ويمثّلنا؟ مع ذلك لايمكنني أن أتصور تقبيل رجليه، والانحناء أمامه حتى الأرض! يجب ألا نجثو إلا أمام الله ولانسجد إلّا له. لقد قبّلت يد الملك احتراماً له ومحبة أيضاً ـ لأنني أحببته إلى أبعد حدّ ـ لكن أين هذا من الركوع أمامه... هو نفسه لم يرضَ مني ذلك. كان يقبل من أولئك الذين يكنّ لهم بعضَ التقدير، بعض دلالات التوقير، لا أكثر؛ بالمقابل كان يترك بكل طيبة خاطر بعض رجال الحاشية يجثون أمامه، وهو ينظر إليهم عن بعد متعالياً ومزدرياً. فهو يعرف حدود كل شخص ومكانه.

لم يحظ الحسن الثاني عند اعتلائه العرش بهذه الشروط التي حظي بها حديثاً ابنه محمد السادس، ففي العام 1961 ورث الملك عهداً متفككاً تحاول فيه كل جهة أن تمارس هيمنتها. فالأحزاب والقادة يريد كل منهم نصيبه من قالب الحلوى، وكل من أنصار اليسار وأنصار

(*) الحَبُوس: ج حُبُس: كل شيء وقَفه صاحبه لوجه الله حيواناً كان أم أرضاً أم داراً، يحبس أصله وتُسبَّل غَلّته أي تجعل في سبيل الله (عن المنجد) وهذا ما يقابل الوقف أو الأوقاف في سورية ـ المترجم.

اليمين والعسكريين والمدنيين يرغب في الاستئثار بالسلطة؛ وفي الفترة التي نُصِّب فيها الملك الشاب على العرش لم يعطه المراقبون أكثر من سنة يملك فيها؛ بل ما من حزب، أو سياسيّ، أو رئيس تحرير صحيفة إلا وتوقَّع انهيار العرش الملكي خلال بضعة أشهر.

وجد الحسن الثاني نفسه على رأس بلاد في غليان، تتنازعها مبادئ مختلفة؛ فبعض السياسيين يريدون الاشتراكية، وبعضهم محافظون، وآخرون يسعون للتعاون مع المتديّنين، وكلٌّ يسحب الغطاء إلى ناحيته.

لم تكن السلطة مهدّدة فقط من الداخل، وإنّما من الخارج أيضاً. فالدعوة إلى الوحدة العربية تلهب النفوس حماساً وتعمّق جذورها من الشرق حتى أفريقيا الشمالية موجّهة سهامها إلى الأنظمة الملكية بصورة خاصة؛ وقد تمكّنت من إسقاط ملك مصر، ثم قَتْل ملك العراق(*). وركزت الحركة حملتها على العرش الشريفي في المغرب الذي بدا لها سريع العطب، وأعلن عبد الناصر من القاهرة أن من المشرّف خلع هذا الملك الشاب، القليل الأهميّة، عن العرش؛ وعُبئت الجهود لزعزعة النظام في المغرب، حتى في مجال الثقافة سعى المصريون والسوريون لنشر أفكارهم الوحدوية العربية الثورية بين الجماهير، كسعي الأصوليين الإسلاميين في الوقت الحاضر هدايتنا في الدين. وبالأمس كما اليوم لم تكن هذه الدعوات إلا ذرائع للإشادة بعصيان النظام ومناهضته وبث روح الشقاق.

لاشكّ أن محمداً الخامس كان الوحيد الذي أحسَّ تماماً قبل موته أن بإمكان ولده أن ينقذ الملكية ويعيدها إلى ماكانت عليه دائماً: نظاماً يعتبر الملكَ أميرَ المؤمنين والمعلّم الذي يصدر الأحكام، والسيد المطلق في الأمة.

عاش الملك محمد الخامس حياة تواضع وبساطة، وتلقى ضربات قاسية جدّاً من الفرنسيين، وأعطى بعد ذلك جانباً من السلطة للمعارضة

(*) تمّ إعلان الجمهورية في مصر إثر انقلاب أبيض قام به الجيش تنازل فيه الملك فاروق عن العرش ونزح إلى خارج البلاد العام 1953 ، وقام الجيش بانقلاب في العراق قتل خلاله الملك فيصل الثاني وأعلنت الجمهورية في العام 1958 ـ المترجم.

التي سعت إلى التضييق عليه بقوانين غير معقولة. لم تكن حميّا الشباب تحفّزه كما الحسن الثاني عند اعتلائه العرش؛ ولم يظهر ذلك الزهو الساخر الذي يسعى إلى الأخذ بثأره.

في يوم من الأيام، وفي مسرح ماريني قرب الشانزليزه في باريس، وكان الحسن الثاني مايزال وليّاً للعهد عندما صرّح أمام جمهور من النظّارة يضمُّ عدداً من الشخصيّات السياسيّة بهذه العبارة الموجزة إنما الطافحة بمعنى عميق:

- أريد مستقبلاً أن أحكُمَ مع الشعب، أن أكون ملكاً مثل لويس الحادي عشر.

حين نعلم ماذا فعل لويس الحادي عشر، ونعلم كيف حبس أعداءه في الأقفاص، يمكن أن نعتبر هذه الكلمات بوادر منذرة؛ ففي تزمامارت، هذا السجن الصحراوي الذي أُرسِل إليه معارضو النظام يعانون مرّ العذاب والإهمال حتى الموت، تصرَّف الحسن الثاني بالفعل مثل لويس الحادي عشر؛ لكننا لسنا في القرن الخامس عشر، ولايمكن في أيامنا قبول مثل هذه الإجراءات البغيضة.

وُهب الحسن الثاني ذكاءً حاداً لكنه حَكَم حُكمَ عاهل مطلق الصلاحية في القرن العشرين الذين لايستسيغ ذلك. كان على الملك أن يتلاءم مع روح عصره. محمد الخامس قفز بنا خمسين سنة إلى الأمام؛ لكن الحسن الثاني أعادنا خمسين سنة إلى الوراء.

كان الملك الشاب كائناً ذا وجهات متعدّدة؛ فهو رجعي وحديث في آن واحد؛ شديد التعلق بالتقاليد الموروثة منذ القِدَم ومفتتناً إلى أبعد حدّ بالعقلية الأوروبية؛ محتشماً وغريب الأطوار، يحب أحياناً إتباع الأزياء المستحدثة والطارئة في ارتداء ملابس ذات ألوان وخطوط مرقّشة، مع حزام وقبعة خارجين عن المألوف. لكنه يعرف أيضاً كيف يبقى متزناً وملتزماً باللباس الرسمي المألوف، محافظاً باستمرار على ربطة عنق قاتمة... إنّه تصرّف شخصية مزدوجة فعلاً، والواقع أن العيب الكبير في الحسن الثاني هو عدم استقراره؛ وليس من النادر أن نلقاه فرحاً منشرح الصدر صباحاً ليتحول بعد فترة إلى كائن معتكر

المزاج، مكفهر الوجه. وهذا الطبع غير المستقر وغير المتوقع أربك حاشيته والمقرّبين إليه إلى أبعد حدّ. كنا لانعلم أبداً أيّ وجه سنلقى؛ بعكس أبيه الذي تتجلّى البساطة في حياته، وفي حركاته وطريقة تصرفه كما في أسلوب منحه؛ فهو صريح مباشر، وعندما يسحب ثقته من أحد معاونيه فإنه يطرد الدخيل عَلَناً، أما ابنه فلا يُعلن أبداً لفاقد الحظوة عزله أو إبعاده، بل يعمل سرّاً على إزالته من الوجود.

كان الحسن الثاني شديد التناقض! فهو مغرم بالترف، والمال، والمآكل الشهيّة، والأشياء الفاخرة الثمينة. غير أنّه مع إحاطته بأجمل الأثاث في قصره يأكل وهو يجلس على سجادة صغيرة للصلاة، وأمامه طاولة صغيرة بسيطة من الفورمايكا مستخدماً أدوات مائدة بدائية.

لكن السمة البارزة في طبعه، والأكثر ترويعاً بصفة خاصة، هي عدم احترامه لأحد. وهو لايتردّد في تحقير المقربين والخدم؛ وإن رأى رأساً يتجاوز رؤوس الآخرين فيجب قطعه، يجب زواله، وإبعاده إلى الخلف ليدخل الصفّ. فأي عنصر يخرج عن المعدّلات لايحق له العيش، على الأقل في المحيط الملكي، وإذا استمر متمتعاً بالسعادة في الخارج، فيجب تنغيص عيشه ليتعلم معنى الشقاء.

غير أنّ علاقاتي معه لم تكن سيئة أبداً. لكنها لم تكن بمثل جودتها مع محمد الخامس، وذلك يعود إلى أنني لم أرد أن تكون كذلك. فصداقتي للإبن تتردّد في نفسي وكأنها خيانة لذكرى الأب. أخيراً اقتنعت بسخف تصرّفي؛ فالحقيقة تفرض في كل مكان المنطق نفسه: «مات الملك، يحيا الملك!» وقد بقيت خلال أكثر من ستة أشهر أناديه سميّة سيدي وهو لقب يُطلَق على ولي العهد، بدلاً من مناداته سيّدي اللقب المخصّص للملك. لم أستطع الانتقال من الواحد إلى الآخر، وهذا الموقف طبع العلاقة بينه وبيني بالبرود، لكنه فهم الوضع فيما بعد.

مرّت على الملك خيبات أمل عديدة غيّرته، وتلقّى ضربات صلّبته. لم يَعُد الشخص ذاته، وفقد الثقة بكل إنسان. توخّى الحذر حتى في غرفة نومه، وكان ينام والمسدس في متناول يده. لقد جعلت منه الأحداث رجلاً شكّاكاً.

تروي وقائع تاريخ فرنسا أن الملك الشاب لويس الرابع عشر عَادَ

مازارين وهو يُحتضَر على فراش الموت(*)، وقال له الكاردينال القويّ متمتماً:

- إنني أموت...

خاطبه الملك الشاب: لاتتركني يا عرّابي، لاتتركني الآن، فأنا في غاية القنوط...

- لماذا يا سيدي؟

- لأنني لاأثق بأيّ إنسان.

عندئذ همس مازارين مطمئناً وهو يغمض عينيه.

- ستكون ملكاً كبيراً.

عندما لايمنح الملك ثقته لأيٍّ شخص، يُعَدُّ ملكاً كبيراً ويمكن أن يعمل كليّاً لمصلحة بلاده؛ وهذا هو حال الحسن الثاني. بعد موت أوفقير توصل العاهل الشريفي بالتأكيد إلى تحقيق أشياء كبيرة؛ لكن السلطة المطلقة عرفت أيضاً نصيبها من العتمة: عانى المغرب من عهد الإرهاب، إنّه قسمة جميع الدكتاتوريين.

ربّما كرهت الحسن الثاني في الوقت الذي أذاقني فيه مُرَّ العذاب، لكن رابطة عميقة جداً تواصلت على الدوام بيننا. عاطفة حتى المِحَن، والألم، والظلم، وقسوة قدرنا لم تتوصّل إلى خنقها. إذ أن الحياة التي عرفناها والمودّة التي وحّدت بيننا، والعاطفة الحميمة التي استحوذت علينا لايمكن أن تنحلّ.

عندما استذكر تلك العاطفة الحميمة، يجب أن أوضّح أنّها لاتتعلّق

(*) لويس الرابع عشر (1638 - 1715) ملك فرنسا، توفي والده سنة 1643 وعمر ابنه خمس سنوات فتولت والدته آن دوتريش وصاية العرش، وحكمت بمساعدة الكاردينال مازارين (1602 - 1661)، وبالرغم من أن الملك الشاب توّج في ريمس وهو في مطلع السابعة عشرة من العمر في العام 1654 فقد بقي مازارين رجل الدولة القوي حتى وفاته في العام 1661، والواقعة المذكورة أعلاه تعني أن الملك كان في الثالثة والعشرين من عمره. أدار شؤون الحكم بعد مازارين، وهو الأطول حكماً بين الملوك والأقوى في تاريخ فرنسا حتى أنه لُقب (الملك الشمس) - المترجم.

بكل تأكيد بعلاقة جنسيّة؛ إذ قيل الكثير... وجيل بيرو في كتابه *صديقنا الملك* تمادى إلى حدّ كتب فيه أن ابنتي سكينة هي ثمرة علاقتي مع الملك! وعندما قرأتْ الصغيرة هذا الافتراء الفظيع صاحت مضطربة: أمّي، لايهمّني أن أكون ابنة أيّ كان، إنّما غيرُ هذا الذي حطّم حياتي، هذا الذي أرسلني إلى السجن وأنا في الثامنة من العمر. قولي لي: إنّ هذا غير صحيح...

هذا غير صحيح بالتأكيد، فعاطفتي الحميمة مع الحسن الثاني تعني ببساطة أنني كنت أستطيع أن أكلمه دون خوف، وأن أقول له الحقيقة مواجهةً دون أن يستاء، أو يمتعض. هذه هي العاطفة الحميمة مع ملك.

كان الحسن الثاني كثير الاعتزاز بنفسه، مما يدفع المقربين منه إلى تجنب إثارة المواضيع الشائكة أمامه. أمّا أنا فلم أكن أتردّد أبداً في أن أنقل إليه ما يقول أبناء شعبه عنه؛ فالقادة في أبراجهم العالية لايعرفون أبداً الحقيقة والخبر الصحيح، ومهما أعدت لهم من تقارير فإنّها لاتحيطهم أبداً بما يجري في أوساط الشعب. وأنا أذكر فكاهة كانت تُروَى في تلك الأوساط، رويتها بدوري إلى الملك...

امرأة فقيرة جداً أنجبت ثلاثة توائم. رأى الملك أن يزورها، وسألها عن الأسماء التي أعطتها لمواليدها الثلاثة فأجابت: «سمّيت الأوّل الحكومة، والثاني الشعب، والثالث الحسن الثاني. سأل جلالته: «ولكن أين هم؟». فأجابت الأم: «الحكومة ترضع، والشعب يبكي، والحسن الثاني نائم».

أدرك الملك مغزى الفكاهة. الحكومة تكنز الأموال والشعب يعاني الفاقة، والملك غافل لايقوم بمهامه. والتعابير بالعربية أكثر قدحاً... وقد أعجبته الفكاهة، لكنه شعر أنها تنال منه. تمت هذه المقابلة أمام ثلاثة أو أربعة أشخاص من عائلته، بدوا متشنّجين عند خروجنا وقالوا لي:

- أليس جنوناً أن تكرري على مسامعه هذه الفكاهات الجارحة؟

فأجبت: كلا، ليس هذا جنوناً، إنّها قصص تُروّج؛ وكنت أنبئه

بالحقيقة دائماً عندما كان ولياً للعهد؛ فهل يجب علي الآن أن أخفيها عنه بعد أن غدا ملكاً؟

إنهنّ الأخريات اللواتي قوّضن علاقتنا الطيبة. جميع هؤلاء النساء اللواتي أدخلتهن إلى القصر، ونشرن فيما بعد شائعات غير معقولة نسبوها إليّ. جميع أولئك النساء، اللواتي أردن أن يأخذن مكاني، تغطرسن، وكنّ الأوليات المدَّعيات بأنني حرّضت زوجي على التمرد والتآمر على العرش... وفي النهاية تمكنّ من تنحيتي، وقضيت نتيجة أفضالهن نحو عشرين سنة في السجن. لقد نبّهنا القرآن الكريم بحكمته العالية: «اتق شرّ من أحسنت إليه، وكن على الدوام متيقظاً...»(*).

* * *

حصل أوفقير في عهد الحسن الثاني على سلطة أكثر نفوذاً وسعة من تلك التي حظي بها في ظل محمد الخامس؛ فرقّي إلى رتبة جنرال. وكلّف بمتابعة إعادة تنظيم أجهزة المخابرات بمساعدة ـ سريّة لكنها فعّالة ـ من الفرنسيين والأمريكيين والانكليز والإسبانيين والإسرائيليين؛ وسمّي بعد ذلك وزيراً للداخلية. وفي مساء اليوم الذي أسند له فيه هذا المنصب الكبير عاد متأخراً إلى المنزل وأيقظني من نومي ليزفّ لي النبأ، ولا أعلم سبب الهاجس الذي انتابني ودفعني إلى القول:

ـ لن تخرج من القصر إلا على محفّة!

سألني مندهشاً: لماذا؟

ـ سيفسدك، وسيلطّخ سمعتك، وفي يوم ما سيعمد إلى قتلك! هذه هي تصرفات الملوك.

لاحظت عندئذ بريق حزن في عينيه.

بدأت منذ ذلك الحين حياة رسمية تحت الأضواء وعدسات

(*) ليست آية ولا حديثاً، بل هي مقولة قد يكون لها تتمة «بدوام الإحسان إليه» لترتكز كدعوة إلى خلق كريم، أما القرآن فيعبر عن عكس ذلك تماماً بقوله: «إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» ـ المترجم.

التصوير، حياة لم أكن أتوقعها. كنت أريد وجوداً صغيراً بمنتهى البساطة في ثكنة، إلى جانب عسكري، أربي أطفالي مثل بقية الناس. لم أحلم بهذا النصيب الخارق الذي تكشّف أمامي. مَنْ كان في السابق يقدِّر وصول تلك الفتاة الصغيرة البادية النحول والهزال، السمراء القاتمة، العليلة باستمرار، إلى هذه المكانة العالية؟ مَنْ كان يفكر أن هذه الطفلة السقيمة ستغدو امرأة شابة تمور صحة وترفل سعادة؟ في حفلات الاستقبال وأمسيات السهر كانت تتوجّه إليّ الأنظار، فأنا الأكثر مَرَحاً، وملاطفة، وغنجاً، ولا أفكّر إلا بالضحك، والتسلية، والغناء، والرقص.

لم يكن صعود أوفقير السبب في تغيير نمط حياتي فأنا أرتع منذ زواجي في تحضيرات الدولة الخفيّة لخاصتها، ووضع الخدم والجنائنيين والسائقين تحت تصرفهم؛ وعندما غدا أوفقير وزيراً لم تختلف الأوضاع كثيراً. أتبع دائماً تمريناتي الرياضية صباحاً، وأخرج، وأقرأ... إنه البرنامج نفسه. أرتاد دور السينما بعد الظهر، وأزور الأصدقاء، نتناول الشاي، وننصرف إلى الثرثرة. كنت أعبد القيل والقال وأجد دائماً من يوافيني بآخر الأخبار ويكشف لي الأسرار الخفيّة؛ ونساء الحاشية شابات وجميلات، والنمائم كثيرة، والأحاديث تدور حول العشّاق، والغراميات، والخيانات، والعلاقات... هكذا كانت الأيام تنقضي دون أي شاغل.

بل كنت أعيش في ترف قبل أن يشغل زوجي مراتب هامة في السلطة، فأرتدي أجمل أثواب السهرة، والتايورات الأكثر أناقة من أشهر دور الأزياء. فقد قام في جادة محمد الخامس أحد أجمل متاجر الألبسة النسائية ذات الطراز الباريسي، وهو حافل بكل فاخر وثمين، ومزيّن بالأزهار والمخرمات... وقد جعلته صاحبته السيدة رُوسّي رمز الأناقة وسط الرباط! وغالباً ما كنت أزوره مع أوفقير لأختار أحدث المعروضات وأروع الحلي. لم أكن بحاجة لمخالطة العائلة المالكة من أجل حسن اختيار ملابسي أو توفير أسباب المتعة أو حفلات الرقص.. بالتأكيد تعرّفت في ارتياد القصر الملكي على عالم جديد، وقابلت رؤساء دول، وشاركت في زيارات رسمية إلى خارج البلاد، لكنني قبل ذلك عرفت حياة الترف والرخاء.

كان أوفقير يملك مناجم في جنوب البلاد تدرُّ عليه بعض المال، وورثت بدوري عن أمي بعض الأملاك سُلِّم لي قسم منها عند زواجي، والباقي عند بلوغي الحادية والعشرين من العمر، سن الرشد القانوني في ذلك الحين. تقلّدت الحلي الثمينة قبل أن أتعرّف على العائلة المالكة وقبل أن يعمل أوفقير مرافقاً للملك، وقد أعطيتُ تلك العائلة أكثر مما تلقيتُ منها. في أحد الأيام، التي تَلَت الاستقلال، زار ولي العهد منزلنا، ورأى خزائني الجدارية ملأى... كنت، على الأرجح، المرأة الشابّة الوحيدة في تلك الفترة التي تمتلك أكثر من خمسين زوجاً من الأحذية، وأكثر من خمسين كنزة صوفية، وعدداً لايُحصى من الأوشحة، ومعاطف وتايورات... وملكت العديد من الحليّ والمجوهرات، وكنت أبيع منها أحياناً لأقصف وأنفق بإسراف، فقد كنت مقبلة على الحياة بكل ملذاتها وأبذِّر دون حساب. متع صغيرة يمكن أن تبدو سانجة وقليلة الأهميّة: ارتياد السينما، تناول الحلويات والمرطبات في مقصف جان دي لالُون في الساعة الحادية عشرة مساءً، التنزه على شاطئ البحر مع الأصدقاء؛ السباحة واللعب والأكل والضحك... هذا ما كان يغمرني بسعادة لامتناهية. بالمقابل لم أكن أشارك أبداً في ما يبدو لي منحرفاً أو غير لائق؛ فأنا أستهجن مثلاً، السباحة في منتصف الليل وبعد حفلات العشاء؛ فأنا فتاة مرح نهاري، فتاة محتشمة، ليس بفعل التربية فقط، وإنما بطبعْ أصيل في نفسي؛ وهذا ما يدفع أولادي في الوقت الحاضر للومي، واتهامي بالرجعية من وجهة النظر هذه.

لدى استلام أوفقير حقيبة وزارة الداخلية، بدأت أفقد حرية التصرف وعدم الاكتراث. غدا كل شيء متكلّفاً، وسطحياً، ومنافقاً. من الصباح وحتى المساء يحيينا أناس باحترام ونحن نعلم جيّداً أنّهم يتمنون موتنا. ما أن يتولى أحد السلطة حتى لايعود هو نفسه، كما لاتعود نظرات الآخرين نفسها. حاولت بدوري، عبثاً، أن أعامل أوفقير كما من قبل تماماً، فتجاوزتني الأحداث، وفرضت عليّ أشخاصاً لا أريد أن أراهم، ومجهولين لا أريد أن أستقبلهم... كنت الوحيدة التي تصارحه بالحقيقة جهراً، وتثبت له أنه على خطأ عند اللزوم، بينما

يؤكّد له الجميع باستمرار .أنّه على صواب دائماً. كنت تلك التي تُصدِقُه القول في المسائل الدقيقة مرددة لحاشيته:

ـ لايحق لكم خداعه... ما تقولونه لا يخدم البلاد.

كنت المزعجة، والرقيب الصارم على جميع الوصوليين والأنانيين. ولم أكن أريد إلا خير المغرب. فاتهمت بأنني امرأة طموح تريد الاستئثار بالسلطة. بالعكس، أحبُ الحريّة، وبي ميل إلى البوهيمية والاستمتاع بالحياة، وأنا أحبُ بالتأكيد اللهو والتسلية، لا المؤامرات؛ وقد دُفعت رغماً عني في هذا المجتمع شريكة لزوجي في حياته.

إذا أردت اليوم أن أُنَفس عما في صدري فذلك لأنني أريد أن يعلم الجميع من أنا: لست أبداً تلك التي حلا للبعض أن يتصوّرها. أردت فقط الخير لبلادي بمعارضة من كانوا يسعون إلى نهبها، وتكوين الثروات الطائلة من وراء ظهور جميع المغاربة.

* * *

اكتشفت في أحد الأيام أن لزوجي خليلات منذ مدة طويلة. في بداية حياتنا الزوجية كنت بمنتهى الرعونة والسذاجة! وفي عهد محمد الخامس لم أكن أبداً في منزلي، ولا أعلم ماذا يجري فيه، فأنا على الدوام في القصر، واغتنم أوفقير الفرصة، وأنا أدرك الآن أنه خانني مع نساء، قد يكنّ أكثر ذكاءً وأنوثة وجاذبية. كنت أتجنّب ممارسة الاتصال الجنسي خشية الحَمْل، وكان بإمكاني الامتناع عن معاشرة زوجي خلال بضعة أشهر، وهكذا بدأ كل شيء.

كان يغيب أياماً كاملة، وعند عودته أجد أحمر شفاه يلوّث قمصانه... والنساء يلاحظن هذه الأشياء، وعندما يردن إيجادها يعرفن كيف يمكن التحقّق منها. لم أَلُم أو أعاتب، بل تحمّلت طعنة الخيانة صامتة، فأَنَفَتي تحول دون إثارة المشاحنات. غير أن كرامتي أبت إلا أن تعبّر عن ذاتها، ولم أجد نفسي في إحدى الأمسيات إلا وأنا أقول له وبهدوء مفاجئ لي وله.

ـ في اليوم الذي سأخونك فيه بدوري ستبكي بدموع من دم.

أجابني بخبث: إن وجدت من يرغب بك فلا تتأخّري.

وُجد هذا الراغب المعجب، وكانت الصدمة مُرَّة على أوفقير. لم أرد الانتقام، إنما وقعت فعلاً في غرام حقيقي؛ ولأوّل مرة في حياتي، وبفضل ذلك الرجل الجريء، شعرت في نفسي بالقدرة على أن أجابِهَ زوجي، وأحقّق انطلاقتي، وأحيا لحظات رائعة في انفعال هوى متبادل.

* * *

بدأ كل شيء في العام 1963 في أحد فنادق طنجة. كنا على المائدة مع أحمد دليمي معاون أوفقير، ومجموعة من الشخصيات المقربة من الحكومة. فجأة شعرت خلف ظهري بعينين تخترقان جسدي واستدرت بهدوء فرأيت شاباً يتأمّلني، وتقاطعت نظراتنا، وفي هذا التبادل الصامت مرّ شيء ما يتعذر شرحه، لم أتوقعه، ولم أكن مستعدّة له.

بعد انقضاء فترة من الوقت، حضر نادل واقترب من المائدة وأعلن طلب السيدة أوفقير على الهاتف. على الطرف الآخر من الخط كان المجهول الذي التقت عيناي بعينيه.

ـ نهارك سعيد، سنلتقي غداً...

حدّد لي موعداً. أردت أن أتكلّم، لأرفض على الأرجح، لكنه أغلق الخط. هذا الشاب يتحدّى أوفقير بكل جبروته! وهكذا وجدت نفسي منجرفة في قصة حب روكامبولية.

في اليوم التالي التقينا وبدأنا التعارف. هو حَسَن وينادى حسنيتو لأنه من منطقة قريبة من إسبانيا، عسكري في السادسة والعشرين من العمر، أي أنه أصغر سناً مني بقليل؛ متقدٌ نشاطاً، جريء ومتسلّط. قرّر مباشرة وجوب لقائنا بانتظام. تردّدت، فقد كنت دائماً وفيّة لأوفقير، وارتعشت، وانتابني الخجل... راوغت مدّة ثمانية أيام عانيت خلالها المرض، والعذاب، وأنا أتلوّى من الإقياء. مزّقتني تردداتي فخسرت عدة كيلوغرامات.

ثم قَبِلت، وبدأنا نتبادل الحبّ سرّاً، لكنه، في أحد الأيام، أعلن لي:

ـ لا أريد أن يشاركني فيك أحدٌ.

حبيبي الوسيم يرفض اللقاءات الخاطفة، وهو يريد أن تتطوّر علاقتنا وتُعلن على الملأ. إنّه يملي شروطه وهو صاحب القرار، أمّا أوفقير فكأنه غير موجود، فهو كثير المشاغل ومهامه الكبيرة تبعده عن الاهتمام بعواطف امرأته. لكنه شعر أنني متغيّرة، ولاحظ توعّكي وهزالي، وما أعانيه من إرهاق معنوي، فالوجدان قلق غير مطمئن.

ينتمي حسن إلى التدخل السريع والأمن العام، وبهذه الصفة يتبع تنقلات الملك. في أحد الأيام، بعد أن أدّت سريّته التحيّة للملك ابتعد فارسي الوسيم الخدوم عن رجاله وصعد إلى سيّارة «جيب»، وتوقّف أمامي على جانب الطريق، وانحنى، ثم أصعدني، وسار بي على مرأى ومسمع من جميع الناس... يا للفضيحة!

كان أصدقاؤه يقولون له إنه مجنون باستفزازه أوفقير، لكنه لم يستمع النصيحة، ورفض بعناد أن يتكتم أو يخفي بأنّه عشيق زوجة رجل النظام القوي، وأنه يريدها لوحده. غدا الوضع غير مألوف، وغير مريح؛ وجدت نفسي مقطّعة الأوصال بين هذا الشاب الذي أحبُّه وبين زوجي الذي أحترمه وأخافه معاً.

لم يقل أوفقير شيئاً، ولم يوجّه لي أي لوم، ولم يتطرّق أبداً للموضوع، كما لم تُطرَح القضية على بساط البحث. أراد أن يترك لي الوقت لأتمالك نفسي، دون شك. الأرجح أنه كان يفكر أنني لن أستمرّ في هذا الهوى الأهوج؛ وأن هذا الحبّ العابر سينهار من تلقاء نفسه. لي خمسة أطفال أعبدهم، خمسة أطفال سيستبقونني، ومهما غاليت في الشطط فزوجي مقتنع أنني سأعود إليه.

بدأت بالنسبة لي ولعشيقي حياة معقّدة، تعكّر صفوها الشائعات والتوريات؛ فالشاب من منطقة الريف أصلاً؛ وذهب بعضهم إلى حد الزعم أن علاقته معي ثمرة مؤامرة تهدف إلى إرواء ظمأ المتعطشين إلى الانتقام من أوفقير عقب حملة القمع التي وجهها ضد متمردي الشمال. لم يرد أحد أن يفهم أنّ عاطفة عميقة جداً تربط بكل بساطة بيننا.

حاول التراتب العسكري تحطيماً لحبّنا أن يبعد حَسَن؛ فرض عليه

في الأماكن الأكثر بعداً، مختلف الدورات التدريبية التي يمكن أن يتّبعها ضابط. غوص عمق بحري، تزلّج جبلي، رماية، قفز بالمظلّة... مارس كل شيء، وبفضلي تلقى تأهيلاً كاملاً تماماً! غدا جندياً بارعاً، فقد تابع بانتظام هذا التدريب وكان دائماً بين أوائل كل دورة.

خلال أربع سنوات تقريباً، عشت مع حسن قصة فوضوية رائعة. لم نكن نتمكن من اللقاء إلا بشكل مُشتَّت ودون انتظام لكننا نَعِمنا بفترات جميلة جدّاً. عندما كان في دورة تدريبيّة في إسبانيا، كنت أذهب لرؤية ولديّ مريم ورؤوف، وكانا في القسم الداخلي من مدرسة ماري ـ جوزه في جستاد في سويسرا. في طريق العودة ألتقي بحبيبي الأثير في جاكا وهي مركز تزلّج في البيرينه على الحدود الإسبانية ـ الفرنسية. لم يكن أوفقير يعلم أين أنا، وفتّش عنّي في كل مكان، وعندما عينّ موضعي أوفد أبي في مهمة لمراقبتي.

كنا نلتقي أحياناً في فرنسا. في أحد الأيام، أثناء إعادتي لولديَّ من المدرسة السويسرية، أصيبا بطفح الحصبة؛ وهذا ما يوافقني؛ قضيت النهارات والليالي مع حَسَن في غرفة من أحد الفنادق في شارع سانت ـ آن، وأنا أسهر في الوقت نفسه على ولديّ؛ غير أن الهروب لم تدم مُدّته فحَسَن ملزم بالعودة إلى جاكا... رافقته حتى بوردو، وكان كل منا يبكي حزناً على فراق الآخر؛ ورشفنا دموعنا على رصيف محطة القطار وودّعته. صعد إلى القطار المتوجه إلى البيرينه وجلست على مقعد وأجهشت بالبكاء وقد اجتاحني الحزن.

فجأة شعرت به قربي، رأيته، ضمّني بين ذراعيه وهو يقول لي ببساطة:

ـ إنني هنا... لا أبالي، سأذكر لهم أن وعكة صحيّة أخرّتني.

عدنا إلى باريس، قضينا يومين جديدين معاً، وكنا نحيا في طيش ورعونة. كلّما زاد الخطر علينا وأحسسنا به توطّدت علاقتنا بشكل استثنائي.

في المغرب، مارسنا الحبّ في كل مكان. حتى في المجارير قيد الإنشاء! في شمال البلاد كانت تتمُّ أعمال إنشاءات واسعة النطاق، جُلِبَت إليها أنابيب واسعة وجدنا فيها ملجأً مؤقّتاً نأوي إليه بعد أن نتجهز

ببطانيتين وبعض الزاد، ونبقى مختبئين مدة أربع وعشرين ساعة... لايعرف أحد أين اختفينا. يجب امتلاك الجرأة، فأوفقير في أثرنا.

مارسنا الحبّ في البحر، والغابة، والريف، والمدينة؛ وكأنَّ أوفقير غير موجود في البلاد. بفضل هذا الشاب عرفت معنى الحب، حبّ عاشق جسور. صادفت قبله رجالاً كانوا يختفون تحت الأرض، عندما يسمعون اسم زوجي. أما هو فيتصل بي هاتفياً في ساعة متأخرة من الليل، وأنا إلى جانب أوفقير، أو يوقظني في ساعة مبكرة صباحاً ويأمرني:

ـ احضري في الحال.

وأنزلق خارج السرير، ثم أذهب للحاق به، وعندما أصل وأرتمي بين ذراعيه يسألني:

ـ اقسمي لي أنّه لم يمسّك...

وأقسم برهبةٍ.

بدأت أهرب من زوجي وأدرك أخيراً أن علاقتي بحسن جديّة؛ فأنا ألتقي بعشيقي في شقته الصغيرة، لكن ظل الزوج يخيم علينا. في المصعد أشمُّ رائحة عطره؛ وأجد أحياناً مسَّاحتي زجاج سيّارتي ملويَّتين... إنّها دلالات ينثرها أوفقير ليبلغّني أنّه مطّلع على أمري، وعلى تصرّفاتي. لم أعد أستطيع العيش في جوّ الذعر والنفاق، وفي إحدى الأمسيات اعترفت له:

ـ أحبُّ شخصاً آخر، وأريد الرحيل.

حاول أولاً معاملتي برفق، وأراد أن يظهر متسامحاً لإفساح المجال لي للأخذ بالحسبان وجود خمسة أطفال.

لكنني كنت أرغب بنيل حرّيتي. أريد أن أعيش مع أولادي، بالتأكيد، لكنني أريد أيضاً العيش مع الرجل الذي أحببت. ألححت خلال عدة أشهر على أوفقير ليوافق على منحي حريتي، وجاهدت من أجل الحصول على استقلالي إلى أن استجاب لطلبي. ملّ الجدال، فاستدعى القاضي وأتمّ إجراءات الطلاق بتاريخ 16 تموز 1964 . وماكادت الأوراق توقّع، والقاضي يتهيأ للانصراف حتى وجد من المناسب أن يذكر للجنرال أن لديه ابنة ظريفة جداً، وهي طالبة في كليّة الصيدلة... هكذا بدأ الطامعون يسعون ليأخذوا مكاني.

قَلَب الوصوليون لي ظهر المجنّ. لم أعد زوجة الجنرال القوي. ابتَعَدوا عني، فتملّقهم لي لايعود عليهم بأيّة فائدة، وهكذا لم يبق حولي إلا عدد قليل من الأصدقاء المخلصين؛ وبما أنني لم أعد بحاجة للاستمرار في أبهة المظاهر فقد ذهبت للسكن مع ابنتي الصغيرتين ماريا وسكينة في بيت صغير في الرباط، بيت لطيف ناعم مثل مثيله في بلانش ـ نيج، ذي غرف صغيرة، وصالون أنيق تتصدّره مدفأة مرخّمة...

تقضي الشريعة الإسلامية بامتناعي عن إقامة علاقات حميمة مع أيّ رجل خلال ثلاثة أشهرٍ وعشرة أيام بعد طلاقي، وهي المدة اللازمة للتأكّد بأنني لست حاملاً. لكن هذا لم يمنعني من الخروج مع حَسَن للعشاء أو للرقص في أحد الملاهي العامة.

كان حَسَن حتى ذلك الحين يتبع الحامية العسكرية في الرباط، فأُبعد وألحق بثكنة في بوعرفة قرب الحدود الجزائريّة على بعد أكثر من ستمئة كيلومتر عن العاصمة. فكان يقطع نصف البلاد في سيارة جيب عسكرية يسري بها ليلاً ليصل مع الفجر لرؤيتي، فنسعد لتوقّعنا قضاء أوقات هنيئة، أحدنا إلى جانب الآخر، بعد أن تمّ تحدي بُعدِ المسافة الفاصلة بيننا. وهي واحدة من محاولات عديدة ضد فارسي المتيّم، تبعها الضغط، والتهديد، وحتى الاختطاف.

في إحدى الأمسيات، كنا عائدين من إحدى صالات السينما. فجأة صُدِمَت سيارتنا من الخلف وحُصِرنا قرب جدار، واندفع عدة رجال مأجورين يرتدون جلابيب القوى المساعدة، وأمسكوا بحسن وقادوه إلى سيارة جيب وانطلقوا بسرعة كبيرة... بقيت وحدي حائرة، والوقت حوالى منتصف الليل. أسرعت إلى القصر باكية، وهرعت إلى غرفة الملك، فأنا المرأة الوحيدة من خارج السراي التي تعرف كلمة السرّ، وقصصت عليه، وأنا مضطربة، قانطة، ما حصل.

رغم محاولة الحسن الثاني إظهار القسوة فقد ابتسم من جرأتي الوقحة وقال:

ـ جئت تزعجينني من أجل هذا في منتصف الليل! ألا تخجلين؟

لم يرد أن يتدخل في هذا الموضوع، ولم يكن من رأيه إجراء الطلاق، ورفض الانحياز لي أو لأوفقير، فزوجي السابق وزيره الرئيس وأنا من صديقات القصر العريقات، وهو يقف محايداً في قضية شخصية. ألححت عليه وكأنه أخي أو أبي، لا ملك المغرب. فتناول الهاتف بحضوري ووجّه بعض الأوامر، وبفضل هذه الجرأة التي أبديتها تمكن ضابطي الشاب أن ينجو من مختطفيه الأشقياء.

لم أتمكن أبداً من الكشف عن مدبّري هذا الاختطاف. أكد لي أوفقير أنّه لم يعط أي أمر بهذا الشأن؛ وصدّقته؛ فلو أراد إزاحة منافسه لتصرّف بنفسه كرجل يواجه خصماً له. لاشك أنها فِعلة أحد أفراد حاشيته المتحمسين له. ما أثار غيظي، وأنا موضع ثقة هذا الشاب، أنني سبب اختطافه وضربه بالعصي، وقد جُرِح ـ وخاصة في كبريائه ـ وبقي ثلاثة أيام دون أن يخرج من بيته، وهو يردّد لي:

ـ إنني متأكّد الآن، على الأقل، أنّكِ لن تعودي إليه.

وعدته بأن أبقى إلى قربه. وكنت صادقة في ذلك الحين، لكنني وجدت نفسي بين المطرقة والسندان. حَسَن يتوسّل إلي ألا أهجره، وأوفقير يطلب مني العودة إليه... وهناك أولادي: مليكة المتبناة في القصر الملكي، ومريم ورؤوف في جستاد، وماريا وسكينة في منزلي بإشراف مربية.

عندئذ، وفي محاولة لإحراج عاشقي، العسكري الوسيم، دعاه رؤساؤه وفرضوا عليه الاختيار:

ـ الجيش أو هي.

أجاب دون تردّد:

ـ هي.

وبالفعل، استقال من الجيش في تلك الفترة.

بعد طلاقنا، تسنّى لأوفقير أن يتزوج امرأة تصغرني بثماني

سنوات، واسمها فاطمة أيضاً؛ ورغم ذلك لم يُرد أن يتركني وشأني، وألحَّ على أن نستأنف حياتنا المشتركة. إنّه لم يرتض الطلاق إذن إلا استجابة لما اعتقده نزوة مني؛ وما حلّه القاضي يمكنه أن يعيد عقده.

غير أنني أردت الزواج بحسن، لكن أوفقير لم يسمح، وهو يعلم أنه سيفقدني نهائياً إن تزوّجتُ ثانية. وفي آخر مسعى للحيلولة دون زواجي هدّدني بعدم السماح لي برؤية أولادي... فكيف أستطيع أن أتخلى عن عائلتي الخاصة؟

عرفت مع حَسَن لحظات رهيبة وازدادت الصعوبات أمام استمرار علاقتنا. كلانا تحت المراقبة باستمرار؛ وزوجي السابق يقضي ليالي كاملة تحت نافذتي؛ وأنا في تجاذب بينٍ رجلين هما كل حياتِي. الهوى يثير لواعج روحي، وأوفقير يبقى ماثلاً في خاطري، فهو المعْلَمُ الذي لاغنىً عنه لوجودي.

V

انعكاسات قضية بن بركة

كانت إحدى صديقاتي تردّد عليّ دائماً، في تلك الفترة، وهي تتحدّث عن أوفقير. إنّك له بمثابة جوزفين(•).

على نَسَق نابوليون الذي كَثُرت عليه المشاكل وعوامل الخيبة والمرارة، صادف أوفقير مصاعب عديدة خلال الإثنين وعشرين شهراً التي استمرّ بها انفصالنا. ففي آذار 1965 هزّت الدار البيضاء فتن رهيبة بدأت بمظاهرات طلابيّة خالصة حرّكت بسرعة العمّال، ثم العاطلين عن العمل وأخيراً جميع الناقمين. غدت الحركة عندئذ لاتضبط، منسكبة نحو العنف، متبنيّة نبرات ضد الرأسمالية، لكنها أيضاً عنصرية، وضد الساميّة، وضد الفرنسيين. وغلت الدار البيضاء، وانتشر فيها الدم والنار، وهاجم مثيرو القلاقل مخافر الشرطة والثكنات العسكرية خلال معارك في الشوارع أوقعت ثلاثين قتيلاً في صفوف الشرطة. تلقى أوفقير، وهو يراقب مشاهد هذا الدمار من طائرة هليكوبتر، الأوامر بإطلاق النار في الوقت الذي كانت فيه هذه العصابات المسلّحة تتوجّه

(•) جوزفين تاشر دي لاباجري (1763 ـ 1814) ولدت في المارتينيك (إحدى جزر الأنتيل ـ مقاطعة فرنسية) تزوّجت في العام 1779 الفيكونت دي بوهارنه الذي مات على المقصلة في العام 1794 ثم الجنرال بونابرت في العام 1796 وتوّجت معه إمبراطورة في العام 1804؛ طلّقها في العام 1809 لأنها لم تنجب له وريثاً للعرش ليتزوج في العام 1810 ابنة امبراطور النمسا. استمرت على حب نابوليون وخصّها بقصر مالميزون في ضواحي باريس، توفيت وهو في أوج انتصاراته ـ المترجم.

إلى حيّ أَنَفَا وحي بورغونية حيث يسكن قسم من الرعايا اليهود المغاربة.

شنّت الصحافة الفرنسيّة حملة شعواء ضد وزير الداخلية، وسمّته «جزّار الدار البيضاء». هل كان بإمكانه أن يترك الأحداث تزداد سوءاً؟ ألا يُتَهم عندئذ أنه ترك السكان يتعرّضون للقتل؟ لكن يجب إِيجاد كبش محرقة، فالصحافيون لايجرؤون على مهاجمة سياسة الحَسَن الثاني خشية حرمانهم من الإقامة في الفنادق الفخمة والهدايا الفاخرة المقدّمة لهم من قِبَل العاهل المغربي.... والأكثر سهولة إلقاء اللوم على الجنرال الذي أحلّ النظام بطريقة حازمة، وقمع المظاهرات الهادفة إلى إشاعة الخوف والفوضى.

ثم كانت القضيّة الكبرى. في يوم الجمعة 29 تشرين أوّل 1965 ، اختفى المهدي بن بركة من قلب باريس. ويُذكَر كم أثّر هذا الحدث، الذي مايزال سرّه غامضاً، على النظام الديغولي، وما عُرِف في حينه، مساعدة رجال مباحث فرنسيين في عملية الخطف، وربّما في قتل المعارض المغربي، «عمل مبتذل يقوم به مأجورون» وفقاً لتصريح الجنرال ديغول، وهو في صميم المعركة الانتخابية الرئاسيّة؛ ولوّث الوحل القذر المتناثر عن هذه العملية التي تورطت بها الشرطة الدنيا أُسس الجمهورية الخامسة، بل ولطّخ وجه الجنرال ديغول حاميها. وآنئذ وجب إيجاد مسؤول عنها، وتبييض الإليزيه، وتبرئة دوائر الأمن الفرنسية، فقال الجنرال ديغول عندئذ: «يجب أن يدفع أوفقير الثمن». وباتهام الوزير المغربي حاولت باريس أن تظهر القضية وكأنّها حادثة مدبّرة من قبل وكر دسائس مغربي غامض، ولاتتعلق انعكاساتها إلا بالمغرب.

خلال أحداث تلك القضيّة كنت منفصلة عن أوفقير، وأعيش مغامرتي الغرامية مع حَسَن، غير أنني كنت في طريقي إلى باريس مسافرة بالطائرة المقلعة من الرباط. وحضر زوجي السابق بتاريخ 30 تشرين أول في الساعة الواحدة صباحاً لاستقبالي في مطار أورلي.

وقد وصل إليه بالطائرة القادمة من فاس قبل ذلك بساعتين (أي في الساعة الثالثة والعشرين من يوم 29 تشرين أول). توّجهنا بعد استلام حقائبنا في المطار إلى فندق رويال - مونسو في جادة هوش ووصلناه الساعة الثالثة صباحاً، حيث قضينا ليلتنا في غرفتين منفصلتين.

كان هدف لقائنا التوجُه معاً إلى سويسرا لقضاء عطلة عيد جميع القديسين(*) مع ولدينا، خاصة أنَّ إدارة المدرسة قد أعلمتنا بأن مريم مريضة. ذهبنا إلى جستاد صباح اليوم التالي، وقضينا يومين في الجبال السويسرية؛ وعدنا بطائرة جنيف إلى باريس يوم الثلاثاء 2 تشرين الثاني، وبقراءة صحيفة «لوموند» في الطائرة، علمنا باختفاء بن بركة.

في المطار كان جمهور من الصحافيين بانتظار أوفقير. لكن ماذا يمكنه أن يجيب على أسئلة الصحافيين الملحّة؟ لاشيء سوى أنّه قد فوجئ لتوّه بالنبأ. وجدنا باريس تنقلب رأساً على عقب، والناس مبلبلي الخواطر، فالقضية تشغل جميع الأفكار. بقينا في العاصمة الفرنسية ثلاثة أيام. قضاها أوفقير في متابعة التقارير الصحافيّة، وحضور حفل استقبال دُعي إليه من قبل روجيه فري وزير الداخلية الفرنسي.

سرعان ما توجّهت أنظار جميع الناس، من السياسيين المذعورين، إلى رؤساء تحرير الصحف المنضبطين، والمخبرين السريين الثرثارين، ومروجي الشائعات إلى أوفقير واعتبروه المسؤول الوحيد عن الاختطاف؛ ونشرت الصحف الفرنسيّة في هذيان إعلامي، مقالات رهيبة تتهم زوجي بجريمة صارخة، وبرزت عناوين مريعة على الصفحات الأولى من الصحف اليوميّة وجميعها تردّد اللازمة نفسها: قَتَل أوفقير بن بركة... من غير المهم لديهم عدم وجود الوزير المغربي على الأرض الفرنسيّة في يوم اختفاء المعارض؛

(*) عيد جميع القديسين Toussaint: عيد يحتفل به المسيحيون ويقع في الأول من تشرين الثاني كل عام - المترجم.

ومن غير المهم أن يكون قد قضى الوقت معي مساء ذلك اليوم في باريس، والأيام التالية في سويسرا.

هل يمكن حقاً تصوّر أوفقير آتياً من بلد أجنبي لاختطاف منشق مشهور، وقتله، وإخفاء جثته؟ وما حاجته لأن يورّط نفسه شخصيّاً؟ إن الصحافيين والمحققين يعتبرون الناس حمقى عندما يحاولون دفعهم إلى تصديق هذه الرواية الغريبة.

هل اختطف الأشرار بن بركة، وعذبوه، وقتلوه؟ هل اقتيد سرّاً إلى المغرب أو أي بلد آخر؟ لم يتوصل أحد إلى معرفة الحقيقة.

لزم أوفقير الصمت، لم يجب أبداً على الحملات عليه، ولم يبال بما يمكن أن يقال عنه. لقد أخطأ في عدم الدفاع عن نفسه لأن أعداءه والمنددين به استغلوا صمته ليشوّهوا سمعته وليظهروه بصورة مروّعة، وارتضى كلّ شيء، متخذاً التدابير لحفظ مكانة الملك.

كان جميع الناس يعرفون، في الواقع، أنَّ أوفقير يتلقى الأوامر؛ فالحَسَن الثاني رجل لايُملى عليه مسلكه. السلطة الوحيدة لوزيره تنفيذ التعليمات الملكية. بل لم يكن لأوفقير حتى تسمية موظفي مكتبه! وعندما أراد في إحدى المرّات أن يختار أعوانه المقربين، أقالهم الملك على الفور، واستبدل بهم رجالاً اختارهم وحده. لم يكن الحسن الثاني شخصية يمكن المناورة معه أو فرض فكرة عليه: فهو يقرّر كلّ أمر. كان يمكن لوزرائه أن ينكبُّوا على دراسة مدة ستة أشهر، بينما يكتفي الملك ببضع دقائق للإطلاع عليها واستيعابها وفرض رأيه بخصوصها.

إنّما في تلك القضية لم يكن الحسن الثاني أكثرَ أو أقلّ تعرّضاً للشبهات من الفرنسيين، أو البريطانيين، أو الأمريكيين، أو الإسرائيليين؛ معسكر كامل يريد أن يتخلّص من هذا المتطرّف المزعج.

بل قد يكون الملك أقل الراغبين في اختفاء المعارض الشهير؛ فحرية مناورة بن بركة في بلاده محدودة جدّاً؛ فقد حُكِم عليه بالإعدام في المغرب. إذ اتهم في العام 1963 بالخيانة العظمى عقب محاولة تآمر، وصدر عليه الحكم غيابياً؛ والعفو الذي أصدره الملك في آذار 1965 لم يغير المعطيات بشكل رئيسي: فالقوى السياسية التي تدعم الزعيم اليساري مقيّدة بضغط الدولة، وتحركات بن بركة تحت الرقابة.

ولايخشى إلا من تجهيز عصابات سريّة بهدف العصيان. لكن أوفقير ساهر على الأمن، ولايمكن لأية صفقة سلاح أن تجتاز الحدود؛ إضافة إلى أن الحكومة المغربية حرصت على إقامة علاقات طيبة مع الاتحاد السوفييتي، وهو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تقدم الأسلحة للقوى الثورية.

بالمقابل يمثّل بن بركة تهديداً حقيقياً لجزء كبير من العالم، وبصورة خاصة للولايات المتحدة الأمْريكية؛ فذِكْرُ اسم بن بركة يعني ذِكْرَ الكفاح لإزالة الاستعمار، والانعتاق من العبودية، والتحرير... وهو يتتبع آثار تشي غيفارا(*) لكنه أكثر خطراً، فتشي مثاليٌ، أما بن بركة فسياسيٌ، وزعيم حركة في العالم الثالث، وحليف للاتحاد السوفييتي. واعتُبرَ كل من ينحاز إلى معسكر موسكو في تلك الحقبة من الزمن عدواً للغرب؛ وهكذا فإن من مصلحة جهات أكثر أهمية وقوة من المغرب إزاحة هذا المثير للقلاقل.

لأسباب سياسية، اتهمت فرنسا أوفقير، وعرفت الأمّة التي منحها سبعة عشر عاماً من حياته كيف تحطّمه من أجل مصلحتها الخاصة، وهذا ما لاأرضى به أبداً. أشعر أحياناً بحاجة ملحة تدعوني للبحث عن الحقيقة، وأقول في نفسي بأن من واجبي أن أتصل بنجل بن بركة، وقد نتوصل بالعمل معاً في تسليط الضوء على تلك القضية، لكنني أتساءل في اللحظة التي تلي إن كنت فعلاً راغبة في المعرفة. ماذا يمكن أن يُكتَشف بعد مرور خمسة وثلاثين عاماً؟ ألا يجب أن نترك الموتى في رقادهم؟

يبحث بن بركة الابن لمعرفة المكان الذي دفن فيه أبوه. إنّه يريد قبراً يذرف عليه دمع حزنه على فقده... هل لهذا الأمر أهمية حقاً؟ يرقد زوجي منذ ثماني وعشرين سنة تحت شجرة في الجنوب المغربي ولم أزر قبره أبداً، مع أنه باق على الدوام في نفسي. إنّه أكثر حضوراً بهذه

(*) تشي غيفارا: (1928 ـ 1967) ثائر كوبي من أصل أرجنتيني، صديق فيدل كاسترو. عمل على نشر الثورة في أمريكا اللاتينية. قتل في حرب العصابات في بوليفيا ـ المترجم.

الطريقة مما لو ذهبت كل نهار جمعة أصلي قرب ضريحه. الميت يغيب نهائياً عندما تزول ذكراه من قلوب ذويه.

غيّرت قضية بن بركة حياتنا؛ فمنذ ذلك الحين أخذت تحوم حولنا الريبة والشكوك والأحقاد. دعم الحسن الثاني، أمام أعين العالم، رسمياً أوفقير الذي حكم عليه القضاء الفرنسي غيابياً بالسجن مدى الحياة. جمد الملك العلاقات الدبلوماسيّة مع فرنسا مدة خمس سنوات، وفَرَضَ الصمت على كلّ من يُندّد أو يحاول العمل على إبعاد وزيره، ووجّه إليه ثناءً معزّزاً «لولائه الدائم لشخصنا». لكن كلّما تصرّف الملك على هذا المنوال زادت عبودية أوفقير، فالجنرال القوي يختنق حتى غدا منفّذاً بسيطاً للقرارات المتخذة من قبل الحسن الثاني؛ لايُطلب منه حتّى إبداء الرأي أو التفكير بأمر. واتسعت الهوّة بين الرجلين، فأحدهما بثقافته العسكرية يريد مواقف صريحة واضحة، والآخر بتربيته ليرث عرشاً يعلم أنّ من واجبه أن يرتاب بكل شيء، وبجميع من حوله.

بَيْدَ أن عدم منح أوفقير ثقة مطلقة خطأ جسيم يجب عدم ارتكابه معه. وهكذا أخذت علاقاته مع الملك تسوء ببطء؛ فهو حتى ذلك الحين عمل بجدّ واستقامة، وقد غدا الآن ناقماً فلا شيء يسير في الطريق القويم. وبدأ ينظر من بعيد، لامبالياً بما يحدث، يترك الناس يسرقون، ويردّد باستسلام:

ـ ليست مشكلتي، بعد كل حساب، مادام الملك يريد أن تسير الأمور هكذا...

لم أعد أعيش معه، ولكن كيف يمكن قطع الصلة نهائياً مع هذا الرجل الذي ترك بصماته على حياتي؟ كنت أراه بانتظام. من أجل الأولاد، وأيضاً لأن رابطة قوية من حبّ حيّ دائماً ماتزال باقية بيننا. كنت أحذره من هذه اللامبالاة التي غدا يبديها:

ـ إنني آسفة يا أوفقير، فأنت تتصرّف بسخف غير معقول، وما تفعله غير مقبول؛ فإذا كنت لاتريد أن تعمل مع الملك، فقل كلمتك وارحل، هذا كل شيء.

ـ إلى أين تريدين أن أرحل؟ أتعتقدين أنّه سيتركني أبتعد بهدوء مع كل ما أعرفه، وما شاركته به؟

مع ذلك كان أوفقير معتبراً، في تلك الفترة، على الدوام، الرجل الأقوى في المغرب، وكان يقال: إن الملك يلهو والجنرال يأمر. الواقع ما سبق أن قلته؛ فالحسن الثاني متيقظ جدّاً، ودوماً لقضاياه وللطريقة التي تدار فيها البلاد. إنّه يترك لأوفقير القيام بالتحريات، وقمع الشَغَب، وتوقيف المذنبين؛ وللعاهل متسع من الوقت للنظر في أمر الموقوفين. تعمل الشرطة خلال سنة أو سنتين، وتراكم التحقيقات والملفات، وتصادر الأسلحة؛ ويعطي جلالته لنفسه، وكأن كل ما سبق لا أهمية له الإرادةَ الساميةَ بالعفو عن المذنبين ومنحهم غفرانه الملكي.

فات الوقت على أوفقير للتراجع، فهو مطّلع على أسرار كثيرة. هل كان بإمكانه أن يتخلى عن مهامه الخطيرة ليعود ضابطاً في ثكنة؟ لايمكن ترك رجل مثله على رأس فوج مسلح، إذ يُخشى من وجود السلاح تحت إمرته.

منذ أن كلّف بوزارة الداخلية أدرك مدى النزف الذي حل بالبلاد، ومدى ضعف الإدارة؛ وعمل إلى جانب استتباب النظام، على تحريك عجلة الدولة. وحريّ بالذكر أن المغرب بين 1956 و1964 كان معرّضاً لأن يلتهب لكثرة الأسلحة المتداولة من بنادق، ورشيشات وقنابل يدوية. جرّد أوفقير الميليشيات المناضلة من أسلحتها، وجنَّد الضباط وضباط الصف في الجيش النظامي وأهَّلهم ودربهم، وألحق الأميين في صفوف القوى الرديفة. وأوجد نظاماً متمدّناً تقريباً يتمتع الناس فيه بحرية حقيقية، ويمكنهم الكلام، كما يمكن للأحزاب أن تعبّر عن رأيها رغم الرقابة المفروضة عليها.

سيتغيّر كل شيء بعد موته. سيحلُّ الإرهاب ويعمّ الخوف، ولن يجرؤَ أحد على الكلام في السياسة صراحةً؛ على مثال الوضع في البلدان الشيوعيّة.

أحكم أوفقير قبضته على كل شيء، بل ونظّم انتخابات

واستفتاءات، كانت مزيّفة النتائج بالطبع دائماً. مصلحة الدولة هي العليا ويجب الإذعان لها. كنت أسخر بانتظام عشيّة كل اقتراع.

ـ أوفقير، ماذا ستكون النتيجة غداً؟

يقهقه ضاحكاً ويجيب صراحة:

ـ تعرفينها جيّداً 99.99٪... لا حاجة لمناقشتها أو التدقيق فيها.

كان يسخر بنفسه من التحكّم بتعبير رعايا جلالته عن رأيهم. لكنه كان يلوم أيضاً الأحزاب التي تشارك في اللعبة بكثير من التساهل؛ فعندما يحتاج إليهم الملك يدعوهم إلى الاجتماع؛ وعند أوّل هفوة تبدر منهم يوجّه إليهم ركلة فينصرفون؛ وعندما يستدعيهم ثانية يرجعون. كان هذا الموقف الخنوع يغيظ أوفقير، وكان يقول:

ـ هذه ليست أحزاباً، وهؤلاء ليسوا رجالاً! وأنا عندما أُطرد خارجاً أذهب إلى غير رجعة.

كان يردّد دائماً:

ـ يا إلهي أعطني أعداء على مستوى قدرتي لأتمكّن من مجابهتهم واحترامهم معاً.

لكن أعداءه لم يكونوا على المستوى، ففي المغرب يتم الهرب بسهولة أمام القوّة؛ ويُعَدُّ أولئك الذين ينهضون ويقاتلون مجانين؛ وتُعتَبر أحمق، وغير واع، إن حاولت إظهار قليل من الشجاعة، أو حامت الشكوك حول استقلالية الرأي عندك؛ فالعقليّة المغربية تثير الاستغراب في مثل هذه المواقف.

تمكّن أوفقير من تفريق أحزاب المعارضة. وهم في غاية الضعف الآن بعد اضطهاد أربعين سنة؛ وبفضل جهود أوفقير، والوضع الذي تركه بعده، تمكنت الملكية أن تستمر. وفيما بعد، عند مرض الحسن الثاني، وفي أواخر حياته، سيستدعي القوى السياسيّة في البلاد إلى التناوب، أيُّ تناوب؟ ستضطر المعارضة من أجل الحصول على أغلبية أن تمد يدها إلى أحزاب كانت دائماً موالية للسلطة.

كان الملك يحترم أوفقير إلى حدٍّ ما لأنه يخشاه، ولأنه بحاجة

إليه؛ وكان أوفقير يفرض احترامه، لأنه يرفض الفساد. فالملك لايمكنه أن يأمره بالذهاب لارتكاب سيّئة يمنحه بعدها مزرعة ليضمن صمته. وعندما أراد الحسن الثاني أن يعرض عليه مالاً وعقارات رفض أوفقير، قائلاً له:

- إن ارتشيت فلن أتمكن أبداً من العمل لك. سأقبل منك قمصانك العتيقة لا أكثر...

كان قياس قبّة أوفقير 39 ، وقمصان الملك 37 فهي ضيقة على عنقه، ومع ذلك كان أوفقير يرتديها مفتوحة القبّة.

غير أن علاقته بالمال كانت خاصة جدّاً، فهو لايحمله أبداً، ولايناقش به، وإن تطرّق أحد إلى موضوعه طرده. كانت حساباته تتوقّف عند ألفي فرنك، آخر راتب شهري تلقاه من الفرنسيين. فألفا فرنك، بالنسبة له هي القمة، المبلغ الأقصى. في أحد الأيام اشتريت له قميصاً بستمئة فرنك، وهو مبلغ هام في ذلك الزمن. لم يفهم السبب:

- ماذا دهاك؟ ولماذا أرتدي قميصاً بستمئة فرنك؟ لايحقّ لك ذلك. هذا راتب ضابط في شهر! وأنا ضابط، ولايحق لي ارتداء قميص بهذا الثمن.

علّقت على كلامه ببعض طيشٍ: وإذا مت؟

- لن تتوقف الأرض عن الدوران إن مت دون أن أرتدي قميصاً بستمئة فرنك. هذا أمر هام في نظرك، أما بالنسبة لي فسيّانٌ، قميص من نايلون أو قطن أو حرير. المهم أن أكون مرتاحاً مع نفسي، ولن يرفع ما أرتديه من قدري.

أردت بكل بساطة أن أدخل السرور إلى نفسه، فقد لاحظت أن مسرّاته قليلة: فهو لايخرج لنزهة أو لهو، ولايسافر، ولايستريح، وهو محاط بطفيليين يبسمون له سعياً لتأمين مصالح خاصة. أردت أن أتلاطف معه بتقديم هدية له بين وقت وآخر، لكن ما الفائدة مادام لايهتم بتقدمتي؟

بالمقابل، كان يغامر بمبالغ غير معقولة عندما يقوم بجولة «بوكر» مع أصدقائه، مبالغ لاتتناسب مع الواقع، ولم يسبق لأحد أن سدّد له مثيلاً لها. وكان الجميع يستمتعون بالمقامرة معه، فهو يخلق

جوّاً مرحاً، ويقصّ نوادر وفكاهات، وعندما يُرد الهزل لا يجاريه فيه أحد. هكذا كان شهماً طيب القلب والنفس، لكنه كان كثير التجرد في مجال المال، وكان يقول دائماً:

ـ قبل أن أوقع عقداً أترك قلمي معلّقاً لساعات متسائلاً عن مدى صحة العقد ونزاهة معدّيه. يمكنني أن أدخل السجن لأي سبب عدا السرقة. لا أريد أن أسرق، ولا أريد الحصول على المال.

في إحدى العطل الصيفية، اغتاظ من رؤية ابنتينا تطالبان رفيقاتهما بدفع ما يترتب عليهما من نفقات حفلة لهو أعدتاها في الشالية الصغيرة التي نملكها في «قبيلة» على الشاطئ شمال المغرب.

وجّه إلي اللوم قائلاً: كيف تربين هاتين الصغيرتين؟ في عمرهما، في ثماني وتسع سنوات تحاولان استغلال الأخريات.

رددت قائلة: إنّها الحياة، وعلى الأولاد أن يتعلموا الاعتماد على الذات.

هتف مستنكراً: ليس الفتيات، لا أتصور كيف يمكن لابنتيَّ أن تطلبا من رفيقات لهما نفقات المشاركة في حفلة لهو جرت في منزلهما!

لم يرد أن يسمع أي اعتراض، واضطرت الصغيرتان لإعادة الدراهم القليلة بكاملها لرفيقاتهما. كان لديه أحياناً ردود فعل مغالية، إذ لايمكن دفع الأولاد في بداية سنوات السبعينيات للعيش بعقلية سنوات الأربعينيات.

بعد قضية بن بركة تغيّر كثير من الأشياء حولنا. في أحد الأيام اتصلت بي مديرة المدرسة السويسرية هاتفياً وهي مذعورة.

ـ يوجد رجال يتتبعون تحركات ولديكما في سيارات وأخشى من محاولة اختطافهما. احضروا لأخذهما.

قامت قوات من الشرطة مجهَّزة بمختلف الأسلحة بالتوجّه إلى جستاد، لكنني لم آخذ هذه الحركات الغوغائية على محمل الجدّ. كنت متأكّدة أن رجال حزب الاتحاد الوطني UNFP ـ الحزب المغربي اليساري المعارض ـ لن يتعرّضوا للأطفال سواء داخل البلاد أو

خارجها؛ لكن العقيد دليمي، معاون أوفقير، كان يسعى بهذه التهديدات المفترضة إلى إضعاف موقف رئيسه؛ إذ أنه كرّر ذات التمثيلية بعد عدة سنوات. ففي العام 1972 ، حضر ذات صباح لرؤيتي، وعيناه جاحظتان، وهو يتمتم:

ـ مليكة في خطر. سيخطفها القذافي؛ يجب من كل بدّ إعادتها إلى المغرب.

كانت ابنتي البكر تتابع دراستها في باريس؛ في هذه المرة أيضاً لم أصدق لحظة هذا الخطر المزعوم؛ فالعقيد الليبي لايمكن أن يفعل هذا، فهو في خصومة مع الرجال لامع النساء، وخاصّة مع فتاة في المدرسة؛ وبَقيت مليكة في باريس.

* * *

في الوقت الذي كانت قضية بن بركة تتفاعل عبر أمواج عارمة، كنت تحت تأثير حَسَن. وحتى ذلك الحين لم يحاول أحد أن يكيّف سلوكي، أو أن يسيّرني، أو يملي عليَّ إرادته؛ فأنا لاأقبل ذلك. غير أنني غدوت أداة بسيطة بين يدي رجل يقرر ما يجب علي تناوله من مأكل، وما يجب ارتداؤه من ملبس. إن أظهرتْ تقويرة ثوبي بعض عري نحري، عمد إلى خصامي وأمرني بالذهاب وتغيير الثوب. لم أكن أبداً قد اعتدت على معاملة بهذه الطريقة.

لم يلجأ زوجي أبداً إلى مثل هذا التصرّف المتسلّط والجائر. كان يترك لي حرية ارتداء الملابس التي تعجبني، وهو سعيد لرؤيتي جميلة، والإحساس بي متهللة منشرحة؛ تعوّدت دائماً أن أفعل ما يحلو لي، لكن هذا كان مستحيلاً مع حسن.

شعرت بشكل مبهم بأنني لن أستطيع التفاهم، على الدوام، معه. تراكمت تفاصيل تصرفات عديدة أدَّت إلى إزعاجي. هو، مثلاً مغرم بقدمي لأنهما صغيرتان. كيف القبول بإمكان تفكيك امرأة إلى قطع متناثرة؟ هذا جيد فيها، وذاك أقل جودة. هذه صفة جميلة لديها وتلك أخرى دميمة. تتحدث عالياً، تتحدّث بهدوء... المرأة كل متكامل، روح

وكيان وسلوك. لايمكن الهيام بأعين لوزية أو أنف خانس(*)، بساقين طويلتين أو قدمين صغيرتين.

ثم هناك أوفقير الذي يضايقنا بمطاردته. في النهاية عندما علم زوجي السابق أنَّ منافسه استقال من الجيش ليتزوجني صمّم على القتال لاستعادتي وإعادتي إلى البيت العائلي.

كنت حائرة مترددة في اتخاذ القرار، يتنازعني غرام عشيق مشبوب العاطفة، وصلابة رجل لا أريد رؤيته يخرج من حياتي. لم أجد منفذاً للوضع، فأنا مع هذا أو ذاك غير كاملة وممزّقة. أردت في غمرة قنوطي أن أنتهي. ارتديت قميص نوم جميل أبيض من الحرير، وابتلعت كمية هائلة من الحبوب المهدّئة.

عثرت عليّ في اليوم التالي صديقتي سيلڤيا الدوكالي زوجة سكرتير الملك الخاص. طرقت بابي فلم يجبها أحد، كررت الطرقات دون مجيب. دخلت فوجدتني ممددة بلا حراك؛ وظنّت في البدء أنني نائمة...

نُقلت بسرعة إلى المشفى، حيث بقيت ثمانية أيام في غيبوبة؛ حتى اللحظة التي استيقظت فيها كأحد الضواري، وقلبت كل شيء، سريري، ومنضدة الليل، وزجاجات المصل. أتساءل أيّة قوّة كانت تدفعني للتخريب، ثم سقطت وجُرحت. عندما خرجت من هذا الكابوس وجدت نفسي في غاية الهزال، والسخف، والحمق، والتناقض! ثم كانت العودة إلى الحياة. عندما نشرف على الموت، ويقال لنا إنّنا كنا دون وعي خلال أسبوع، فنحن ننظر إلى الوجود بطريقة أخرى. بدأت أجد نفسي أكثر صفاءً ووعياً، ودارت في رأسي الأسئلة التالية: تركتِ كل شيء لمن؟ ولماذا؟

بيد أنني عدت لرؤية حَسَن. وذات مرّةٍ أحسست في طويتي أنّها الخاتمة واللقاء الأخير. استأجرنا غرفة حقيرة في سوق المزاد في قلب الدار البيضاء حيث لايمكن لأحد العثور علينا. بقينا ثلاثة أيام منعزلين عن الدنيا، نعيش على الخبز والحليب فقط، وقد انصرف كل منا إلى

(*) خانس: صغير ومرتفع الطرف ـ المترجم.

الآخر في هوى جنوني أرعن. بعد ذلك قررنا أن نلجأ إلى ضيافة زوجة طبيب مشهور؛ امرأة جميلة جداً، شغوف بالرياضة، لكنها طائشة رعناء، بلا أخلاق أو ضمير. اتصلتُ بها هاتفياً، قائلة.

ـ سأحضر مع حَسَن.

أجابت: بكل سرور، سأعطيك غرفة الضيوف.

استقبلتنا بقميص نوم شفَّاف، مقوّر الصدر بشكل فاضح، وانحنت بإغراء تحت أنف حسن وهي تقدّم له الشاي... شخصت عيناه على هذه المفاتن المعروضة؛ وهي لاتحجم عن شيء، دون أيّ وازع أخلاقي؛ وأنا أشهد هذا المنظر الحافل بالإغواء مثل حمقاء. غير أن طبعي النزق المتهوّر دفع الدم حارّاً في عروقي، فنهضت فجأة أريد الانصراف، لكن حسن استوقفني مقسماً على حبّه السرمدي، وقضينا تلك الليلة معاً. في الصباح الباكر حملت حقيبتي وتسلّلت من المنزل هاربة.

لم أحتمل نظرات ذلك الشاب الشهوانية لتلك المرأة، نظرات شهوة لم يستطع أن يتحكّم بها. لم أغفر لأيّ منهما، فكرامتي فوق حبي. غدوت صارمة متشدّدة وبحقّ: من أجل حَسَن تخليت عن حياة حافلة؛ وهو يتجرّأ على أن يتصرّف حيالي بمثل هذه القحَّة! هذا ما لاأطيقه.

عدت إلى منزلي الصغير في بلانش ـ نيج؛ وعندما اتصل بي في اليوم التالي أجبته بفظاظة: لاتعد أبداً للاتصال بي.

أراد أن ينطلق في تعليل لتبرير موقفه وقال:

ـ إنني أهاتفك من منزلها، فأنا لم أستطع...

قاطعته بحدّة: أعرف أنك عندها، ويمكن أن تبقى حتى ترتوي. وداعاً وشكراً.

هكذا انتهت علاقتنا الغراميّة. لم أرَ بعد ذلك حَسَناً. لكنه أثّر على حياتي وقلب جميع مبادئي، ومبرّر وجودي، وطريقة رؤيتي للأشياء. بقيت عدة أشهر ممزقة بين هواي الطائش الأرعن وزوجي الذي أحبّه باحترام.

عند خروجي من لَدُن تلك المرأة، بعد أن تركت حَسَناً لقَدَره؛

مررت لزيارة إحدى الصديقات فأعلمتني أن زوجة أوفقير الجديدة كانت منذ وقت قصير في زيارة لها... ونقلت إليَّ الأحاديث التي أدلت بها:

ـ ادعت أنّ أوفقير لن يستعيدك أبداً بعد كل الذي فعلته به. فهو ينبذك الآن ولايريدك أبداً.

ـ حَسَنٌ. أهذا ما قالته لك؟ أرجو إذن أن تُعلِني لها في الحال، أنني سأكون خلال خمسة عشر يوماً مع أوفقير.

وذهبت إلى منزلي. بعد فترة قصيرة حضر أوفقير للقائي ليخبرني أن الملك عازم على زيارة رسمية لمنطقة تفيلاليت كلها، ولبلدة بودنيب موطن أوفقير خاصة، وسألني:

ـ هل يزعجك الذهاب لإعداد حفل استقبال الملك في بودنيب.

كلا، هذا يسرّني. وذهبت أهيّء احتفالات لمدة أسبوع لأكثر من ألفي شخص لدى أخ أوفقير الشاب عمدة بلدة بودنيب. عندما رآني الحسن الثاني توقف مندهشاً وقال:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ أستقبلكم بكل تواضع بعد أن طلب مني أوفقير الحضور...

قطّب الملك حاجبيه مستغرباً. إذا كان أوفقير قد أراد استعادة زوجته فلماذا لم يخبره؟ وذهب جلالته إلى مَرّاكش، وعدت مع أوفقير إلى الرباط. في المساء نفسه، أراد أوفقير أن يلج غرفتي... رفضت؛ فكّرت بتلك البديهة العربية: «تودّد لزوجتك لتحظى بالطيّبات...» وعندما ألحَّ طالباً قضاء الليل قربي أوقفته عند حدّه بحزم قائلة:

ـ لستُ من طراز النساء اللواتي يرتضين العيش إلى جانب زوجة أخرى. ثم إن طلاقنا مايزال قائماً، ولايجوز لك لمسي.

ـ إن توقّف الأمر على هذا، يمكن استدعاء القاضي في الحال.

الواقع أن أوفقير كان قد انفصل عن زوجته الثانية منذ عدة

أشهر، أنجب منها ولداً ثم شغلته مهامه الكثيرة عنها. في الحال اتصل هاتفياً بصديقه محمد بن عالم، ذراعه الأيمن وأمين عام وزارة الداخلية، وطلب منه الحضور مع القاضي الشرعي.

وصل الرجلان سريعاً، وحوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً كانت الأوراق موقّعة، وهكذا تزوّجنا ثانية. لو أنني كسرت إحدى ساقي ذلك المساء من أيام 1966 دون ذلك الإجراء لما تعرّضت بعد ذلك لسجن تسع عشرة سنة.

كانت الزوجة الأخرى، فاطمة الأخرى، ماتزال في مراكش مع العائلة المالكة؛ واستقل أوفقير الطائرة في اليوم التالي لينبئها بالخبر... دَخَلَت إلى غرفتها في الفندق عند الساعة الحادية عشرة، في اللحظة التي كنت أدير فيها قرص الهاتف للاتصال بزوجي؛ وأَمسَكَت السمّاعة:

ـ آلو، من المتكلم؟

أجبت بهدوء: السيدة أوفقير.

ـ من؟

هكذا لم يَعُد بحاجة إلى اختلاق الأكاذيب أو إعداد السيناريوهات. فقد أَدرَكَت كل شيء، وناولته السّماعة قائلة بكل بساطة، إنّما ببعض المرارة:

ـ عجباً، يبدو أنها السيدة أوفقير.

أمّا أنا فقد وجدت في تلك المصادفة تسلية سارّة، وبدرت مني ردة فعل مباشرة وقلت:

ـ أعتقد أن هذه اللحظة لن تمرّ بهدوء بالنسبة لك، وستضطر لتبرير تصرفك...

ـ نعم، يا حبيبتي، أتوقع ذلك، وسأتدبّر الأمر.

عندما أغلق الخط، طلبت منه فاطمة أن يوضح لها الموقف، قالت:

ـ ما هذه القصة؟ إن كنت قد استعدت زوجتك يجب أن تطلّقني.

ـ أوافق، كما تريدين.

نحو الظهر ذهب أوفقير لتحية الملك بصحبة فاطمة التي اغتنمت الفرصة لتشكوه:

ـ سيدي، لقد استعاد زوجته، والآن أنا أريد الطلاق.

التفت الحسن الثاني إلى وزيره.

ـ ما رأيك فيما تقول؟

ـ إن ترد الطلاق، فهي طالق.

النطق بعبارة «هي طالق» يكفي في الواقع للتفريق النهائي بين الزوجين. جرت الأمور بعد ذلك دون أن أتدخَّل. أرسل أوفقير شاحنة مع عناصر من القوى الرديفة لنقل أمتعة زوجته الثانية من المنزل الذي كانت تسكنه وهو ملكي. جمعت أغراضها الشخصية وثيابها والهدايا التي كانت قد تلقّتها ورحلت. لم تر أوفقير بعد ذلك. استقل كل منهما بحياته بعيداً عن الآخر.

بعد ذلك بسبع سنوات، وعند موت أوفقير، حاول *العُدُول*، موثِّقو العقود أن يدعموا ادعاءها بأنّها ماتزال زوجة أوفقير، وبالتالي يجب أن ترث جزءاً من تركته. رُفض طلبها لأنها لم تستطع أن تبرز الوثائق الرسميّة، أبرزت فقط صورة طبق الأصل غير واضحة، وادعت أن الوثائق الأصلية التهمها حريق سابق. مع ذلك سمح لها بالسكن في منزل أملكه، عاشت فيه خمسة وعشرين عاماً، بينما كنت أعاني العيش في السجون...

اقترنت إذن مرة ثانية بزوجي، واستعدنا حياتنا المشتركة. ومن جهته عاد حَسَن بعد وقت قصير إلى الجيش، ثم أجبره أهله على الزواج من إحدى نسيباته، وتابع حياته المحدودة الهادئة، لكنه طاف مدة طويلة في مدار حول الأرض. فخلال خمسة وثلاثين عاماً لم يسكن فيها المغرب تقريباً، بل تنقّل بين بلد وآخر ملحقاً عسكريّاً. وقد أحيل الآن على التقاعد، وفق ما قيل لي.

كنت أمتلك رسائل وصوراً، بيّنات حسيّة عن تلك القصة الغراميّة

الجميلة. وضعتها في صندوق في المصرف؛ واستعدتها عند خروجي من السجن. ثم سُرِقَت مني بعد ذلك... من أراد أن يختلس هذه الأوراق الشخصيّة؟ من أراد أن يستحوذ على ذاكرتي؟

فقدت كل شيء، لم يَعُد لدي معالم ولا أتمكن دائماً من تنظيم ذكرياتي. عشت حياة حافلة بالأحداث، ومرت بي أوقاتٌ عانيت فيها الخوف والذعر كثيراً، أوقاتٌ طويلة ضائعة، ضالّة، قانطة، وقد أساء لي أشخاص كثيرون...

ما سبب مناهضة جميع هؤلاء الأشخاص لي ومعاداتي؟ لم أنازع أيّة امرأة على زوجها، ولم أنافس أحداً على منصب. تقاسمت ما أملك مع أبسط الناس. خصّصت أموالاً للإنفاق على حجٍّ بعض المؤمنين إلى مكة سنويّاً. هل سبَّبت جرحاً لأحد دون أن أعلم؟ حرصت على أن أكون دائماً لطيفة مع أصحابي، ومن يحيطون بي، وحتى من لاأعرف. لم أكن يوماً عدوانية، ولا حاسدة، ولاغيوراً. وهل من سبب يدعوني إلى ذلك؟ لقد عرفت كل أنواع المتع والسعادة في الحياة.

VI

جرائم وخيانات

كان الطقس جميلاً، هذا السبت الموافق 10 تموز 1971 ، ورمال الشاطئ حارقة وأمواج الأطلسي تتلاطم بزبدها الأبيض البرّاق، وأولادي ماريا وسكينة وعبد اللطيف يلعبون قرب هذا الزبد المنعش، وأنا أستمتع بهذه الساعات من الصفاء المسروقة من الزمن. وعلى بعد قليل من المكان في قصر الصخيرات، يحتفل الملك بعيد ميلاده الثاني والأربعين، مستقبلاً حشداً من الرجال حصراً يضمّ وزراءً وجنرالات وصناعيين وسفراء.

يبدو القصر، بتتابع أبنيته الصغيرة المنشأة على شاطئ البحر، مكاناً مُعَدّاً للاستجمام: ملعب غولف بثمانية عشر ثقباً حيث جرت في ذلك الصباح بالذات مباراة، ومسبح شاطئٍ يغطس فيه عدد من المدعوين ليتبرّدوا من الجو الصيفي الخانق.

كلّ شيء يلوح ثابتاً لايتبدل، متجمّداً ضمن قواعد المراسم المتسلّطة على حياتنا. ولا شيء، على ما يظهر، يمكن أن يعكّر المجرى الهادئ لوجودنا. وفجأة خلال بعد الظهر حمل نسيم الساحل رائحة البارود وهو يعصف بالشاطئ. رائحة نتنة لاذعة تنشر المأساة والموت....

لم ينقض وقت طويل حتى علمنا أن انقلاباً يتمُّ تنفيذه. وأن الطلاب الضباطَ في مدرسة هرمومو العسكرية بقيادة العقيد محمد أبابو هاجموا قصر الصخيرات، بزخّات من رصاص الرشيشات، وتفجيرات

القنابل اليدوية حصدت كيفما اتفق نحو ستين من المدعوين. وكان القائد الأعلى للمؤامرة الجنرال مدبوح قد أظهر تردّداً خلال المجابهة فقُتِلَ من قبل المتعاونين معه.

أفلت أوفقير من المهاجمين وهو خارج بلباس البحر من المسبح، ولجأ إلى المغاسل مع الملك وبعض المدعوين ومنهم الجوهري بيير شومه، ورئيس الوزراء أحمد العراقي، والمستشار إدريس سلاوي، وأستاذان من كلية الطبّ ونائبان فرنسيان. فتش المتمردون طويلاً، إنّما دون جدوى، عن الملك. أخيراً ارتكبوا خطأ مغادرة القصر، وتركه تحت حراسة مجموعتي مغاوير لايتجاوز عددهما مئة رجل، بينما توجّهت معظم قواتهم نحو الرباط لاحتلال النقاط الاستراتيجية في العاصمة.

أعلنت محطة الإذاعة نحو الساعة السابعة عشرة انتصار القائمين بالانقلاب: «كُنِسَ النظام الملكي، واستولى جيش الشعب على السلطة...». خلال هذا الوقت خرج الحسن الثاني وأوفقير من مخبئهما. ضَعُفَ عزم العصاة في مواجهة أمير المؤمنين. وبعد بضع لحظات من التردُّد؛ تحوّل اتجاه فوّهات الرشاشات، وظهرت مجموعة عسكرية في وقفة تأهّب لأخذ التحية للملك؛ وتحوّل النصر إلى المعسكر الملكي. ارتدى أوفقير بسرعة بزّة عسكرية أعارها له أحد الطيارين، وتوجّه على رأس وحداته الخاصة إلى الرباط لقمع العصيان. انتهى كل شيء في المساء نفسه، نحو الساعة الثالثة والعشرين، وخلال الليل تمكن الحسن الثاني أن يُعلن عبر إذاعة «أوروبا 1»:

- إنني ملك أكثر بقليل من البارحة...

أثّرَ انقلاب الصخيرات الفاشل بعمق على أوفقير. خَجل أولاً لاضطراره إلى الاختباء خلال ساعات في مغاسل القصر، وهو في سروال بحر قصير. كان يردّد:

- إن وجب أن أموت، فلأمت على الأقل في موقف مشرف، لا عارياً إلا من سروال.

تلا ذلك إجراءات القمع؛ فأعدم عشرةُ ضباطٍ موقوفين رمياً

بالرصاص دون أيَّة محاكمة. عهد بحراسة هؤلاء المدانين - وبعضهم أبرياء بالتأكيد - إلى العقيد أحمد دليمي؛ وقبل إطلاق الرصاص عليهم جُلدوا بشكل مروّع فبدت وجوههم متورّمة مهشمة من الضرب وهم يُقتادون إلى أعمدة تنفيذ الإعدام.

بيد أن هؤلاء الرجال كانوا أخوة سلاح لأوفقير، عَرِف بعضهم منذ مرحلة الدراسة الابتدائية في أزرو في منطقة الأطلس الأوسط، ثم كانوا رفقاءه في ذات دورة تخرجه من الأكاديمية العسكرية في مكناس، وساهموا معه في حملة إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، ثم في حرب الهند الصينية... ووجب على أوفقير، بناء على أوامر الملك، أن يشهد تعذيب رفاقه، واشمأزَّ من تنفيذ حكم الإعدام بهم دون محاكمة. رأى أصدقاءه يهانون ويعذبون، ثم رآهم يسقطون تحت رصاص فصيلة الإعدام. شعر بمدى عجزه وعدم نفعه حتى سئم الحياة، وغدا عصبياً، سريع الاحتداد، مُرَّ الكلام.

حاول أوفقير أن يدافع عن شرف هؤلاء الجنود، فلم تتأخر الشائعات في أن تنسب إليه بأنه أحد الموحين بمحاولة انقلاب الصخيرات؛ ووصلت هذه النمائم بالطبع إلى أذن الملك، لكن ثقته كانت مطلقة بوزيره. في يوم حضر الملك، بعد أن تلقى عدة رسائل وشاية، وفتح ذراعيه أمام أوفقير وهتف:

- يقال لي إنك تريد قتلي، فها أنذا أمامك!

كانت هذه طريقته في التعبير عن ثقته.

لم تكن فكرة محاولة الانقلاب، على الأرجح، مفاجأة حقيقية لأوفقير. منذ سنتين ورفاقه يلمّحون أمامه إلى وجوب إجراء تغيير، وإلى أنّهم يفكرون بالقيام بمحاولة ما؛ لكنه لم يكن يأخذ كلامهم على محمل الجدّ... وفي إحدى الأمسيات زجر أحد أصدقائه ضاحكاً.

- إنْ تلمس شعرة من الحسن الثاني سأصرعك.

بل إنه هدّد شقيق الملك، مولاي عبدالله، فهذا الأخير، وهو شاب رفيع الخلق، أحببته كثيراً؛ كان ذا وعي سياسي مرهف ونظرة مستقبلية. وكان ينتقد أخاه حول كثير من النقاط، لكنه يحترمه لذكائه الفائق، وكان يتقرب قليلاً إلى المعارضة. صادفه أوفقير في حفل

استقبال وقد أحاط به عدد من الشخصيات السياسية غير المرضيّ عنهم في القصر. التفت زوجي نحو الأمير ووجّه إليه هذه الكلمات بلهجة المزاح.

ـ قل لي، يا مولاي عبد الله، إن كنتم تخططون لشيء ما ضد الملك لأتهيأ وأقف لكم بالمرصاد، فأنا ضمانة العرش.

عقب الأمير باللهجة المازحة ذاتها إنما ببعض ضيق:

ـ إيه أوفقير! لاتعكّر علينا صفو السهرة.

ردَّ أوفقير مؤكّداً: إنني أنبهكم فقط، إن تآمرتم على أخيكم فستجدونني في إثركم.

غير أن هذا لم يحل دون بقاء مولاي عبدالله صديقاً لنا. وكنا نزوره بانتظام، وقد ضمّ ابني رؤوف إلى رحلة قام بها، وأهداه أوّل دراجة ناريّة استخدمها.

هكذا سمعت أوفقير يدافع عن الملكية ضد جميع أولئك الذين يتمتمون من قريب أو بعيد ضد الحسن الثاني. لكن نادراً ما سنحت لي الفرصة للتحدث عن ذلك مع زوجي في تلك الفترة، فقد عهد إليه الملك بعد انقلاب الصخيرات بوزارة الدفاع. وشغلته مهامه الجديدة، وكان يعمل من الصباح حتى المساء، ولاينام إلا بضع ساعات في الليل. وتحوّل منزلنا في زنقة الأميرات إلى أركان حرب حقيقيّة: حُصرت مع الأولاد في غرفنا ولم يعد لنا مكان نعيش فيه. أحياناً لم أكن أستطيع النزول إلى الطابق الأرضي، ففي كل مكان مجهولون يعملون بنشاط تحت إشراف الوزير. في بعض الصباحات أضطر لتناول قهوتي على السلالم، فالضبّاط يشغلون الغرف جميعها. كانت سنة رهيبة.

كنت أهرب، في أغلب الأوقات الممكنة من تلك السنة، من المغرب إلى باريس، وخاصة إلى لندن، حيث اشتريت منزلاً صغيراً في شارع هايدبارك. إذ أن علاقاتنا مع فرنسا كانت فاترة عقب قضية بن بركة. وأوفقير لم يعد يستطيع وضع رِجْل فيها بعد أن حكم القضاء الفرنسي عليه غيابياً، لكن هذا الإجراء لم يكن يشملني أو يشمل الأولاد بالتأكيد إنما كنت أحرص ألا أطيل الإقامة فيها. وبما أنني لم أكن متعدّدة

اللغات، عمدت إلى أخذ دروس في اللغة الإنكليزية، ووظّفت آن براون لهذا الغرض وبقيت تلك الفتاة لدينا، ولم تفارقني.

في 6 أيار 1972 تعرّضت ابنتي مليكة لحادث سيّارة رهيب؛ فقد كانت مع لوك ابن الصناعي الكبير أندريه غلفي عندما انحرفت سيارته البورش وصدمت أحد أعمدة الكهرباء... جُدِع أنف مليكة، وتمزقت شفتها، وجُرحت وجنتاها؛ وتشوّه وجهها كليّاً. بقيت معها في باريس مدة شهرين كاملين وأنا أجهل كليّاً ما يحاك في المغرب.

أثارت صداقتنا مع أندريه غلفي مخيّلات كثيرة، وعندما تعرّض منذ عهد قريب لبعض القضايا مع القضاء الفرنسي، تلقّت مليكة زيارة أحد رفاقها الصحافيين وأدلى إليها بهذا النبأ المذهل:

ـ استولى غلفي على أموال أبيكِ... عَهَد إليه بخمسة وعشرين مليون دولار! وبواسطة هذا المبلغ كوّن غلفي ثروته. الآن، يجب عليك المطالبة بأموالكم.

نقلت إليّ مليكة الخبر، وسألتني عن رأيي فأجبت:

ـ ناقل هذه النميمة أحمق لئيم يريد الإساءة إلى أندريه غلفي وأوفقير؛ ففيها تشويه لسمعة أبيك في قبره. هل تعتقدين لحظة بصحة ذلك؟ هل خطر لك أن أباك سارق؟ من أين له خمسة وعشرون مليون دولار؟ ليس للملك نفسه مثل هذا المبلغ.

في 14 أيار، وأثناء وجود مليكة في المشفى تعرض أوفقير لحادث طائرة مروحيَّة (هليكوبتر) في المغرب، خرج منه بثلاثة أضلاع مكسورة. راجت شائعات بأن الحادث مدبّر... أهو حقاً محاولة اغتيال مقنّعة بشكل حادث طارئ؟ هل كان العاهل يريد إزاحة وزيره في تلك الفترة لأنه مطّلع على أسرار كثيرة وليس متفقاً معه في جميع الشؤون؟ لم أتوصل إلى معرفة الحقيقة، ولم أستطع تكوين رأي نهائي.

أيّاً كان الأمر، فإن قضية بن بركة، ومحاولة انقلاب الصخيرات جعلتا من أوفقير رجلاً آخر في النهاية. فهو من بعدهما لايطيق الترتيبات السريّة التي يجريها الحسن الثاني، ولا عناده كعاهل مطلق الصلاحية، ولا اعتقالاته وحبسه الخصوم، ولا أوامره القصوى

بالإعدام دون محاكمة. في مجالسه الخاصة كان يفصح عمًّا في نفسه وينتقد الملك؛ وهو مطّلع على كثير من المآسي، وكثير من الأسرار. أشياء عديدة تضايقه، وتدفعه إلى الثورة، ولا أصدقاء له، فهو يشعر أنّه محاصر من جميع الجهات، وجميع الأشخاص الذين يدورون في فلكه، ويأتون لزيارتنا عائليّاً عملاءٌ للملك. حتى أن بعض خدمنا جواسيس له. إنّهم يقدمون للعاهل معلومات تفصيلية عن مأكلنا، ومشربنا، وملبسنا، وأحاديثنا، والحلي التي أتزيّن بها، والأحزمة الجديدة التي أطوّق بها خصري... والحسن الثاني يتقن دوره سلطاناً مهيمناً، آذانه وأعينه مبثوثة في كل مكان، وهو يريد أن يعرف كل ما يجري حتى في حميمية منزل الرجل القوي في نظامه.

في بداية تموز 1972 كنت ماأزال في باريس قرب مليكة وهي في طور النقاهة من العمليات الجراحية التي أجريت لها بعد إصابتها في حادث السيارة. وبناء على طلب زوجي قمت بعيادة أربعة ضباط مغاربة يعالجون في مشافي العاصمة الفرنسية؛ من بينهم الجنرال عبد القادر لوباريس الذي أصيب بجراح خطيرة خلال انقلاب الصخيرات الفاشل، وقد بدأ يتعافى في أحد مشافي كريتيل، وضابط آخر شاب برتبة عقيد مصاب بسرطان في الكلى اسمه أموقران وهو يتداوى في مشفى ڤال ـ دي ـ غراس العسكري. لم تطل زيارتي لهذا العقيد، فهو لايستطيع الكلام وأنبوب في أحشائه، وأنا أراه لأوّل مرة، ولا أعرف ماذا أقول له. حييته، وقدّمت له كتاباً وبقيت نحو خمس دقائق إلى جانب سريره، وعيناي مطأطئتان، ثم غادرت المشفى.

عدت إلى المغرب في ذلك الوقت لحضور الاحتفالات بذكرى ميلاد الملك في 9 تموز، وأنا أشارك فيها كما في كل عام، وأحمل هداياي كما جرت العادة. عرضت عليّ للّا لطيفة زوجة الحسن الثاني مرافقة العائلة المالكة إلى فرنسا، ووافقت بحماسة. لكن أوفقير كان له رأي آخر، فهو يرفض أن أتغيب من جديد، وفي المساء نفسه لامني على موافقتي قائلاً:

ـ هل أنت مجنونة؟ قضيت في باريس أربعة أشهر؛ لم يرك أولادك طوال تلك المدة وماتكادين تصلين منها حتى تعودي إليها. لايمكنك التغيب الآن. ستقولين لها إنَّ سفرك غير ممكن!

ـ ستقول لها هذا بنفسك.

ذهب أوفقير يشرح للحسن الثاني أن زوجته لن تصحب للّا لطيفة في رحلتها لأنها مشغولة بالأولاد والمنزل.

استاء أهل القصر من هذا الرفض الجاف، وارتكبت من جهتي هفوة، ففي اللحظة التي كان الحسن الثاني يتهيّأ للإقلاع إلى فرنسا، حضرت لوداعه كما جرت العادة قبل سفره. عندما يتغيب الملك ترتدي جميع نساء البلاط ثياباً بسيطة رصينة، من الحرير بشكل عام، دون تزيُّن أو حُلّي. فبما أن المعلم سيتغيّب فمن غير الوارد إظهار الجمال أو السعي لكسب الإعجاب... لكنني كنت مدعوة إلى حفل عرس بعد الظهر، وحضرت لوداع جلالته في منتهى الأناقة، وحلي الألماس تبرق في زينتي، وثوبي يضجّ بألوان زاهية صاخبة... لم يَقُل شيئاً، لكنه التفت نحوي وقد بدا عليه الحنق. هل تولّد لديه انطباع بأنني تقصّدت الحضور بهذا الهندام استخفافاً به؟ مع ذلك لن أوقف مجرى حياتي لأنه ذاهب في رحلة! كان من الأفضل أن أشرح له السبب ليبطُلَ التعليل الخاطئ، لكن لم تسنح لي الفرصة...

لم أره بعد ذلك أبداً. حدث هذا عشية الأحداث. بعدها ظنّ بعضهم البراعة في إجراء المقاربات: إذا كنت قد رفضت السفر مع الأسرة المالكة، وإذا كنت قد حضرت لوداع الملك في هندام مبهرج خلافاً للمألوف، فذلك لأنني أعرف ما يُحاك. وددت لو صحّ لي ذلك، لكنت ما وقعت في الفخ كأرنب أبله. فأنا قد خُدعت كالملك. أوفقير لم يقل لي شيئاً: قضى معي خمسة أيام قبل محاولة الاعتداء على الطائرة، ولم يذكر لي شيئاً عما يُعَدُّ.

* * *

في يوم الأربعاء 16 آب 1972 كنت في «قبيلة» وهي محطة استحمام صغيرة شمال المغرب ومعي أولادي، باستثناء مليكة التي فضّلت البقاء في الدار البيضاء للتحضير للدورة الثانية من الشهادة الثانوية بعد

حادث السيارة الذي أصابها. عدت عند العصر من الحمام المغربي فوجدت جمهرة من الناس أمام الشاليه الصغيرة التي نقطنها، وسمعت تمتمات:

ـ شيء ما يحدث في الرباط؛ فطائرة الملك قد قصفت...

سرعان ما امتلأت صالتي بالناس الذين جاؤوا يتقصّون الأخبار. لاشيء واضح. من ارتكب الاعتداء؟ ما هو مصير الملك؟ من يمسك مقاليد السلطة؟ نحو الساعة العشرين بدأت الإذاعة تعطي نُبَذاً من الأخبار... الحسن الثاني سليم معافى. حتى تلك الساعة لم أكن أعلم أن أوفقير متّهم في هذه المؤامرة الجديدة... وأخذ الأكثر حذراً من زوّارنا ينسحبون، ولم يبقَ في الشاليه إلا بعض الأصدقاء الخُلَّص؛ وأنا منذهلة أتابع هذه الأحداث كمُشاهدة، وكأنها لاتعنيني. في الساعة الحادية والعشرين اتصل بي أوفقير هاتفياً، وحاول أن يطمئنني. من المؤكّد أن الأمور ستعود إلى نصابها، لكنني مازلت أجهل أيَّ نِصابٍ يعني... فأنا غريبة كلّياً عن الموضوع، عاجزة عن إعطاء أيٍّ رأي أوْ اتخاذ أي قرار.

نحو الساعة الثانية والعشرين حضر بعض الأصدقاء الإسبانيين لزيارتي. كان البحر المتوسط في هيجان ذلك المساء، كأنه أراد أن يشارك في كآبة المصير الذي ينتظرنا؛ وقال لي أحد هؤلاء الأصدقاء:

ـ اقبلي نصيحتي. المركب هنا. تأخذين الأولاد وتذهبين معنا لنتوّجه إلى سبتة(*)، وهي مدينة إسبانية على بعد سبعة عشر كيلومتراً من هنا. تقضون الليل معنا هناك، وإذا جرى كل شيء على مايرام، يمكن العودة غدّاً...

ـ كلا، لا أرى سبباً يُوجب عليّ الرحيل.

لم يتمكّن صديقي الزائر من التحدّث بشكل صريح أمام أشخاص لايعرفهم، لكنه ثبّت نظره بي وكرّر النصيحة بإلحاح:

ـ من الأفضل الذهاب، يا فاطمة، وسنعود غداً...

(*) سبتة Ceuta: مرفأ حر على الساحل الأفريقي من البحر المتوسط، تُعَدُّ مع مليلة مدينتين إسبانيتين رغم وجودهما على الساحل المغربي، وما فتئت المغرب تطالب بهما.

لم أدرك ما يحاول أن يقوله لي، ورفضت مغادرة المغرب. لم أتوصل إلى تكوين فكرة واضحة عن الوضع؛ ولم أتوصل إلى مهاتفة أحد؛ ما أهمية ذلك؟ وضعت طفلي الصغير في السرير إلى جانبي ونمت.

نحو الساعة الثامنة صباحاً، دخل السائق يوقظني:

ـ سيدتي، سيدتي...

ـ ما الأمر؟

ـ سيدتي، الجنرال...

ـ ما للجنرال؟

ـ مات الجنرال.

نهضت بهدوء، حاولت أن أستوعب ما يُعلَن أمامي. لكنني لم أتوصل إلى فكرة متماسكة؛ وقال السائق يستعجلني:

ـ يجب العودة إلى الرباط.

ناديت مستخدمي المنزل وطلبت منهم أن يجمعوا كل شيء وانطلقنا. شكّلنا، أنا والأولاد، وبعض الأصدقاء، والخدم، والأمتعة قافلة من ثلاث سيارات أو أربع. استقل الأولاد سيارة يقودها السائق؛ وقادت إحدى صديقاتي، ماما قسوس سيارتي. توقّفنا في محطة محروقات على الطريق: تولّد لدي انطباع بأن نظرة الناس إلينا لم تعد هي نفسها، كما اختلفت طريقتهم في تحيتنا... اتصلت بمليكة هاتفياً. كانت ماتزال نائمة:

ـ آلو، مات والدك.

صدرت عنها صيحة ألم ونحيب. أضفت قبل أن أغلق الخط:

ـ سأراك في الرباط، إلى اللقاء.

أيّة قسوة انتابتني؟ لا أعرف. انسطلت(*). لم أعد أتحكّم بأفكاري أو بكلماتي. قضينا ثلاث ساعات في طريقنا إلى العاصمة؛ ثلاث

(*) انسطل: دُهش وبهت (عاميّة).

ساعات لاتطاق. حاولت أن أسمع الأخبار من جهاز الراديو في السيارة، لكن الإذاعة المغربية تبثُّ آيات قرآنية فقط، والمحطّات الإسبانية تعزف موسيقى كلاسيكية. لم أتوصل إلى استيعاب ما يجري. لم أسمع من أيّة إذاعة نبأ موت أوفقير. تولّد لديّ بعض الأمل... شعور غريب وغير واقعي: أتوجّه إلى الرباط وأنا أعلم باختفاء زوجي، لكنني غير مقتنعة بالحقيقة.

أجهل السبب الذي دبَّ الذعر في نفسي طوال الطريق. كنت أجفل في كل مرة تميل فيها السيارة عند منعرج؛ ويخيل إليّ أننا سننزلق وبدا لي أن السيارة تجري على قطع من صابون... سيطر عليّ شعور بعدم الأمان.

عندما وصلت إلى الرباط وجدت جمهرة من الناس تنتظرني أمام المنزل. جمهرة صغيرة... فكرت بالمثل المغربي السائر: «عند موت أَمَةِ القاضي حضرت كل القبيلة، وعندما مات القاضي لم يحضر أحد». لو أن أحد خَدَمنا مات في فترة قوة أوفقير وسيطرته لمَشَت الرباط كلها لتقدم لنا التعازي. لكن أوفقير هو المختفي، والأيام القادمة غير موثوقة، مما جعل كثيرين يترددون في الحضور. بالرغم من ذلك وُجِدَ بعض الأصدقاء، ورئيس الوزراء، وأعضاءُ الحكومة. كانوا يرددون جميعاً الرواية الرسمية للحدث: انتحر أوفقير «بدافع الوفاء» ولم يتطرَّق أحد مباشرة إلى محاولة الاعتداء على حياة الملك. عادت الأمور إلى نصابها، فلا داعي للتحدث عنها.

بيد أن كل شيء كاد يهوي في العشية. عَلمتُ فيما بعد أن الطائرة الملكية الخاصة «بوينغ 727» القادمة من باريس، طوردت في الجو من قبل سرب من طائرات سلاح الجو المغربي F5 يقودها العقيد أموقران الضابط الذي سبق أن زرته في مشفى ڤال - دي - غراس في باريس قبل عدة أسابيع. فقد كُلف الطيارون العسكريون بمهمة مواكبة الطائرة الملكية وإجبارها على الهبوط في القنيطرة(*)، حيث ينتظرها أوفقير

(*) القنيطرة: مدينة شمال الرباط تحوي قاعدة ومطار عسكري وهي على بعد 29 كم عن العاصمة.

وأركان حرب المتمردين. لكن طيار الملك اعتبرها مغامرة حياة أو موت، وتوجه، تخلصاً من مهاجميه، بأقصى سرعة إلى مطار الرباط ـ سلّا. اقترب المطاردون آنذاك من الطائرة، وأطلقوا عليها طلقات إنذار بذخيرة خُلّبية، مما لم يمنع الطائرة من الهبوط دون عائق. وعندها فقط ـ وبعد أن غدت على الأرض ـ أطلقت المطاردات Fs على الهيكل نيران رصاص حقيقي من الرشاشات، آخر محاولة لمعركة تحققوا من خسارتها. وكانت نتيجة تلك المغامرة الطائشة: عشرة قتلى وخمسة وأربعين جريحاً.

وفقاً لما علمته ـ وهي معلومات لم تردني من أوفقير لأنه لم يطلعني على شيء ـ كان هدف العملية إنزال الطائرة في القنيطرة، وإلقاء القبض على الحسن الثاني، وحبسه مع نسائه في أحد قصوره، وتشكيل مجلس وصاية على العرش بانتظار بلوغ ولي العهد محمد السادس سن الرشد.

لم يكن زوجي يسعى لتقويض الملكية. أراد إقصاء الحسن الثاني، وخلق الشروط الملائمة لتنصيب ولي العهد على العرش فيما بعد. لم يفكّر بنظام عسكري، كما زُعم أحياناً؛ فقد تبينّ في عموم أفريقيا ما وصلت إليه حالة بعض بلدانها من سوء، نتيجة إقامة العسكر لنظام دكتاتوري. أمّا أنا فيتملكني الرعب من الأنظمة العسكرية، رغم أنني ولدت في ثكنة. يجب أن يكون الجيش قوياً ضامناً للمؤسسات والقوانين، إنّما دون تدخل في السياسة.

كما أن أوفقير لم يرد مصادرة السلطة لنفسه؛ فهو على كل حال حاصل عليها، وقد جمع تحت سيطرته الجيش والشرطة، فماذا يرجو أكثر من ذلك؟ وبالمقابل فإنّ من كانوا حوله أرادوا فرض سيطرتهم على البلاد. كانوا يأملون إيصال الجنرال إلى أعلى مناصب الدولة، مصممين على إزاحة هذا المزعج فيما بعد، ليسودوا دون مشاركة وليؤمنوا مصالحهم الخاصة.

جميع هذه الطغمة من الوصوليين كانوا يدفعون أوفقير للخلاص من النظام الملكي، لكنه رفض أن يساير حيلهم، وإذا كان قد رضي بمحاولة خوض تجربة الوصاية؛ فإنه لم يُرد أبداً اغتيال العاهل؛ ولكن كم أعقب تلك المحاولة من أقوال وكتابات تتهم أوفقير بالعمل على قتل

الملك؟ اتهام سخيف: فلو أراد موت الحسن الثاني لتصرَّف بشكل آخر، فقد حضر جلالته خمس مرات أو ستّاً بمفرده إلى منزلنا، دون وجود أصدقاء، أو خدم أو حُرّاس؛ بل كنا في جلسة عائلية: الملك وزوجي وأنا وابني وابنتي... كلّ شيء كان ممكناً. توافرت لأوفقير ألف فرصة للقضاء على العاهل بطريقة أكثر سهولة، وسرعة، وسريّة؛ وأقل خطراً من مهاجمة طائرة في أعالي الجو وتعريض حياة سبعين راكباً على متنها للخطر! المغرب ليس أفريقيا الغربية حيث يمكن اغتيال رئيس الدولة، وقتل عدد من المدنيين بلا مبالاة بل بمرح دون اعتراض أحد. إنّما حضارتنا، وماضينا، وثقافتنا تعارض ذلك؛ وقد تمّ تأهيل الضباط المغاربة من قبل جيش عريق متقيّد بمبادئ وتقاليد، ولايمكن لانقلاب أن ينجح على حساب دم الأبرياء.

في الصخيرات في العام 1971؛ كما في العام التالي، في أعلى الجو، طغى على الضباط، المخططين للعصيان، حماسة تابعيهم: جنود شبان، دون خبرة سياسية، ثائرين أو طامحين. فشل الانقلابان بعد أن لوّثهما غير الأكفاء بالدم. عندما أحسَّ العقيد أموقران أن الانقلاب قد فشل أخذ يطلق النار على الطائرة جزافاً، دون أن يهتم بمصير الركاب الذين اعتبرهم من الزمرة الفاسدة التي كوّنت ثرواتها على حساب الشعب المغربي.

أنا أرفض زعم المدّعين بأن أوفقير أطلق النار على الطائرة الملكية. لم يكن غبياً أو أحمق، بل هو رجل عاقل جداً، بعيد النظر، ذو دم بارد ولايمكن أن يرتكب مثل هذا الخطأ الشنيع.

لم يعرف أحد حقيقة ما جرى في ذلك اليوم. من جهتي ينتابني يقين بأن دوائر الاستخبارات الغربيّة مدّت يد المساعدة لتلك العملية... كلّهم متورطون فيها حتى ولو تعنّتوا في الإنكار بعد فشلها، والحسن الثاني ليس غرّاً: فبعد فترة من تلك المحاولة، وكإجراء انتقامي، طرد من البلاد البقية الباقية من الفرنسيين الذين مازالوا يمتلكون مزارع فيها.

لن تُعَرف أبداً الكلمة الأخيرة في تلك القضية؛ فأوفقير لم يبح بسرّه للجيش كلّه. بعض ضباط من المراتب العليا فقط عرفوا، على الأرجح، ترتيباته: أُوقفوا جميعاً، ومنعت المقابلات عنهم، وأعدموا.

لزم الصمت من بقي على قيد الحياة منهم، فنظام الإرهاب الذي هيمن على المغرب بعد ذلك حقق الانتصار للرواية الرسمية وحدها، وأخرس الشهود الأخيرين. فلم يعد أحد يجسر، حتى بين الأصدقاء الخلّص، أو في المنزل، وفي قلب العائلة على أن يتحدّث في السياسة. فالارتياب والخوف نشرا على البلاد ستاراً من رصاص.

مساء يوم الاعتداء على الطائرة، توجّه أوفقير إلى قصر الصخيرات نحو منتصف الليل مدعوّاً إليه. كان يعرف أنه ذاهب إلى موت محتّم. وواجه خصومه بجرأة وإباء.

قصّ علينا السائق الذي أوصله إلى القصر ماجرى. كان أحمد دليمي ينتظره عند الباب وعانقه ليتأكّد أنه لايُخفي مسدّساً، وبالطبع لم يكن أوفقير وهو الذاهب إلى الموت يحمل أي سلاح. صحبه دليمي إلى قاعة وُجِد فيها الحسن الثاني، وعبد الحفيظ العلوي، وريمون ساسيّا الحارس الشخصي السابق للجنرال ديغول، الذي كان يؤمّن الحراسة الشخصية للملك في حينه. قتل زوجي تحت بصر الملك بتواطؤ فعّال من هذين الشخصين الشريرين: دليمي والعلوي.

كان الجنرال عبد الحفيظ العلوي مدير المراسم ووزير القصر الملكي خلال أكثر من ثلاثين عاماً، وقام طوال تلك المدة بالسرقة والنهب والكذب. إنه وحش! وهو الكائن الوحيد الذي أحقد عليه، ولا أكنّ له أي احترام، حتى ولا الاحترام الواجب علينا، الآن، للأموات؛ مع أنني شديدة الإيمان والقرآن يطلب منا ألا نذكر بسوء موتانا؛ لكنني مع هذا الرجل لا أتمكّن من الالتزام بذلك. فالجنرال العلوي لم يكن عدوّاً للملك فقط، إنما هو عدوّ للبلاد كلّها. ألم يقل للفرنسيين سابقاً إن على السلطان مغادرة المغرب نهائياً وإلى غير رجعة؟ جميع الناس يعرفون ذلك، وقد وجب أن يكون ذلك كافياً لإقصائه. لكنه ساحر ماهر الحيلة؛ وكل ملك، كل رئيس دولة يحتاج إلى روح شريرة قادرة على أن تتمثل وجدانه السيّء، وبإمكانها أن تنوب عنه في القيام بالأعمال المنحطّة دون أن يحتاج لطلب ذلك منها. رجل مأجور ماهر يسبق فكر معلمه. كل

الجانب القاتم في عهد الحسن الثاني يتشخّص في هذا الكائن المؤذي؛ فالفساد، والتوقيفات التعسفية، والإعدام دون محاكمة، وسجون الصحراء تعود إليه كلّها.

منح الحسن الثاني لهذا الكائن القذر ثقته؛ لاحظتُ تصرفات هذا الطفيلي السافل الذي يرى كل الفرص جيّدة ليقوم بأعمال النشل والاختلاس، فعندما وضع الملك بين يديه بعض الأموال ليوزعها صدقات في مكة، لم ينل الفقراء منها إلا جزءاً صغيراً جداً واختفى الباقي في جيبه. لقد ترك عند موته، في كانون أول 1990 ، ثروة ضخمة حتى أن الملك نفسه عندما علم إلى أيّة درجة استطاع هذا الرجل أن يغتني، وضع رأسه بين يديه، على ماقيل لي، وكاد أن يبكي... سرق العلوي واختلس، بل وكَشَط صناديق الدولة خلال عقود عديدة ليمتلك كل هذه المليارات.

يعلم العلوي أنني مطّلعة على كثير من الأشياء المتعلقة به، وأنني لم أتردّد عن ذمّه علانية، وقد أبدى لي الكره، وضَرِيَ لتدميري، وعندما سُجِنّا بعد موت أوفقير، كان جلّادونا يقولون لنا:

ـ لن يخرجكم موت الحسن الثاني من هنا، فهناك شخص آخر يريد لكم الأذى أكثر من الملك، وهو عبد الحفيظ العلوي.

أمّا أحمد دليمي فكان دسّاساً، وهو مدين لأوفقير بكل شيء، لكنه كان متضايقاً من دوره الثانوي كمرؤوس، وفي عهد محمد الخامس أُبعد دليمي عن البلاط لأن الملك كان يحتقره لتصرّفه بنذالة مع ابنة وزير الداخلية في تلك الحقبة. كان خطيباً للآنسة ووقع في غرام أخرى قبل أسبوع واحد فقط من العرس. ولكي يتخلص من الأولى ابتكر خدعة مثيرة للاشمئزاز؛ فغداة يوم عرسه ذهب إلى والد العروس الشابة وصرّح له بكل برود.

ـ لم أجد ابنتك بكراً.

وهذا بالطبع سبب للطلاق بالنسبة للزوج، وعار على العروس، وفضيحة للعائلة؛ ولم يصفح محمد الخامس أبداً عن موقف دليمي المخزي.

بعد موت الملك، جاءت زوجة دليمي، التي نجح في الزواج منها

بعد أن طرد الأولى، ورجتني أن أتوسط لزوجها ليعمل عند أوفقير... وكنت حمقاء في استجابتي لطلبها. وسرعان ما غدا دليمي الذراع الأيمن لأوفقير ومدير الأمن؛ واعتَبرتُ زوجتَه صديقة لي لكنني بالنسبة إليها كنت منافسة.

في مقال ظهر في دوريّة *أفريقيا الفتيّة*، أورد الصحافي حميد برّادة حديثاً، الرأيَ الذي كتبه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير صحيفة *الأهرام* المصرية اليوم: «كان أوفقير كلباً، ومات مثل كلبٍ» كلا، لم يمت أوفقير مثل كلب، بل مات مثل رجل، ذهب إلى مصيره وهو يعلم ماذا ينتظره. لكن هذا المحرّر الحقود لايمكنه أن يعبّر إلا هكذا. فقد قابل أوفقير في شروط مخزية تقريباً بالنسبة له... في العام 1963 كان العقيد ناصر يحبك المؤامرات لزعزعة المغرب والعمل على انتصار الوحدة العربية؛ وأوقف أوفقير المصريين الذين جاؤوا يزرعون القلاقل، وكان يرافقهم صحافيون، ومن هؤلاء هيكل الذي انتابه الذعر عندما وجد نفسه في مواجهة الجنرال... ومافتئ منذ ذلك الحين يهاجم «الكلب» الذي رآه مذعوراً خائر العزيمة، متهماً إياه بالتعذيب والساديّة.

سأل الصحافي ستيفن سميث، المحرّر في «ليبراسيون»، يوماً إبراهيم صرفاتي، المعارض العنيد للنظام في ذلك العهد، إن كان أوفقير قد عذّبه خلال التحقيق، أو عندما كان في السجن وانطلق الجواب تلقائياً:

ـ كلا، أبداً.

هذه الشهادة من ألد أعداء النظام تساوي ثقلها ذهباً.

لم يكن أوفقير كلباً، لكنه رجل أبيٌّ. لم يكن ملاكاً بالتأكيد،وكان له خصوم حاربهم. لكن كل مافعله كان لخير الملكية في المغرب، وليس لمصالحه الشخصية. حتى في بلاد مثل فرنسا لايحظى وزير الداخلية بإعجاب أو صداقة جميع الناس؛ وهذا صحيح بالأحرى، في نظام شمولي حيث للملك شبه حقّ على حياة وموت رعاياه؛ ويمكن للسلطة أن تختطف مواطناً وتضربه حتى الموت وتدّعي بعد ذلك أنه قضى نتيجة

حادث أو سكتة قلبيّة... ومن يجرؤ على رفع قضية ضد العاهل، أو الوزير، أو حتى ضد شرطي؟

قيل عن موت أوفقير «انتحار بدافع الوفاء». صدقت ذلك في البدء. فقد كان متضايقاً طوال تلك السنة! وربّما أراد أوفقير، فعلاً، أن ينهي حياته بعد أن شبع منها وارتوى. وأذكر الأيام الأربعة التي قضاها معنا في قبيلة قبل موته، فقد بدا حقّاً بسلوك غير مألوف: كان يُمضي ساعات كاملة جالساً بمفرده على الرمل في مواجهة البحر يتأمّل شروق الشمس في الأفق الشرقي. وعندما ترك أولاده، وهو الذي لايكشف كثيراً عن شعوره، تأمّلهم طويلاً وقبلهم بفيضٍ من الحب... بدا وكأنه يودّع كل شيء.

* * *

ما كدت أصل إلى منزلي، عند وصولي من قبيلة، حتى هرعت إحدى صديقاتي تقبلني وتضمّني بين ذراعيها، وهي تهمس:

ـ إنّهم بانتظارك لإغلاق النعش.

في العشيّة لُفَّ الجثمان في بطانيّة وألقي في شاحنة صغيرة سارت به حتى مدخل الرباط حيث استدعي أبي على عجل، فحضر في الهزيع الأخير من الليل ليستلم الجثة. كان النعش موضوعاً عند وصولي في الصالة السينمائية الملحقة بمنزلنا؛ والجو لايُطاق. النادبات يُعولن ناحبات وعدد من رجال الدين يرتلون آيات من القرآن الكريم. لم أقتنع كثيراً بما يفعلون، وانحنيت أقبل الجثمان، وبدرت مني صيحة:

ـ ياإلهي، إنه بارد.

كان وجهه شديد البرودة... نظرت إليه بحدة، رأيت ثقباً في صدغه الأيسر... وبدأ كل شيء يغلي في رأسي. ثقب في الجهة اليسرى... لم يكن أعسر؛ وبقليل من الصواب، الذي بقي لي في تلك اللحظات غير المحتملة، بدأت أدرك الحقيقة.

بقيت إلى جانبه أبكي، ويداي موضوعتان فوق جسمه. عيناه

مغمضتان، وحاجباه مقطبان، وملامحه قاسية كعادته؛ ولاتبدو على وجهه أيّة علامة طمأنينة. بقيت منذهلة من هذا الثقب في الصدغ الأيسر. أُخرجت من هناك، وسُحبت إلى غرفتي. اقتُرِحَ علي زرقة مهدئة:

ـ أبداً، لاأريد مهدئاً، ولازرقة.

أريد أن أعيش مأساتي وقدري حتى النهاية.

خرجت من الغرفة، وأغلق التابوت الذي يجب الرحيل به في اليوم التالي إلى الجنوب. أردت أن يُدفَن في الرباط، لكنني بُلِّغت أن الملك يعارض ذلك قطعاً. كما أن أوفقير عبّر أمامي سابقاً بأنه يرغب في أن يُوارى الثرى عند موته بأبسط طريقة ممكنة، فيلَف جثمانه بقطعة رخيصة الثمن من القماش ويوضع مباشرة في حفرة كالفقراء البائسين. كانت هذه أمينته العزيزة، وغالباً ما كان يقول لي:

ـ عندما أموت، أحب أن أدفن في ظلّ نخلة، لا أريد فوقي رخاماً ولانحتاً، لاشيء إلا التراب..

غير أنه مات في شهر آب ويجب نقل الجثمان بالطائرة إلى مسافة سبعمئة كيلومتر؛ ومن الضروري وضعه في تابوت؛ إجراءٌ اضطراري خلاف إرادته.

لم أحضر الدفن، ورافق ابني رؤوف موكب التشييع. عندما أفكر بذلك بعد ثمانية وعشرين عاماً، أحسُّ بغصة في حلقي. كان رؤوف في الثالثة عشرة والنصف من عمره، وقام بترتيبات المأتم مع بعض أصدقاء العائلة الذين برهنوا في تلك الظروف عن جرأة حقيقيّة. حضر المأتم والدفن مفوّضا الشرطة حميد بن عابس، وحميد الطيب وكلّفهما ذلك خسارة وظيفتهما، فقد طُردا من الشرطة وعمل الأوّل في السياحة بينما افتتح الثاني مكتبة.

دفن أوفقير إلى جانب أبيه، وهو رجل كان يُعَدُّ سابقاً بمثابة وليٍّ في المنطقة، لما تميز به من طيبة مثاليّة، وشهامة كبيرة، وإيمان كامل. وقد بنى له أبناء ديرته مدفناً من الطوب والكلس، ومنذ أن وُجد ابنه إلى جانبه انهارَ هذا الضريح ثلاث مرات، كأنَّ أوفقير يرفض أن يستريح تحت هذا المدفن.

اتصل بي الأنسباء أخيراً يسألونني عما يجب فعله. أجبت بإبقاء كل شيء على حاله فهو يرفض الرقاد تحت قبّة من حجر فلماذا نصرُّ على إقامتها.

كلّف أخ أوفقير طبيباً فرنسياً، هو المدير السابق لمشفى ابن سينا بفحص الجثة. كان تقرير ذلك الطبيب دامغاً: «قُتِلَ الجنرال أوفقير بخمس رصاصات، واحدة في الكبد وواحدة في القلب، والثالثة في التَرقُوَة(*)، والرابعة في الذراع الأيمن، ورصاصة الرحمة في الصدغ الأيسر». انهار موضوع الانتحار نهائياً.

بعد موت أوفقير بيومين ـ وقبل الرحيل بجثمانه ليدفن في الجنوب ـ زارني مدير الشرطة العام. كنت أعرفه سابقاً، طفيلي، كان يبقى في منزلنا إلى ساعة متأخرة من الليل، يضحك، ويروي الفكاهات... استقبلته على مصطبة الدار باكية، ولم أستطع التوقّف عن النحيب، كانت وذمة قد تشكّلت تحت جفني لكثرة ما ذرفت من الدموع... أمسكت بيديه وأنا أنتحب، وتمتمت قائلة له:

ـ لقد قتلوه.

لاحظت بريقاً يتقد في عينيه، شرارة، كأنه تلقّى شيئاً سينقذ وضعه الخاص...هذا الصديق القديم كان مستعداً للخيانة والوشاية للاحتفاظ بمنصبه. فذهب ينقل عباراتي للملك بعد أن زوّقها وحرّف فيها قليلاً.

ـ إنّها تقول بأنك قتلت زوجها.

لم أكن أعلم بما أفكر، ولم أفكر بشيء. لكنني لاحظت جيّداً أن النظرات والتصرفات قد اختلفت من حولي. حتى خدم المنزل انتابهم الذعر وبدؤوا يتخلون عنا. كان لدينا اثنان وعشرون مستخدماً: طبّاخون، وخادمات، ونُدُل، وجنائنيون، ومربيّات أطفال؛ وهم يتلقون

(*) الترقوة Clavicule: عظم طويل معوجٌ كحرف (ر) ممتد عرضاً من قبضة القصّ إلى الكتف. (عن معجم العلوم الطبية «لخاطر وخياط»).

أجورهم من الخزينة الحكومية؛ ومع مرور الساعات والأيام رحل نصفهم.

لم ينقطع بعض الأصدقاء عن زيارتي، مترددين حيارى أحياناً، يحاولون استكشاف مهابّ الرياح التي ستجري حولنا، وفي أي جانب سيقفون. وأنا أكاد لا أشعر بما يجري حولي، غارقة في مصيبتي، شاردة الفكر، أرزح في همومي، عاجزة عن فهم ما حدث. أشعر فوق أحزاني بمصير ستة أولاد يثقل على كتفيّ، وحدَّثني قلبي بأن المأساة لم تنته، وأن موت أوفقير ليس إلا بداية الفاجعة.

VII

عاصفة الغضب

بعد ثلاثة أيام من الاعتداء على الطائرة الملكية، توجّه الملك يوم السبت 19 آب (أوغسطس) 1972 بخطاب إلى ضباط الجيش أعلن فيه أن أوفقير هو المسؤول عن الانقلاب الفاشل... وقامت بدلاً من صيغة «انتحار الوفاء» مقولة «انتحار الخيانة». في مساء اليوم التالي حضر إلى منزلنا مدير الشرطة، متسلطاً، متجهّم الوجه. بين ليلة وضحاها غيّر بشكل جذري موقفه ونظرته. هذه هي صروف الدهر: وحدهم أولئك الذين عانوا من تقلباتها يعرفون ما تكنّه النفس الإنسانية في أعماقها.

أعطى مدير الشرطة أوامره: طوّق رجاله البيت فغدا معسكراً معزولاً؛ لاأحد يستطيع الدخول إليه. غادره آخر الزوّار، وهجره آخر الخدم. بدأ النهب: حمل أصدقاء الأمس معهم الأواني، والملابس، والطنافس... لم يبق إلى جانبنا غير مربيتي، وبعض أبناء أخوة أوفقير، وسالم العياشي وحوريّة أوبيجا صديقا العائلة، وابنة عمي عاشورا، وآن براون مدرّسة اللغة الإنكليزية، وأخت الممرضة، وطاهٍ كان يردّد على مسمعي:

- إن رحلتمْ سأرحل معكم؛ وإن متّم سأموت معكم.

فُرضت علينا الإقامة الجبرية في المنزل، وبدأت معي تحقيقات لانهاية لها... حضر مفوّض شرطة خلال اثنتي عشرة ليلة متتالية، يوجّه إليّ الأسئلة بعناد، وبكل برودة أعصاب من الساعة الثامنة مساءً

حتى مطلع الفجر. لم يكن عدوانياً، لكنه أمرُ من ذلك، فهو يداور ويناور ليعود إلى النقاط نفسها ألف مرّة، وعلى ذات الوتيرة. إلى أن أملّ وأجيب كيفما اتفق. يريد أن يعرف أين ودائعي الثمينة وأموالي... هذا ما يهمّه خاصة.

غير أن فرَق تحري دليمي وضعوا اليد بعد ذلك على كل ما أملك. لم أعثر على شيء. اختفى الأثاث، والحلي، واللوحات. بل إن أوفقير قبل أن يذهب ليواجه الموت في قصر الصخيرات عهد إلى عُمَر عاقوري زوج إحدى بنات أخيه بمجوهرات ودراهم ليسلمها لي... ومن أجل الاستيلاء على هذه الوديعة، غُيّب العاقوري مدة سبعة عشر شهراً في سجون سريّة؛ وعومل محامينا رضا غُديرة، وهو مستشار سابق للملك، ويحتفظ بوثائق ملكيتنا لقطعة أرض في مراكش، بالطريقة نفسها. وقد بيعت هذه المُلكيّة وبُدِّدت أثمانها؛ دون أن نعلم لمصلحة من.

استمر مفوض الشرطة في تحقيقاته معي، وأثناء طرح الأسئلة عن ثروتنا المفترضة، يسرّب تساؤلات سياسيّة: لماذا قمت في شهر تموز بزيارة للعقيد أموقران أثناء وجوده في أحد مشافي باريس؟ تمّ هذا بناء على طلب زوجي، وباعتباري زوجة وزير الدفاع. لكن هذا التعليل لم يرض الشرطة، واستمرّ يكرّر أسئلته طوال الليل:

ـ لماذا ذهبت لرؤية ذلك الضابط؟ وماذا قلت له؟ وماذا قال لك؟

* * *

بعد الاعتداء على الطائرة الملكية، هرب أموقران على متن طوّافة (هليكوبتر) ولجأ إلى جبل طارق(*). وكان ذلك الموقع الصخري محاصراً بقسوة من قبل إسبانيا في عهد فرانكو ويتزوّد بالمؤن

(*) جبل طارق: Gibraltar شبه جزيرة صخرية جنوبي إسبانيا عند المضيق الفاصل بين إسبانيا والمغرب، وبين قارتي أوروبا وأفريقيا الذي يصل المتوسط بالأطلسي بعرض 14 كم. مساحة الجبل 6 كم^2، وتقوم عليه مدينة محصنة يفوق عدد سكانها 30000 نسمة، احتلها الانكليز في العام 1704 وأنشؤوا فيها قاعدة بحرية وجوية هامّة؛ ومافتئت إسبانيا تطالب باستعادة هذه المنطقة وتعدُّها جزءاً من أراضيها. ـ المترجم.

خاصة من المغرب، ولم يستطع الإنكليز مقاومة ضغوط الملك فسلّموا اللاجئ المريض لقاء استمرار تصدير الفواكه والبقول لقاعدتهم البحرية.

في شهر تشرين الثاني، وبعد دعوى جزائية انتهت بسرعة وقضت بحكم الإعدام على أحد عشر شخصاً، نُفّذ الحكم على أموقران ورفاقه رمياً بالرصاص في «ليلة القدر».

زُعِم أن أموقران قبل وفاته أدلى باعترافات منها: إنني عند زيارتي له في مشفى ڤال ـ دي ـ غراس قلت: يجب ألا يبقى الحسن الثاني على العرش... كيف يمكن أن أنطق بهذه الكلمات أمام رجل لاأعرفه؟

عندما أُرسلنا فيما بعد إلى معسكر الاعتقال في الجنوب، وجّه إليّ أحد أفراد الشرطة الكلام عبر الجدار الذي كان يفصلنا عن العالم. إنه أحد حراس أموقران في سجن القنيطرة، وقد كلّفه العقيد المحكوم عليه بالموت برسالة أخيرة... من وراء القبر طلب أموقران مني الصفح عنه. ابتزّه الجنرال عبد الحفيظ العلوي بشكل سافل: ذكر له أن بإمكانه أن ينجو من حكم الإعدام وينقذ ضباطه وجنوده باتهام زوجة أوفقير. أغراه بالخدعة التالية:

ـ لن يقوم الملك بأيّ إجراء ضدها. ويمكنك أن تنقذ رجالك!

اغترَّ أموقران بتلك الوعود المضلّلة، فابتكر أمام المحققين محادثة جرت بيني وبينه... أكاذيب لاجدوى منها، لم تنقذ حياته ولاحياة تابعيه. وفي لحظته الأخيرة طلب من هذا الشرطي المجهول أن يطلب مني الصفح، لكن فات الوقت فَنَدمه لم يُجْدِني نفعاً.

* * *

خلال ليال كاملة تتكرّر الأسئلة دون انقطاع: لماذا ذهبت إلى باريس؟ لماذا التقيت مع أموقران؟ ماذا قلت له عن الملك؟

ثم ينتقل المحقق إلى شيء آخر فهو يريد أن يعرف ماذا فعلت ببزّة زوجي العسكرية. كانت قضية هذه البزة المثقبة بالرصاص ـ برهان القتل ـ تشغل إلى أبعد حدّ، مفوض الشرطة، ومن خلاله القصر. أجبت بأنني أحرقتها لأنّها وفي غمرة حرّ شهر آب تنشر رائحة لاتطاق.

لم يقتنع المحقّق وفتش المرجل، وعثر فعلاً على رماد بزّة عسكرية حرصت على حرقها إنّما غير تلك مدار البحث. فكرت فعلاً بإلقاء تلك البزة، الحقيقية في النار؛ غير أن صديقتي ماما قسوس ثنتني قائلة:

ـ كلا، من الخطأ إحراق هذه البزّة. بالعكس، احفظيها فهي دليل ضد من قتلوا زوجك.

خلال البلبلة والمأساة، كنت أفعل ما يقوله لي الأصدقاء الأكثر وعياً مني. وغسلت الخادمة البزّة من الدم الذي يلطّخها وجففتها في حجرة الحمّام. ثم غلّفتها ماما قسوس وزوجها عبد السلام في كيس من البلاستيك وحملاها معهما مؤكّدين:

ـ سنضعها في صندوق حديدي في أحد مصارف جبل طارق، حيث لايمكن لأي شخص أن يمدّ يده إليها.

لم تظهر تلك البزّة بعد ذلك مطلقاً. لاشك أنّها سُلّمت لبعض مأجوري الملك. هي مرة أخرى إضافية يُغدَر بي فيها.

في السجن، كنت أقول باستمرار لأولادي:

ـ إن فقدتموني قبل نوال حريتكم فإنّ لكم من ماما قسوس حليفة عزيزة جدّاً. كنت أعتبر آل قسوس أصدقاء حقيقيين، وقد اشتريت أسهماً في فندق كانوا يبنونه. وبعد عشرين سنة، أي عقب خروجي من السجن، أنكروا مساهمتي في الفندق... أعادوا لي المال الذي وظّفته عند إنشائه دون إعطائي أيّة فائدة عنه، بل إن ماما قسوس رشقتني بهذه العبارة القاسية:

ـ على كلّ حال، رغبنا في مشاركتك خلال تلك الفترة لأنّك زوجة أوفقير، وبإمكانك أن تؤمّني لنا رخصة إقامة كازينو في الفندق!

كلمات تجرح وتؤلم، خاصة عندما تصدر عن شخص أحببناه، وقدّرناه. لم أكن أتصوّر أن الناس يغيرون آراءهم وصداقاتهم وفقاً لمصالحهم.

* * *

خضعنا لمراقبة رجال الشرطة وتحقيقاتهم باستمرار، ومُنعنا من الخروج واستقبال الزائرين، لكننا لحسن الحظ وجدنا بسرعة وسيلة

لمراوغتهم: نخدّر حراسنا بالموغادون وهو منوّم نذيبه في الشاي، وهكذا يتمكّن أصدقاؤنا من الدخول لزيارتنا، يدخلون إلى المنزل خفية بالمرور عبر ممر ملعب الغولف المتاخم للحديقة... وبشيء من اللامبالاة ننتهز فرصة قضاء بضع ساعات لطيفة في تلك الأوقات العصيبة.

خضعنا للإقامة الجبرية في المنزل لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وهي فترة الحداد التي تقضي بها الشريعة الإسلامية على الزوجات. حاولت بعد ذلك أن أحافظ على مظهر حياة عادية: اشتريت شجيرة تنّوب وهدايا للأولاد كما في كل سنة تهيئة لنحتفل، بل حتى القصر كان يحتفل أيضاً، بعيد الميلاد.

في 23 كانون أوّل نحو الساعة السادسة عشرة حضر مدير الشرطة وأجال نظرة عابرة على كل مكان في المنزل ثم علّق بسخرية.

ـ من كان يظنُّ منذ عدة أشهر أن هذا المكان سيصل يوماً إلى هذه الحالة!

ـ هذه مشيئة الله. إن أراد الله أمراً فسيكون.

تظاهرت بالورع لأرتاح من الجَدَل، لكنني نظرت إليه نظرة ازدراء دفعته إلى أن يتخلّى مباشرة عن تهكّمه ويبدو بمظهر أكثر صرامة:

ـ أمامكم ساعتان لتهيئة حوائجكم وما يلزمكم من ملابس للشتاء والصيف...

ـ إلى أين سنذهب؟

وسرعان ما اقتحم أفراد الشرطة المنزل، وهم يرتدون ملابس سوداء والرشيشات في أيديهم... حتى ليخال أنّهم يهاجمون عصابة من الإرهابيين الخطرين.

انهمرت دموعي، شعرت أنني وحيدة، دون معين. أبي ليس معنا فقد كان في ذلك الوقت يخضع لمعالجة بالحَمَّة(*) في مولاي يعقوب، مركز مياه معدنية حارّة على بعد مئتي كيلومتر من الرباط... وما من وسيلة للاتصال به، فهاتفنا مقطوع الخطّ منذ زمن طويل. سنرحل إذن دون أن نتمكّن من وداعه.

(*) المعالجة بالحمّة: معالجة بالاستحمام في برك مياه معدنية حارّة طبيعية وتقتضي الإقامة لفترة من الوقت يعينها الأطباء في مواقع تلك المياه ـ المترجم.

دبّ الرعب في نفوسنا والأسلحة مصوّبة نحونا، وخشينا في كل لحظة من أن يبدأ أفراد الشرطة بإطلاق النار. هرعنا نكوّم ما نحتاج إليه في الحقائب. ساعتان إنّهما فترة لاتكفي للإحساس بأن حياتنا تتفكّك. أعددنا حقائب عديدة تراكمت فيها الملابس الأنيقة التي أحضرناها من باريس في العام الماضي، وبعض الأغطية، وجهاز راديو، وشبكة هاي ـ فاي(*). جمعت في صندوق كبير ما وقع تحت يدي من كتب. إذ سيبقى لي على الأقل مجال القراءة.

صرّح مدير الشرطة:

ـ يسمح جلالة الملك أن تصحبي أنت وأولادك شخصين آخرين.

تطلعت حولي، رأيت ابنة عمّي عاشورا شنّا، وهي فتاة نشأت معي في بيت أبي، تلك التي كنت أتنزّه معها في دوّارنا في زمور، وبقيت بعد ذلك على الدوام إلى جانبي. طرحت عليها السؤال:

ـ هل تأتين معنا؟

أجابتني بعد لحظة تردُّد:

ـ أريد الذهاب أولاً إلى القنيطرة لجلب أغراضي.

ـ تعالي وستلحق بك أغراضك.

لم أحتج لسؤال حليمة عبود، أخت مربية عبد اللطيف، طفلي الأخير، حول رغبتها في مشاركتنا مصيرنا. فقد تقدّمت من تلقاء نفسها قائلة:

ـ أنا سأصحبكم.

وجدت من واجبي تنبيهها:

ـ اسمعي، ليست هذه الصحبة لعدة أيام، ونحن لسنا ذاهبين إلى شاطئ البحر، أو لقضاء عطلة، ومن غير المعروف ماذا سيحلّ بنا...

ـ مهما يحصل سأشارككم مصيركم...

وخلال ليلة ظلماء من شهر كانون الأوّل صعدت مع أولادي الستة وأصغرهم في الثالثة من العمر، وصحبتنا عاشورا وحليمة إلى

(*) هاي ـ فاي: إعادة إصدار الصوت المستقبل في جهاز للراديو أو غيره بدرجة عالية من الأمانة للأصل ـ عن قاموس المورد.

سيارات أمريكية كبيرة سوداء كانت تنتظرنا، مشكّلة قافلة كئيبة تتقدمها شاحنة صغيرة مقفلة وتتبعها أخرى مملوءتان بأفراد شرطة في ثياب مدنيّة لكنهم مدججون بالسلاح.

ألقيت نظرة أخيرة على المنزل، ورأيت مربيّتي العجوز التي لم أتمكّن من اصطحابها، لأن وضعها الصحّي لايمكنها من تحمّل مشاق هذه الرحلة عبر المجهول.

أقلعت السيارات، وأخذنا طريقنا نحو «حدائق الملك» تلك السجون الملكية التي أطلِق عليها ذلك الإسم بكل احتراس؛ تلك القفار المعزولة عن العالم حيث أُريد لَنا أن نُمحى، ونُشْطب من قائمة البشر.

يجب في الواقع، العمل على إزالتنا، فإثارة دعوى وتوجيه اتهام صريح مستحيلان: وشرطة الحسن الثاني رغم تحقيقاتهم الدقيقة، لم يجدوا شيئاً ملموساً يدعّم ملفّاتهم، ويملأ تقاريرهم. وبُرّر إبعادنا المفاجئ رسميّاً بالحرص على سلامتنا: في المدينة، يُخشى أن تعاقبنا الجماهير. إنَّها ذريعة تثير السخرية. لم يحاول أي مغربيّ أن يرفع يده في وجهنا، أو أن يشتمنا. لكن يجب إيجاد مذنب أمام التاريخ وأمام الشعب؛ فموت أوفقير كشف علانية عن تصدّع السلطة وعلى الملك أن يسدَّ هذه الثغرة. إنّه يريد إزالتنا من الوجود وقد عهد بهذه المهمة إلى دليمي؛ فتنازعت نفس الرجل الأهواء بين شهوة جامحة إلى السلطة وصداقة يكنّها لي مقترنة بتقدير أوفقير والإعجاب به قبل أن يُدفَع إلى التفكير بإزاحته ليأخذ مكانه. إنّ الملك يعرف كيف يفرّق ليسود.

على الدروب الوعرة تأرجحت السيارات وهي تتقدم ببطء... ونحو الساعة الحادية عشرة ليلاً توقّفت القافلة في عتمة الكثبان الصحراوية القفراء. أنزلنا حراسنا من العربات ووضعونا صفّاً أمام أضواء مصابيحها، وصوّبوا نحونا فوّهات رشيشاتهم... قرقعات خافتة مروّعة. الأزندة تُصلى؛ ثمّ لحظة صمت رهيب توقعت أن تليه لعلعلة زخات الرصاص ووميض نارها في الليل البهيم. إنّها النهاية هذه المرّة.

لن أنسى أبداً وجه ذلك الرجل القاسي الفظّ ذي الكنزة البيضاء وهو يعطي أوامره، شخص مزعج مثل هواجس الكوابيس بلحيته السوداء التي تبتلع وجهه حتّى العينين. اعتقدت فعلاً أننا سنموت كلّنا؛ وأحسست برعشة خوف ماكرة تدبُّ في أوصالي... غير أنني تمالكت نفسي وأظهرت اللامبالاة، ووقف كبار أولادي بأنفة وإباء، وطلبت من الصغار عدم الحركة وعدم البكاء؛ فهؤلاء الساديّون(*) يريدون أن نجثو عند أقدامهم، وأن نستعطفهم... لكنني أعرف جيّداً خبيئة نفوسهم وما يضمرون. وقفت أمامهم بكبرياء وتعالٍ. نظرت إليهم بازدراء أخجلهم. لم أتفوّه بكلمة لكن نظرتي كانت كافية لإرباكهم. وأحسّوا بالخِزي، وباءت محاولة تخويفنا بالفشل وتابعنا الطريق.

عندما قرأت *الاعتراف*(**) لأرثور لوندون ثم *الصفر واللانهاية*(***) لأرثور كوستلر، أدركت أنّهم يطبّقون علينا الطرق المجرّبة من قبل الأنظمة الشيوعية على سجنائها السياسيين، تماماً. إنّهم يسعون لإرهابنا لإبقائنا تحت سلطتهم، وتحطيم معنوياتنا وتطويعنا.

دامت الرحلة ثلاثين ساعة. عانينا خلالها القلق، والجوع، والعطش قبل أن نصل في الليل الداجي إلى أسّا في أقصى الجنوب، على مقربة من الحدود الجزائرية هُيّء لنا في تلك الواحة الصغيرة، ضمن ثكنة مهجورة، كانت للفرنسيين سابقاً، بيتٌ من اللّبِن(****)، تحيط به

(*) ساديون ج. سادي: من يتلذّذ بإحداث الألم أو الذعر لغيره. وقد اشتهر أبطال روايات المركيز دي ساد (1740 ـ 1814) بهذا الانحراف الشاذ، ومن اسمه اشتقت هذه الكلمة ـ المترجم.

(**) الاعتراف: كتاب للصحفي الانكليزي أرثور لوندون يصف دخول الجيش الأحمر السوفييتي إلى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا في شهر آب 1968 وقمعه الحركة التحررية وانتفاضة الشباب ضد النظام الشيوعي والمحاكمات التي أعقبت ذلك.

(***) أرثور كوستلر (1905 ـ 1983): كاتب إنكليزي من أصل هنغاري يعالج في رواياته صراع الفرد مع المفاهيم السياسية الحديثة ظهر كتابه «الصفر واللانهاية» في العام 1946 .

(****) اللّبِن: ضَرْب من الطين والقش يصبُّ في قوالب ثم يجفّف في الشمس وتبنى به أكواخ وبيوت متواضعة ـ المترجم.

الصحراء خلف أسوار الثُكنة. وهو مؤلّف من بهو وغرفتين، نال منه القدم والتشقّق وغزته العقارب والأفاعي والفئران.

وجدنا أسرّة بدائية مجهّزة بأغطية صغيرة لاتصل إلى صدر النائم، ومنضدة عليها صحون من البيركس وعلبة سردين وقطعة خبز لكل فرد... إنّه الدمار. لكنه أفضل من الموت الذي أشرفنا عليه منذ لحظة وقلت في نفسي: «اقنعي بما أنت فيه فهو أفضل من موت أولادك». ارتجّت مشاعري، فالعقوبة المماثلة للإعدام قد تحقّقت. وصمتُ قانعة بمصيري.

كنا في قلب الصحراء، وليالي الشتاء فيها قاسية البرد والبيت جليد. أحضرت معي لحسن الحظ غطاء من فرو «الڤيزون» سبق أن اشتريته من نيويورك... استعرضت ما تحويه حقائبي من بهرجات الأبَّهة السابقة: قمصان نسائية فاخرة، وفساتين أنيقة جعلتني أدرك عمق الهاوية التي رميت فيها. بدا غطاء الڤيزون الثمين في هذه البيئة البائسة في غير محلّه ويثير السخرية، لكن فائدته كبيرة. جمعت الأفرشة كلّها، وأرقدت أولادي حولي، وقضينا ليلة دافئة تحت غطاء الفرو الثمين.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي أدركت فظاعة وضعنا وقبحه؛ ولم أستطع أن أحبس دموعي وأجهشت بالبكاء حتى أمام الحرّاس. كانوا ممن عملوا مع زوجي، وهم يعرفونني جيّداً، وحاولوا مواساتي.

- لن يدوم هذا، نحو شهرين على الأرجح...

شهران في هذا الجحيم... أحسست عند سماعي هذه الكلمات أن قلبي يُقتلَع من صدري وقلت في نفسي إن من المستحيل أن أتحمّل. شهران...

من كان يستطيع أن يخمن أن هذا الوضع البغيض سيستمر تسعة عشر عاماً.

كنا نتحدّث دائماً، فيما بيننا، عن أوفقير، وكأنّه مايزال حيّاً. نطلق عليه ضاحكين لقب «الذئب الأرقم»، نسخر من عاداته المستحكمة،

ومن عيوبه الصغيرة ونستمر في العيش معه... هي طريقة لتجاهل تجريدنا من كل وسيلة دفاع، ونَمَط للاستمرار في ابتكار قصص خيال تدعم آمالنا. وبإحاطة وضعنا المأساوي بإطار ساخر توصّلنا إلى إقناع أنفسنا بأن لاشيء فيه يؤخذ على محمل الجدّ.

البارحة كنا نعيش في يُسر ورخاء، واليوم ليس لدينا شيء. البارحة، كان لي مايُلذ أكله، بيت مريح، أولادي يذهبون إلى المدارس، وأنا أسافر على نفقة الأميرة، تُسدَّد عني أجور الفنادق، وأتمتع بميزات لاحصر لها... أتمكن من استقبال الناس، وتقديم الهدايا، وتلقيها، وكنت أستمتع بتلك الحياة راضية عنها. حتى أثناء عيشي في بيت أبي، قبل زواجي، كانت مائدتنا تحوي صنفين من أطباق الطعام في كل وجبة، إضافة للسَلَطات والفواكه أو الحلويات. كنّا ريفيين ميسورين؛ تصلنا الخضار، والثمار، والخراف، وأفراخ الدجاج من مزارع القرى ونعيش في بحبوحة، دون أن نكون من كبار الأثرياء وفقاً للمعايير الحالية. ودفعة واحدة، وبإرادة رجل فَردٍ، جُرّدنا من كل شيء، وقُدّر لنا أن نرتدي الأسمال نفسها خلال سنوات.

عرفنا سريعاً قواعد نفينا. يحقّ لأولادي الصغار وحدهم أن يجازفوا بالسير حتى قرية الواحة بمرافقة الحراس. أمّا أنا وابنتاي اليافعتان مليكة ومريم، وحليمة وعاشورا فلا يحقّ لنا التنزّه إلا باتجاه الصحراء حيث حطام حصباوي لامتناه على مدّ النظر. رفضت هذه المِنّة وقلت لابنتيَّ:

ـ لن تخرجا. أنتما سجينتان، ستبقيان في السجن، يريدون رؤية أردافكما تتأرجح في الحطام الصحراوي، لن نمتعهما بهذا المنظر. ستبقيان هادئتين.

منذ يوم دخولي السجن حتى اللحظة التي خرجت فيها منه، بعد تسعة عشر عاماً، لم أضع رجليّ خارجاً سوى في اللحظات التي نُقِلنا فيها من سجن إلى آخر، في صميم الليل.

في هذه البقعة المنعزلة من العالم أبدى القرويون نحونا مشاعرهم الوديّة. لم يرض هؤلاء الناس الفقراء الورعون الظلم الواقع على أطفال سجناء في الصحراء، وكانوا يبكون عند مرورهم... هذا السجن بالنسبة لهم تجديف غير مقبول لأن الله أوصانا دائماً

بالإحسان إلى الأرملة واليتيم. لذلك كان هؤلاء الصحراويون يقدّمون للصغار عند ملاقاتهم الصيصان، والبيض الطازج، والتمور، وقليلاً من الحنّة. ويعدّون لهم الشاي ويملؤون جيوبهم باللوز تعبيراً عن ترحيبهم بهم ومودتهم لهم.

حتى بوعزّة، سجّاننا الرئيس، الحارس القديم في سجن القنيطرة العسكري، لم يُطق رؤية الأطفال معتقلين، وقد بقي سنة يراقبنا دون أن يتوقف عن التذمُّر:

ـ قضيت خمساً وثلاثين سنة في الجيش، لم أر أبداً أطفالاً في السجن، ليست هذه مهمتي، ولا أريد أن أقوم بها.

بعد يومين فقط من وصولنا إلى أسّا، انهار جدار إلى جانب المنزل الذي نسكنه فقتل ثلاثة مُخزّنين(*)، جنود القوى الرديفة. ذُعِر حراسنا: لو انهارَ المنزل علينا لاتُّهموا على الأرجح بأنهم أرادوا تصفيتنا... أبرقوا إلى الرباط يطالبون بإقامة بيت مسبق الصنع أكثر أماناً من جدران كوخنا القديمة.

أرسل لنا هذا البيت، بالفعل، وهو على الطراز الأمريكي... لكنه وصل في شهر نيسان، عندما أخذت الحرارة اللاهبة ترتفع لتصل إلى أكثر من خمسين درجة في النهار. مثل هذه البيوت تأتي مجهّزة بمكيّفات هوائية عادة، إنّما بديهي عدم حظوتنا بوسيلة الترفيه هذه، فقد كانت أشعة الشمس تنسكب مباشرة على السقف المشكّل من الصفيح المتموج محوّلة ما بداخله إلى فرن نعاني من حرّه مرّ العذاب.

عمدت إلى غمر الممر بطبقة رقيقة من الماء، وتركت الأطفال يستلقون عليها؛ ووضعت أصغرهم تحت غطاء رطب بين وسادتين نعرضهما لتيّار هواء بالترويح. هي وسيلة بدائية لكنها فعّالة، أمّنت للطفل جوّاً يقيه الحرّ! لايمكن تصوّر الأفكار التي تخطر على البال عندما يحرم المرء من كل شيء. تكاد لاتصدّق. أرجّح أنّها الوسيلة التي

(*) المَـخْزَن: يعني مجموع الإدارة الملكية في المغرب، وخاصة طريقة مراقبة المجتمع القائمة على شبكات من التابعين والعملاء تجذر الثقافة التسلطية، ويطلق على أفراد هذه الشبكات اسم المخزنين وهم جهاز عسكري مساعد لقوى الشرطة والجيش، أو قوى رديفة، ترتبط مباشرة بالقصر الملكي ـ المترجم.

سارت بالإنسانية في معارج الرقي. إذ عندما يُحرَم الإنسان من كل شيء تبقى لديه المخيّلة.

لتأمين التموين وجب على حراسنا الذهاب مرّة في الأسبوع إلى غوليمين التي تبعد نحو مئة كيلومتر عن أسّا. كانت سيارة الجيب تنطلق في الصباح الباكر وتعود في المساء نحو منتصف الليل. وكلّ ما كنا نطلبه الكتُب، ومزيد من الكتب... بدلاً من الطعام، نلتهم الكتب. إنّه الشيء الوحيد الذي ييسّر لنا قضاء الوقت. قرأنا كلّ شيء. جميع الكتب الكلاسيكية، وجميع ماوقع تحت أعيننا من المؤلّفين الأمريكيين والفرنسيين، وكبار الروائيين الروس أيضاً، تولستوي(*)، ودوستويوفسكي(**)... ثم انتقلنا إلى المؤلّفين الأكثر حداثة مثل سولجنيستين(***)، أشخاص تحدّثوا قليلاً عن حياتنا، وتألّموا قبلنا، وذكروا كيف يمكننا احتمال المصيبة.

أتذكّر كتاب *يوم من أيام دنيسوفيتش*: هذه الصفحات علّمتني كثيراً من الأشياء، وساعدتني على تحمّل السجن. أدركت وجود ظروف أكثر رهبة من ظروفنا. لكنني قلت في نفسي خاصة إن أي فاعلية مهما صغرت هي أقل رهبة من الجمود. إن تلقي الضربات دون سعي لتجنّبها، ودون عمل، وباستسلام معنوي يائس يقود إلى الفوضى في التفكير والتّصرُّف.

قمت بتدريس الصغار عدة ساعات في اليوم، فهذا الأمر الوحيد الذي يمكن أن يشغلنا. كنت أعلمهم القراءة والكتابة، وتقوم مليكة بإعطائهم دروساً في اللغة الإنكليزية، بينما يقوم رؤوف، ابن الرابعة عشرة من عمره، بمساعدتهم في مبادئ الرياضيات والفيزياء، والكيمياء. حيث يجدُ هو نفسه في مراجعة موجزات تلك العلوم للتعمق فيها بعد أن أنهى قبل سجننا المرحلة الإعدادية من دراسته.

(*) تولستوي، ليون (1828 ـ 1910) كاتب قصصي روسي، حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبة وعدم العنف، من أشهر رواياته «الحرب والسلم».

(**) دوستويوفسكي، فيدور (1821 ـ 1881): كاتب روائي روسي، تمتاز رواياته بالتحليل الأخلاقي النفسي، من أشهر رواياته «الجريمة والعقاب».

(***) سولجنيستين الكسندر (1918 ـ) أديب سوفييتي انتقد عهد ستالين فطرد من الاتحاد السوفييتي. حصل على جائزة نوبل في العام 1970 . من رواياته: يوم من أيام دنيسوفيتش. المترجم.

يتدبّر جميع أولادي أمورهم بشكل تام حالياً، رغم حرمانهم من التأهيل الدراسي النظامي. وعندما يتحدّث رؤوف أو يكتب يخلق انطباعاً بأنه متابع لدراسات عميقة مطوّلة، مع أن دراسته لم تتعد الإعدادية. إنّما لفرط مراجعته خلال سنوات برامج الدراسة الثانوية والبكالوريا وصل إلى مستوى ثقافي رفيع.

كان من المفترض أن تقدّم مليكة امتحان شهادة الدراسة الثانوية في الرباط خلال شهر أيلول، غير أن الملك رفض أن يسمح لها بالخروج عندما فُرضت علينا الإقامة الجبرية في المنزل أثناء فترة الحداد. تألمت من ذلك: ستة أولاد يُحرَمون من متابعة دراستهم! لماذا؟ ما ذنب هؤلاء الأولاد؟ إذا كان والدهم قد اقترف جريمة، وإذا كنت أنا بالذات - في عمر السادسة والثلاثين - ارتكبتُ ذنباً فيمكن محاكمتي ووضعي في السجن، لكن لماذا تطال العقوبة الأولاد؟

بتاريخ 28 نيسان 1973 ، رُحِّلنا بشكل معجّل عن أسّا: فغير بعيد عنها، في البلدة الجزائرية تندوف كان يجري موسم. احتفال حول مزار أحد الأولياء، سوق كبير، وهي مناسبة لسكان المنطقة للاجتماع مرة في السنة للبيع، والشراء، وتناول الطعام، والتسلية، وسماع الموسيقى... هل خشي حراسنا أن نحاول الهرب في تلك المناسبة؟ هل شكّوا بالهذر المتناقل عن عائلة مجهولة بدأ اسمها يتردّد في المنطقة؟ هل ارتاعوا من عملية يقوم بها الجزائريون لاختطافنا؟

كان هوّاري بومدين قد قدّم لي تعازيه رسمياً، مما أثار غضب الحسن الثاني، وراجت شائعة: سيرسل الرئيس الجزائري مفرزة مغاوير لاختطافنا... في ذلك الوقت لم أصدق أبداً ذلك القيل والقال، لكن صحّة تلك الشائعات أُكِّدت لي بعد ذلك بسنوات من قبل مقرّبين من الحكومة الجزائرية. فالرئيس لم ينس ما فعلته أنا وأوفقير من أجل استقلال بلاده سواء بإرسال الأسلحة إلى الثوار أو باستقبال المجاهدين الجزائريين لدينا. وقد عرض بومدين على ملك المغرب أن يظلّنا بحمايته الشخصية. كما أن شاه إيران والملك حسين عاهل

الأردن قاما بمساعٍ في الاتجاه نفسه. لكن كلما توسّط هؤلاء الشخصيات لمصلحتنا ازدادت ضروب اضطهادنا.

يجب إذن مغادرة أسّا. ألقى حراسنا بنا على الأرضية الخشبيّة لشاحنة بعد أن فرشوا عليها بساطاً، وانطلقنا عبر الصحراء. وبعد اجتياز عدة كيلومترات في تلك القفار تغطت أجسامنا بطبقة ثخينة من الغبار، عمّت ذراته الدقيقة البيضاء شعرنا، وأهدابنا، وحواجبنا، وملأت خياشيم أنوفنا، عمّت كل مكان... كنا قد حملنا جرتين من الماء لنرطب الشفاه، ولإيقاف تلك الرمال الناعمة من التغلغل تحت أثوابنا. وجرت بنا الشاحنة خلال ثماني عشرة ساعة ضمن تلك الظروف، ثماني عشرة ساعة دون طعام، ودون توقّف... لحسن الحظّ كنت محترسة: فقد حملت معي علبة حليب فارغة ذات سعة خمسة ليترات أمكن للأطفال أن يبولوا فيها. كان خفراؤنا بمنتهى البشاعة واللاإنسانية لدرجة تثير الضحك! وهذا ما فعلنا، بل إننا انطلقنا في الغناء حتى بُحّت أصواتنا والشاحنة تقلّنا إلى وجهة مجهولة.

توقفنا خلال الطريق في قرية لاأعرف اسمها. أنبئ عمدتها أن عائلة أوفقير ستمرّ على ديرته... وظنّ المسكين أن أوفقير مايزال وزير داخلية؛ فأعدّ لنا مأدبة تليق بعائلة الوزير حفلت بأطباق الدجاج والمغربية، فأغلق حرّاسنا المنذهلون الأعين ونعموا بمائدة مماثلة، وتمكّنا من تناول وجبة شهيّة. لكن ماكدنا نبتلع آخر لقمة حتى أصعدنا إلى الشاحنة، فقد حان الوقت لاستئناف الرحلة...

ساروا بنا حتى أغدز، وهي قرية صغيرة في الجهة المقابلة من تلك المنطقة في جنوب شرق المغرب. بقينا شهراً في تلك القريّة في منزل عمدتها المصادر بعد أن سُدّت جميع نوافذه؛ ولم يبق مسرب للنور والهواء إلا باب المدخل حيث ينتصب أيضاً أمامه، وإلى ارتفاع عال، شريط مشبك. بقينا في ذلك المكان القاتم شهراً كاملاً، شهراً نسمع، ونحن في عزلة تامة، ضجّة الحياة، نباح الكلاب، وحركة السيّارات، وعبور المارّة.

عدنا إلى أسّا في 28 أيار (مايو) لنستأنف حياتنا خلف أسوار

الثكنة المهجورة؛ وأرسل لنا أبي بعض الكتب المدرسية المناسبة للأولاد، وتابعتُ مع مليكة ورؤوف تدريسهم، وبوعزّة يتذمّر، والعقارب تدبّ على الأحجار المستعرة تحت أشعة الشمس، ونحن نستقر في رتابة حياتنا في المُنعزَل.

أفكر أحياناً في أن آخذ القلم، وأكتب، وأترك شهادة مباشرة، أسجّل مذكرات كلّ يوم بيومه... ولكن ماذا أروي؟ أيامنا تمرّ متماثلة، مبتذلة في اطّرادها المتكرر. إنّها الصفحة ذاتها دائماً. الأسابيع والأشهر تختلط. أستيقظ دائماً في الوقت نفسه، ويصل حرّاسنا دائماً في اللحظة ذاتها، ونخرج إلى فناء المنزل في ساعة محدّدة، ونعود منه في ساعة محدّدة أخرى. نقدّم دائماً إلى سجّانينا الطلبات نفسها ونُقابَل بالرفض نفسه.

كنت أقول في نفسي بأنّ عليّ أن أتّبع قدري. لايتمكّن أحد أن يغيّر ما كتب له. لايمكن تبديل مجرى الحياة ولايمكن معاكسة تيارها. إنني شديدة الإيمان، مستسلمة للقضاء والقدر؛ ولن يصيبنا إلا ما كُتب لنا.

بعيداً عن مكاننا، من الجهة الأخرى، حاول بعضهم الدفاع عنا أمام السلطة. لكن الملك كان منساقاً بتأثيرات رهيبة. أقنعه رجال مثل العلوي بأنني امرأة خطرة، بعيدة المطمح، تريد تعكير صفو الأمن في البلاد، وقلب الملكية، والاستيلاء على السلطة. أنا أطمح للاستيلاء على السلطة!

عندما يتردّد الملك، ويبدو، على الأرجح، مستعداً لتحريرنا ينتفض العلوي، ذلك الشخص السافل، نافثاً سمومه:

- حسن، *يامولاي*، ما عليك إلا أن تصفح عنهم، وإذا تمكنوا منك في مرّة قادمة، ونجحوا في مسعاهم، فلن يشفقوا عليك ولا على أبنائك!

أعتقد أن الحسن الثاني كان خير من يعرف أن هذا غير صحيح. لكن أي أمر يختلج في نفسه؟ إذ لاشك أن قلبه يعرف مشاعر الرحمة أحياناً، وقد رأيته يبكي عندما مرض ابنه الصغير، ورأيته متأثراً، فهو ليس ملكاً متحجر العاطفة فقط. وماضيَّ معه شهد غير تلك اللحظات السيئة. فقبل أن نصادف المصيبة والمأساة، عشنا معاً أياماً حافلة بالسعادة، والسرور، والرخاء. رأينا أشياء لم يرها عامة الناس،

وعرفنا لحظات لم يعرفها عامة الناس، ولايمكنني أن أنساها. مرضتُ مرّة، وكان مايزال وليّاً للعهد، فحضر بانتظام يعودني؛ وقام طاهيه الخاص بإعداد وجبات الطعام لي وإحضارها صبحاً وظهراً ومساءً.

قضى الملك طوال حياته متألّماً من عدم إحساسه بمشاعر الحب في طفولته؛ وإن كان يسخر من مظاهر التذلّل والخنوع تقرّباً له فإنه كان يستجيب بشكل جيد جداً للحبّ. تحققت من ذلك عندما رأيته قرب بعض المحظوظين النادرين الذين أحبَّهم وبادلوه الحب. معهم لم يكن يبدي أيّة عدوانيّة أو ريبة؛ وأنا أعتقد أنه لم يكن يعبر عن حقيقة عواطفه ويتخلّى عن قناع مهابته السلطوية إلا في مناسبات خاصة جدّاً. وعلى الأخص أثناء وجوده مع أولاده في طفولتهم. إنّما ليس معهم كلهم: فابنه البكر، ولي العهد، تربّى كتربيته بطريقة صلبة وقاسية.

لكن الحسن الثاني غدا، بعد محاوَلَتَيّ الإنقلاب ضده، رجلاً آخر منكمشاً على نفسه تماماً، لم يعد لديه شخص يعتمد عليه. لقد فَقِدَ الرجل الذي أولاه ثقته؛ ولم يبق له إلا دليمي، وهو لايجهل أن هذا الشخص الغامض والطموح ينتظر الفرصة ليغدُر به... كان الملك يعيش في جو من الحذر والريبة.

مرت السنوات، وبعد إطلاق سراحنا، أسرّت لي زوجته:

ـ لم يَعُد جلالته كما عرفته في العام 1972 ... تغيّر الملك، تلقى الضربات، خاب أمله وغُدِرَ به. ويجب ألا تحدثيه كسابق عهدك...

لكن لماذا أحدثه؟ عندما خرجنا من الجحيم لم يكن لديّ ما أقوله غير ذكر ما عانينا من أهوال. ومرت السنوات وخفّت الأحقاد. وعندما وجب اللقاء فات الوقت، فقد غدا رجلاً مريضاً ومُتعَباً، وتوفي قبل لقائنا.

VIII

أحياء مدفونون

انتقال جديد في 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1973 . كدّسنا في الحافلة الصغيرة، وها نحن من جديد نعبر الركام الحجري اللامتناهي. ساعات ونحن على الطريق في الليل البارد، ثم توقّف لدى عمدة ورزازات الذي تظاهر أنه لايعرف شيئاً عمّا مضى، والذي استقبلنا بحفاوة وبذخ. ثم تابعنا السير على درب وعر فقطعنا ثلاثين كيلومتراً وجبال الأطلس ترتسم على البعد أمامنا تلفّها العتمة.

نحو الساعة الثانية صباحاً، وصلنا أخيراً إلى المكان المقصود: منزل صغير في تاماتاجت ملاصق لقصر قديم خَرِب، القصر القديم الذي بناه أحد أسلاف تهامي الغلاوي(*)، الباشا المسيطر، سابقاً، على مدينة مراكش ومنطقتها. في زمن الإقطاع كان هذا المقرّ الريفي ييسّر لسيّد المنطقة أن يتلقى، مرة في السنة، أدلّة الولاء والطاعة من أتباعه وهداياهم. الزكاة كما حدّدها القرآن الكريم، فعلى كلّ فلاح وصاحب مهنة أن يقدّم للمعلّم عشرة بالمئة من دخله العيني: بهائم، أو حبوب، أو صوف، أو نقود. بهذه الطريقة يمكن للباشا تأمين نفقات العام بكامله، كما يمكنه أن يحوّل قسماً من هذه التقدمات إلى الأكثر فقراً من رعاياه، مما يؤمّن العيش للجميع بشكل لائق.

(*) تهامي الغلاوي (1875 ـ 1956): زعيم قبائل الغلاوة، وباشا مراكش منذ العام 1908 ، ساهم في العام 1953 في خلع محمد الخامس ونفيه (انظر رواية السجينة ـ نشر دار ورد 2000).

عُدَّ الغلاوي خائناً لأنه طالب الفرنسيين بخلع محمد الخامس وصودرت أملاكه، وتعرّض قصره للإهمال والخراب. وتعلّل ورثته بعد زمن من وفاته بوعود تعهّد الملك بموجبها أن يعيد لهم أملاكهم، لكنهم مازالوا ينتظرون تحقيقها. وبصعود محمد السادس(*) على العرش عبّر عن رغبته بتصفية القضايا المعلّقة. قد يتوصل لوضع حدّ لهذه القضيّة.

كان المنزل الذي خصّص لنا يعود سابقاً إلى ابن الغلاوي، وهو رجل قضى بقية حياته في فرنسا، ووالد مهدي الصغير، ذلك الطفل الذي لايُنْسَى في المسلسل المُتلْفَز *بِل وسباستيان* *Belle et Sebastien*.

لاأعلم سبب ترحيلنا المفاجئ عن أسّا وهذا ما قادني إلى عدّة تخمينات. ربّما بدا بوعزّة حارسنا القديم متسامحاً جداً في نظر معذّبينا في الرباط، وربمّا بدأ السكّان المحليون يستنكرون صراحة العقاب المطبّق على الأولاد. وربّما كانت دوافع ذلك القرار سياسيّة، إذ على مقربة من أسّا يقوم النزاع على الصحراء الغربيّة، وقد تأسست في شهر أيار 1973 البوليساريو، جبهة تحرير الشعب الصحراوي، وتحضّر المغرب للدخول في نزاع مع إسبانيا لاستعادة أراضيه.

كان سجننا الجديد غير مجهز بمياه جارية ومراحيض، وهو يتألّف من عدة مستويات. في الطابق الأرضي، وضمن الأرض الصلبة كهف استخدمناه مطبخاً. يعلوه غرفتان بسقف عالٍ خُصصتا لسكننا نحن الأشخاص التسعة، وفوقهما أيضاً، وبعد سلّم شديد الانحدار، غرفة ذات ردهة إسمنتية خصّصناها قاعة للتدريس.

كانت جميع النوافذ مسدودة قبل مجيئنا، عدا قنطرة تطلّ على أفق جاف، سهل قاحل يحوي بعض شجرات عجفاء وأخدود واد قريب منه. بدا هذا الإشراف على الصحراء الكبرى غير محتمل لسجّاني المحكومين بالحرمان من كل شيء، فأسرعوا إلى إقامة جدار يحرمنا حتى من النور ويغرقنا تدريجياً في الظلمة.

لن أنسى أبداً تلك اللحظات الرهيبة. إنّهم يدفنوننا أحياء. عشت فيلمَ رُعبٍ. خُيّل إليّ أنني أُرمى في قبر... شعور مروّع! حُرمنا من أيّة

(*) توفي الحسن الثاني في شهر تموز 1999 ، وتولّى العرش ابنه محمد وهو في السادسة والثلاثين من العمر ـ المترجم.

إطلالة على الخارج، ولم يبق لنا على مشارف الأفق إلا ثغرة عالية، لايتجاوز عرضها عشرين سنتمتراً تتسرب منها شبكة رقيقة باهتة من النور، وفناءٌ صغير كريه منحصر بين أسوار عالية.

أمّا قصر الغلاوي فقد أنهى حراسنا مظاهر الخراب فيه، فهدموا جدران اللَبِن القديمة، وقطعوا سوق القصب لاستعمالها وقوداً في الشتاء.

قضينا ثلاث سنوات وثلاثة أشهر في ذلك القبر، إنّما كنّا معاً وهذا ما يواسينا. ربّما لم يكن الغذاء وافراً لكنّه كافٍ لاستمرار العيش.

أثناء تحضيري الطعام في المطبخ يتجمّع أولادي حولي، يضحكون، يروون القصص، يحاولون تمضية الوقت... نتصدى للمستقبل بآمال عريضة، نستعرض المشاريع، نتحدث عن كندا التي سنستقر فيها يوماً، والمزرعة الكبيرة التي سنملكها...

يقول أحد الأولاد: سأجني كثيراً من العسل.

ويعقب آخر: أما أنا فسأنتج الفراريج.

استطعنا رغم ظلام السجن الاستمرار في أحلام حياة المستقبل، والضحك، والقراءة. كان الأمير مولاي عبد الله، شقيق الملك، يرسل لنا بانتظام صناديق من الكتب تروي ظمأنا للمعرفة والانعتاق. فهو لم ينس الصداقة المنعقدة بيننا منذ زمن طويل. وفيما بعد، وهو على فراش الموت في كانون أوّل 1983 طلب من الملك إخلاء سبيلنا.

بفضل الكتب المرسلة من ذلك الأمير الشهم، الذي لم يحقد على عائلة أوفقير، رغم أنه كان في الطائرة التي أُمطرت بالرصاص، تمكّن عبد اللطيف من القراءة بإتقان وهو في الرابعة والنصف من عمره. إنّه في مدرسة جيدة: ووقتي متسع تماماً للاهتمام بتعليمه.

انتابتنا فترات قلق أحياناً لايمكن تجنّبها، وانتفضنا سريعاً نقاومها مقتنعين أن شروط حياتنا لن تلبث أن تتحسّن. لم ندرك أن سجننا سيتطور تدريجياً إلى مراحل عذاب حقيقي أشدّ فظاعة وهولاً.

في نهاية العام 1977 أعفي العقيد دليمي من مهامه الأمنيّة،

وقضيُتنا واحدة منها، لينصرف كليّاً إلى معالجة مشكلة الصحراء الغربيّة. غدا مصيرنا عندئذ رهن أوامر عبد الحفيظ العلوي، شيطان شرور الملك، ورأس الفساد والمكر. وعهد العلوي بأمرنا إلى العقيد بن عايش الذي قُتل أخوه أثناء الهجوم على قصر الصخيرات، وهو يعتقد أننا مسؤولون بشكل جماعي عن تلك الفتنة؛ عدا أنه يطيع الأوامر وينفذ بدقّة ما يقال له. لم يكن يتصوّر، على الأرجح، أن من الممكن إلقاء القبض على عائلة بريئة وإيداعها السجن.

ناسب توقيفُنا جميعَ الناس وهدَّأ الخواطر: مكّن من الإشارة إلى المذنبين وتسميتهم! استمرَّ عديد من الضباط، وعديد من الأشخاص المتورطين في المؤامرة يمارسون حياة المجون والعربدة في حضن العرش الدافئ، دون أن يقلقوا! من أجل رفاهيتهم وسلامتهم يجب الإساءة لي، واعتباري المسؤولة الوحيدة، المحرّضة التي دفعت بطريقة ماكرة أوفقير إلى التمرُّد. لم أحاكم أبداً ولم أُحكَم أو أُدان؛ ودون معرفة الأسباب طُرحت مع أولادي في زنزانات السلطة. كان أمراً عاجلاً وضرورياً اضطهاد جميع أولئك الذين يحملون اسم أوفقير.

مع بن عايش تفاقم التشديد علينا في السجن وازداد سوءاً. استشرى الرجل في مضايقتنا بقسوة، حتى ليُظَنُّ أنه فاجأنا في الصخيرات والسلاح في يدنا نُصلي أخاه ناراً.

صادر أولاً معظم كتبنا، وحَرَمنا من تلقي كتب جديدة. لم يبق أمامنا إلا أن نقرأ ونعيد قراءة بعض المؤلّفات التي أبقاها لنا، قرأت *الحرب والسلام* أربع مرّات، وقرأت *الأخوّة كرامازوف* ثلاث مرّات... لم يحتمل بن عايش مجرّد فكرة رؤيتنا نتثقّف أو نبعد سأم ووحشة السجن بالتعلّم والتعليم فحرم الأولاد من وسائل الدراسة وكُتُبها، وكلُّ ما يساعد على قضاء الوقت؛ رغم الموهبة التي تجلّت لديهم في الرسم والتلوين، ورغم أنهم عبّروا عن سهولة كبيرة في الابتكار، لكنهم لم يتمكّنوا من تطوير تلك الموهبة وتنميتها، وبالطبع لم يتيسّر لهم ذلك فيما بعد.

غدت حياتنا لاتُحتمل؛ قُنّن علينا حتى الغذاء، فقد سارع العلوي باقتطاع قسم من المبالغ المخصصة لتموينا واختلاسها.

تعاقبت الفصول... وبعد ثلوج الشتاء تتابعت أجواء صيفية خانقة؛ إنّما لم يتغير شيء بالنسبة لنا، ففي قبرنا المسدود المنافذ، وفي الفناء الكئيب حيث تتراكم الرمال والحجارة حُرمنا حتى من أصداء العالم والطبيعة.

انتُزع منا كل شيء، لم يَعُد لدينا ما يمكن ارتداؤه بشكل لائق. كنا نرتعش من البرد كل شتاء، وفي مطلع كلّ شتاء، وجب أن نحلّ كنزات الفصل السابق ونعيد حياكتها، فقد امتلأت بالثقوب وضاقت على الأجسام. خلال خمسة عشر عاماً لم يتلق الأولاد أحذية جديدة. أصغرهم دخل السجن بحذاء ابن ثلاث سنوات، ولم ينتعل حذاءً آخر حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره: كانوا يسيرون كلهم بنعال من إطارات دواليب الشاحنات الداخلية. كنت أحيك أنواعاً من الجوارب وأخيط في أسفلها قطعاً من مطّاط الدواليب على مقاس قدم كل ولد. ليستعملها مداساً. لم أعتبر هذا الأمر مشقة أو عناء فهو يشعرني إلى جانب قضاء الوقت بأنني أقدّم فائدة ما. لكن مرّ العذاب بالنسبة لي هو أن أشاهد الأولاد يسقمون وينهارون صحيّاً يوماً بعد يوم.

ببطء تكوّنت في ذهننا فكرة الهرب، فكرة عنيدة متسلّطة تعلّقنا بها كالغرقى. إنّما يجب وضع خطة ممكنة التحقيق. بدا لنا عنصران يتوافقان مع مصلحتنا، أحدهما جدران سجننا المشكّلة من اللَبِن، قش وطين يسهل اختراقه؛ والآخر تصرّف حراسنا: فقد جرت عادتهم على نقل التموين لنا مرّة في الأسبوع، ثم المجيء صباح كل يوم يحملون إلينا الماء، ويفرغون دلاء القمامة، والعودة في المساء لتجديد احتياطي الماء.

في إحدى الأمسيات قال الأولاد لي:

ـ تَعَالي معنا يا أمي، سنتجول في الخرائب حولنا...

أجرينا فجوة في جدار المنزل، ومررنا عبر أنقاض قصر الغلاوي. من هناك قد نجد وسيلة لاجتياز السور السميك الذي يحيط

بمقر الباشا القديم... أما حالياً فقد اكتفينا بالنظر عبر ثقوب صغيرة في ذلك السور، وبدا لنا الأفق لامتناهياً والوادي يجري بهدوء، وبعض الأعشاب والبرسيم تنمو على البعد تقطع النمط الصحراوي الرتيب... منذ ثلاث سنوات لم نشهد بقعة معشوشبة، فالمنظر بالنسبة لنا مثل جنة عدن، واستنشقنا ملء الرئتين نفحات تلك اللحظات المسروقة من الحريّة.

لكن كيف يمكن اجتياز السور؟ قادني الأولاد إلى مكانٍ تصوروا إمكان الفرار عبره. هو حجرة منهارة في أعلى السور تطلّ شاقولياً على الصحراء؛ وقد برزت سوق من القصب عبر الواجهات المنهارة، رسم الأولاد انطلاقاً منها مشروعاً خطراً يستند إلى ربط هذه السوق القصبية فيما بينها لتشكّل حبالاً بدائية يمكن الانزلاق عليها حتى الوصول إلى الأرض... يبلغ ارتفاع المكان نحو ثلاثين متراً، يتعرض المُنزلِق خلال الهبوط لخطر السقوط، والإصابة بجروح، وقد يتعرّض للموت، وعلى كل حال يمكن تنبيه الحراس دون جدوى. رفضت تلك الخطة.

ـ لن أسمح لكم أبداً باللجوء إلى هذه الوسيلة.

ألح رؤوف ومليكة.

ـ أمي، نؤكّد لك إمكان النجاح، سبق أن أجرينا مثل هذه المحاولات في تدريباتنا الرياضية المدرسية.

ـ هذا غير وارد، لن تحاولوا ضمن هذه الشروط.

انتقلت إلى غرفة أخرى، نظرتُ إلى السماء عبر فجوات السقف المنهار، ونقّبت في كل مكان، وفجأة رأيت على جدار حجيرة دون سقف ثُلمة مموّهة بحصاة كبيرة... اقتربت. حرصت جيّداً على تجنّب رفاقنا المألوفين، العقارب والأفاعي، ورفعت بهدوء الحصاة، وألصقت عيني على الثلمة، رأيت عبرها قاعة أخرى وباباً مخفياً بشكل غير موّفق بلَبِنات معترضة، إنَّه المنفذ الفرعي للقصر. وجدت طريق الفرار! ناديت الأولاد في الحال:

ـ تعالوا، انظروا! يجب الآن البحث عن الطريق الموصل إلى ذلك الباب.

عمدنا إلى استكشاف الخرائب، وأخيراً وصلنا إلى الباب المرتجى. كان معي زجاجة ماء من البلاستيك، أفرغت محتواها على اللَبنات الموصدة له لتطريتها، وقررنا العودة في صباح اليوم التالي لترطيبها أيضاً؛ وفي المساء سنضع الخطوات التنفيذية لخروجنا إلى الحرية.

بعد أن طمسنا إلى أقصى حدّ آثار مرورنا، عدنا إلى مأوانا وهرع كل منا إلى فراشه مستبشراً بنوم هنيء. لاشك أن الأحلام الورديّة داعبت جفون الجميع في تلك الليلة. فذلك الباب المكتَشف بتوجيه من العناية الإلهية سيؤدي بنا إلى حياة جديدة مستحدثة.

في صباح اليوم التالي حضر الحراس كعادتهم يحملون إلينا نصيبنا المقرّر من الماء، وذهبوا بعد أن أفرغوا دلاء القمامة. ارتديت ثياباً ملائمة للعودة إلى الخرائب: بنطال بيجاما(*) وسترة برتقالية من الكشمير، هدية قديمة من الملك إلى زوجي. ملأت صفيحة بالماء بغية تبليل اللَبِنات الموصدة للمَخرج المكتشف. في تلك اللحظة بالضبط فُتح باب سجننا؛ وتقدّم مخزّنان نحوي:

ـ *حاجّة*، نريد أن نكلمك!

إنَّهم ينادونني *حاجّة*، وهو لقب يُطلق على النساء اللواتي زُرنَ مكة، لكن، لهجتهم، باستثناء تلك المناداة المهذبة، أقرب إلى الفظاظة. قال أحدهما:

ـ افرزوا محتويات هذا المنزل. ضعوا أغراضكم جانباً، واتركوا أغراض الدولة في مكانها...

ـ أغراض الدولة؟ ليس للدولة هنا إلا فراشان متعفنان وبعض قدور... وما تبقى مشترى من قبلي!

ـ ما عليكم إلا أن تجمعوا أغراضكم...

أدركت عندئذ أننا سنغادر تاماتاجت. إنّهم ينقلوننا في اليوم الذي اهتدينا فيه إلى منفذ للفرار! انهارت جميع آمالنا. أبى القدر إلا الاستمرار في معاكستنا.

(*) بيجاما: كلمة هندستانية تعني «ثوب الساقين» ونرى تعريبها مادامت قد انتقلت إلى معظم اللغات العالمية بهذا اللفظ وهذا المعنى ـ المترجم.

بدأنا بجمع أمتعتنا وارتداء ثيابنا، وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر حضر ضابط برتبة عقيد أمام المنزل، وأرسل نَفَرين من رجاله لتبليغي توجيهاته.

ـ تخرجين أنت وأصغر أولادك أولاً، بعدكما يأتي دور رؤوف؛ ثم مليكة والصغيرتان وأخيراً مريم مع حليمة وعاشورا.

خشي الأولاد أن أُبعد مع أخيهم الصغير المدلَّل عنهم، وأبدوا اعتراضهم، فطلبوا مني عدم الانصياع لهذه الأوامر:

ـ لاتذهبي وحيدة... لانعلم إلى أين سيتوجهون بك... إنّهم يريدون إقصاءك عنا، لن ندعك ترحلين...

وقفت منتصبة في جلبابي، ومنديل يحيط بوجهي، ونظارات سوداء على عيني. عبّأت مابقي من وجاهتي؛ وخرج رؤوف يتفاوض مع العقيد:

ـ لن أنفصل عن أمي. سأرافقها على الدوام.

عبّر الضابط عن تهذيب جمّ وتربية حسنة؛ وطمأننا:

ـ أعدكم بعدم الفصل بينكم، إنّما ستنطلقون فقط في رحلة تقتربون فيها من العاصمة؛ بل من الممكن أن يُفرَج عنكم...

لم أثق كثيراً في هذا الاحتمال، لكنني خرجت مع رؤوف، ومع صغيري عبد اللطيف، واجتزنا نطاق السور الخارجي مروراً برواقين واسعين، يفصل بينهما بهو مجهز بمقاعد حجرية، كان يتجمع فيه عبيد الغلاوي سابقاً. ذهلت عند وصولي إلى الخارج: صفان من رجال الشرطة ينتظروننا والرشيشات في أيديهم؛ وأمامي حافلة خضراء عُتّم زجاج نوافذها بالقطران، وسمعت آمراً خلفي يصيح:

ـ اصعدوا.

صعدت مع ابني الصغير، وصعد رؤوف بدوره. جلست وعبد اللطيف في حضني، وجلس مُخزّنان على طرف وآخر من مقعدنا بينما كان رؤوف على مقعد آخر، ومخزّنان آخران إلى جانب السائق، وزُلِق الباب الجرار وحلّت الظلمة في الحافلة.

إنّهم يعرفون جيّداً كيفية إعدادنا سيكولوجياً عند اتخاذ بادرة تشديد في معاملتنا. كانت البنات وحليمة وعاشورا في حافلة أخرى. وانطلقت الحافلتان... اجتزنا ثلاثين كيلومتراً حتى ورزازات ومنها مئة وأربعين كيلومتراً في طريق تتخلّلها المنعطفات، والحافلة تدور،

وتدور... إنني أعرف هذه التعرّجات التي لاحصر لها: هي الطريق المؤدية إلى مرّاكش. كان الحارس الذي يجلس في مواجهتي قد ابتلع كميات كبيرة من البندورة والبصل وأخذ يتقيّأ حتى خلنا أنه سيلفظ أحشاءه! أمّا أنا فلم أكن قد تناولت أي طعام؛ فلم أعانِ أيّة مشكلة مماثلة، إنّما يجب أن أتبوّل... ولحسن الحظ كنت دائماً محترسة، ولديّ علبة مسحوق الحليب الفارغة؛ أمسك ولداي بمنديلي، وطلبت من *المخزّنين* أن يديروا وجوههم حشمة وحياءً. أبدوا أولاً بعض التردّد، أليسوا هنا عيوناً علينا. أخيراً أدركوا سخف الوضع. ثم إن لديهم شيئاً آخر غير مراقبة أسراهم: فالدُوار لم يشفق عليهم، ورائحة قيئهم تزكم الأنوف طوال الطريق. إنهم في حالة بشعة مقزّزة.

وصلنا إلى مراكش نحو الساعة الثامنة مساء، بعد قضاء ست ساعات في الطريق، واليوم هو 20 شباط (فبراير) 1977 ، عشيّة عيد العرش، وعشية ذكرى ميلاد عبد اللطيف. من سجننا المتحرك؛ ومن شقّ يكاد لايُرى، لاحظنا قرية عند مدخل المدينة، وأعلاماً، وأشخاصاً يرقصون في الشارع، وألعاب فروسيّة... وهكذا متّعت عينيّ بمشهد ملوّن من الحياة.

تابعنا السير ساعات أيضاً، وتبينّ ضرورة تغيير العربات، فالأمطار الغزيرة أغرقت الطرقات وتعذر على الحافلات الخوض في المياه. قام حراسنا بعصب أعيننا ونقلونا إلى سيارات جيب.

أخيراً، حوالى الساعة الثانية صباحاً، دخلنا إلى مكان مجهول، ورُفعت العصائب، فوجدنا أنفسنا في مكان يرزح تحت أنوار الكشافات الساطعة. هيّؤوا لنا هذه المرّة سجناً حقيقياً؛ وأدركت أن إطلاق سراحنا لن يكون قريباً، إذ أنّهم لم يبذلوا كل هذه الجهود ليُفرَج عنا في اليوم التالي.

* * *

لم نعرف إلا بعد فترة طويلة أن سجننا الجديد يقع في بير جديد(*)

(*) ورد الاسم هنا Bir - Jdib (بير جديب) بينما ورد في كتاب «السجينة بير جديد Bir jdid والموقع غير مسجل على الخريطة الطرقية للمغرب بمقياس 1.500.000/1 المتوافرة لدينا ورأينا الاحتفاظ بالاسم بير جديد، فاقتضى التنويه ـ المترجم.

على بعد نحو أربعين كيلومتراً من الدار البيضاء في بيت قديم للمستوطنين الفرنسيين حوّل إلى مكان اعتقال بجدران مصمتة دون نوافذ وبأبواب مصفحة، حتى أن إحدى الشرفات الضيّقة قد أغلقت بجدار عال لايسمح إلا لنور ضعيف بالمرور من فتحة ضيّقة عتّمت بقضبان الحديد والشَبَك؛ وأمام المبنى يوجد فناء صغير مُنع عنا الخروج إليه في البدء. بدا كلّ شيء قاتماً، وحزيناً، ورطباً.

منذ الليلة الأولى فصلوا بيننا. وضعوا بناتي ـ مليكة، ومريم، وماريا، وسكينة ـ في ثلاث زنزانات متلاصقة يغلقها باب واحد مصفّح؛ وحليمة وعاشورا في زنزانة أخرى؛ ورؤوف وحده، وأنا وعبد اللطيف في الزنزانة الأخيرة.

كنا سجناء، معزولين خلال الليل في غرف صغيرة مربعة بضلع أربعة أمتار لكل منها، وهي ذات جدران مشقّقة تنضح رطوبة، دون نوافذ، عدا كوى ضيّقة يرشح منها نور شاحب أزرق مخضر. كان هذا الفَصْل بيننا ضربة قاسية بعد أن اجتزنا جميع المحن معاً، موحّدين، متضامنين. عرفوا تماماً كيف يمكن تدميرنا. في كلّ يوم يبنون جداراً جديداً ليجعلوا سجننا أكثر ظلمة وقنوطاً، يسدّون مداخل النور الصغيرة ليعزلوننا تدريجيّاً عن العالم والحياة.

سنبقى عشر سنوات في ذلك السجن، عشر سنوات مافتئت فيها ظروف اعتقالنا تتدهور وتزداد قسوة، عشر سنوات في انحدار طويل إلى الجحيم.

حتى نهاية صيف العام 1977 كانت حياتنا محتملة نسبياً، حتى أنني احتفظت سرّاً بجهاز الراديو الذي أملكه. هكذا استمعت بتاريخ أوّل أيلول إلى نبأ وفاة الأميرة للّا نزهة أخت الملك نتيجة حادث. هزّني هذا النبأ المأساوي؛ فكرت خاصة بأمّها ومدى حزنها؛ وبكيت كثيراً حتى أنّ حرّاسي عرفوا أنني أخفي جهاز مذياع...

بتاريخ 26 أيلول (سبتمبر) جاء السجّانون يجرون علينا أوّل تفتيش حقيقي. صادروا المذياع، ومجموعة هاي ـ فاي. حملوا في سورة غضبهم أيضاً الصحف القديمة الباقية لدينا، ورسوماً أعدّها

الأطفال، كما صوراً شخصية، وأشعلوا بجميع هذه الأوراق نارَ ابتهاج في الفناء؛ كما قدّموا ملابسي لحليمة وعاشورا، وأعطوني بالمقابل بعض ملابسهما؛ في محاولة منهم لتحقيري.

كان العقيد بن عايش يلاحقنا بحقده وكرهه، وقد أعلمَ عندئذ المرأتين الشجاعتين اللتين تهتمان بالطهي لنا:

ـ يمكنكما أن تأكلا كلّ ما تعدّان دون أن تتركا لهم شيئاً، يمكنكما تجويعهم حتى الموت دون توجيه أي لوم لكما، يمكنكما أن تدسا لهم في الطعام أيّ شيء، فهو مباح لكما.

لكن الطاهيتين رفضتا هذا العمل الغادر، وأجابتا بصوت واحد:

ـ كلا، كلّا، لك أن تختار غيرنا لهذه المهمة. لن ننفذ أبداً ما تطلب. قد نجوع نحن، أما هم فسيأكلون.

خلال ستة أشهر، وبفضل هاتين الفتاتين الرائعتين والأمينتين تمكّنا أن نتغذى بشكل مقبول، وزاد من سعادتنا اجتماعنا خلال النهار على الشرفة الصغيرة المصوَّنة.

بعد ذلك بقليل استدعى الجنرال العلوي والعقيد بن عايش مقدّمَ *المخزّنين* ليوجّها إليه هذا الأمر الصريح الذي كرره علينا هو نفسه كلمة كلمة:

ـ ليس المطلوب قتل هؤلاء الأشخاص، إنّما يجب عليك أن تضنيهم وتنكّد عيشهم.

في العام 1972 ، وعند وصولنا إلى أسّا، خصّص لمعيشة كلّ منا عشرة دراهم يومياً، أي ألفان وسبعمئة درهم في الشهر لنا نحن التسعة، مبلغ أقلّ من ألفي فرنك. بعد سنتين، وحتى نهاية 1977 ، هبط المبلغ إلى ألف وخمسمئة درهم، وتحوّل الفرق، على قلّة المبلغ، إلى جيوب العلوي. غدا هذا المبلغ في بير جديد سبعمئة درهم في الشهر، ومع مرور الزمن أخذت مخصصاتنا الغذائية تتقلص، وغدا الجوع رفيقنا.

لم نَعُد نتناول أيّة وجبة خلال النهار، فليس لدينا إلا قليل من الطعام مما دفعنا إلى الاحتفاظ به حتى المساء لنوهم أنفسنا أن معدتنا ممتلئة. عندما يقضي المرء النهار بطوله دون أن يبتلع شيئاً

فإن الغذاء القليل مساءً يشعره بالشبع؛ بل إن كأس ماء يُملئ المعدة الخاوية... هكذا مارسنا الصيام والاقتصار على وجبة واحدة مدة سبع سنوات، من 1980 إلى 1987 . ألزمنا أنفسنا بالصيام لأسباب منهجيّة وعملية؛ وليس بدافع ديني. أنا أعتقد أنَّ الله لايرضى عن هذا الصيام القسري. نحن لانطلب صفَحه أو نستغفره ذنباً، لأننا لم نُسئ؛ والآخرون، المجرمون الحقيقيون، هؤلاء، أكثر حاجة منا للتصالح مع السماء.

لم نعد نتلقى إلا ما يَسُدّ الرمق، وهذا ما لايُحتمل معنويّاً. الحرمان المستمر يعيد الإنسان إلى الحالة البهيمية، يحصر تفكيره بالأكل، لايتصوّر إلّا أطباقاً صغيرة يريد أن يتدبّرها؛ ولايناقش إلا في الطهي وأمور المطبخ... يتخيَّل عند جوعه باستمرار غذاءً دسماً يحشو المعدّة. يحلم وهو مستيقظ.

في البداية كنا نأكل بعناية واختيار، نحاول أن نتذوّق مالدينا. لكن الطبيعة تغلّبت فيما بعد، وغدونا نلتهم بسرعة ما يتوافر لنا للإحساس بامتلاء المعدة، والشعور بالشبع. لكن هذا الشعور سريع الزوال. فحتى عند ابتلاع وجبتنا دفعة واحدة وما قد يترتب عن سرعة تناولها من بطء هضم ينتابنا الجوع وتأثيراته على المعدة الفارغة.

آلمني هذا الإحساس بإفقاري على جميع المستويات بتقنين الغذاء والحرمان من القراءة. خشيت الانحطاط المعنوي والعقلي. مع الجوع تخبو المخيّلة وتضعف الروح. غير أنني، رغم العوز حاولت الاحتفاظ بإبائي. هي ممارسة اضطررت إليها خلال سنوات، وغدت فيما بعد طبيعة في النفس. علّمت الأولاد أن الأشخاص الذين استطاعوا أن يحققوا المآثر الكبرى في حياتهم أناس عرفوا الجوع: فالأنبياء وكبار الحكماء لم يكونوا يأكلون إلا القليل.

رغم كل شيء خشينا تردّي قوانا، والبحث عن كِسَرات الخبز، واستمرار التفكير بشيء نأكله. صحيح لم نَعُد نفكّر إلا بهذا إنّما بكثير من الفكاهة، والضحك دون انقطاع. عند سماعنا بوفاة إحدى الشخصيات الهامة نهتف:

- يالحظ القرَّاء والنادبات، سيتناولون وجبة عشاء دسمة على مائدة عامرة بأفراخ الدجاج وأطباق المغربيّة...

كنا نسخر من كل شيء، ونحوّله إلى موضوع مزاح. إنّه هروب من مواجهة الحقيقة المرّة. نتحدث أيضاً كيف سنتصرف عند خروجنا من السجن؛ وينطلق الأولاد مع الخيال:

ستكون لدينا ثلّاجة كبيرة ممتلئة حتى لنضطر إلى الضغط عليها بأقدامنا لإغلاقها!

أردّد على مسامعهم برزانة وتعقل من خَبِر الحياة.

ـ لن يكون لهذا أيّة أهمية، سترون بعد اجتيازكم هذه المحن أنكم لن تعيروا الغذاء اهتماماً، ولن يكون له الشأن الكبير. ليس هو الخسارة الكبرى، ولن يَعلَق ماحرمتم منه في ذاكرتكم، إنني أعدكم بنسيانه.

أقول لهم هذه الكلمات دون أن أكون مقتنعة بها فعلاً؛ فأنا قد عرفت الرخاء وبحبوحة العيش. أما هم فقد نسوا كلّ شيء، ويعيشون في حاضر يعانون فيه الحرمان والجوع ليحلموا بمطبخ عامر بالمآكل الشهية.

أخيراً صدقت تكهناتي. فهم الآن أولاد قليلو الشهية، لايرغبون بشيء، والغذاء بالنسبة لهم ثانوي تماماً. إن الناس يعتقدون أن معاناة الحرمان ستدفع إلى الإقدام على العيش كالنسور الكواسر. أبداً، كلّما عمُرت المائدة قلّت الرغبة بالأكل.

حدث لنا أن احتفظنا ببعض الدسم، على أمل إعداد وجبة شهيّة. لكننا في يوم تناول الطبق الفاخر الموعود بدهنه الزائد عما ألفناه أحسسنا بثقل في المعدة، وعسر هضم مؤلم؛ وحتى الآن يمكنني أن أحتمل الجوع أكثر من الإقبال بنَهَم على الأطباق المتعدّدة في الولائم.

كان شكل مقدّم *المخزّنين* مناسباً لمهمته: مظهر جلّاد أصيل، قصير القامة، مكتنز الجسم، عريض الكتفين، بعضلات عضد بثخانة فخذيّ، دون عنق، ورأس ملتصق بالجذع، وعينين حمراوين محتقنتين بالدم... اسمه بورّو(*) أي كرّاث أو رَكْل؛ لكنه أشبه بدرنة بطاطا منه

(*) بورو Borro: تحريف لكلمة Poireau الفرنسيّة وفق اللهجة المحلية المغربية وتعني نبات الكراث أو الرَكْل.

بالكرّاث؛ وكان مكلّفاً بشراء تموينننا الغذائي، يؤمّنه عندما يكون رائق المزاج، نظاميّاً، يوم الإثنين، وإلا وجب الانتظار إلى يوم الأربعاء. يحمل إلينا خلال الأسبوع أو العشرة أيام، على سبيل المثال، عدا الخبز، كيلوغراماً واحداً من كلّ من اللحم والبندورة والبطاطا والطحين، ونصف كيلو غرام من الأرز، وعشرين بيضة، وحزمتين صغيرتين من المعكرونة، وملء قدحين من العدس، وليتراً من زيت الطهي، ونصف ليتر من زيت الزيتون، وأحياناً، القليل من الحليب. لكن أصغر أبنائي لم يعرف الزبدة فهي ليست من مخصصاتنا كما أنه لم يعرف الموز أو التفاح ففاكهتنا تقتصر على بعض برتقالات أو ثمارَ تينٍ تُجنى من أشجار الفناء... في الأحوال التي تفيض عن حاجة *المخزّنين*.

خلال فترة الجفاف التي مرت على البلاد مابين 1979 و 1983 ، كان اللحم الذي يأتوننا به قطعة من إسفنج أو شريحة من بلاستيك شاحبة منفوخة بالهواء، شلو من حيوان هزيل محتضر التصق جلده على عظمه. كان هذا اللحم الفاسد نتناً، تفوح منه رائحة خبيثة. إنّما لم يكن يحقّ لنا الشكوى أو إبداء ملاحظة بعدم صلاحه للأكل. كنا ننتظر ابتعاد حرّاسنا لتدفن عاشورا اللحم في الفناء؛ وعندما كانوا يمنّون علينا بقطعة من القرنبيط فهي عفنة والدود يسري بين زهيراتها؛ كذلك البندورة أحياناً. أمّا البيض فينشر رائحة الجِيَف، وتتوزّع عليه بقع زرقاء معلنة فساده.

قال لي ولداي يوماً: أمّي، هذا لاشيء، سنعدُّ بواسطته خبزاً مقليّاً(*)، وسترين أن رائحته ستضعف كثيراً.

وهكذا يبدأ الأولاد إعداد هذا الطبق، وتنهمر الدموع الثخينة من عيني وأنا أراهم يستخدمون ذلك البيض الفاسد. لكنهم اعتادوا أخيراً على تناول تلك الأغذية البغيضة حتى أنّهم وجدوها مقبولة:

(*) الخبز المقلي Pain perdu: خبز مقمر يغمس في البيض المخفوق بالحليب ويُقلى بالسمن ويضاف إليه السكر، وهو في كندا الخبز المذهب Pain dore حيث تضاف إليه خلاصة نسغ القيقب ـ المترجم.

- إنّها جيدة، إنّها جيّدة. هي زاخرة بالبروتينات؛ والصينيون يخزنون البيض سنوات قبل أن يعمدوا إلى أكله.

كان بإمكانهم أن يقسرونا فعلاً على ابتلاع أيّ شيء! لكن هذا الخبز المقلي يساعد على بهجة الأولاد وقضائهم وقتاً طيّباً، بينما يدفعني إلى النحيب. إذ يَعزُّ عليَّ أن أتحمل هذه القسوة الشريرة ولا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تُبرَّر مثل هذه المآكل العفنة للأطفال.

من ناحية العناية الصحيّة، لم يكن يحقُّ لنا إلّا الاغتسال بالماء البارد؛ ونحن في حالة من توتّر الأعصاب في الشتاء، حتى أن أجسامنا تنضح عرقاً باستمرار. أحسّ بالبرد وأنا أقف تحت دوش الماء بسبب ماأعانيه من جوع فتصطّك أسناني ويقشعر بدني وارتعش بشكل لايمكنني التحكّم به. يملأ عبد اللطيف عندئذ علبة الحليب الفارغة بماء ساخن يُعدُّه بوساطة أحد موقدي الغاز اللذين تتلقى لهما حليمة وعاشورا أسطوانة وقود كل شهر لتأمين طبخ الطعام. أضع ذلك الماء الساخن على ضفيرة أعصاب البطن لأهدّئ التشنّجات المرعشة... لكن التعرّق ينتابني بسرعة؛ فأضطر إلى الاغتسال مرّة أخرى؛ وقد يحدث لي هذا ثلاث أو أربع مرات يومياً. وأرتعش وأرتجف من البرد والجوع ثلاث أو أربع مرات. إنّه الجحيم. هي معاناة لنا كلّنا. ذلك التعرّق العصبي يجعل أجسامنا دَبِقة ويدفعنا إلى دوش الماء البارد: هذا ما يميزنا عن الحيوانات، ويجنّبنا التحوُّل إلى حياة متوحشة كليّاً. المحافظة على النظافة تبقينا في نطاق البشر المتحضّرين. إننا جياع، ومسجونون، ومرضى؛ ونحن معرضون لجميع العوامل المؤديّة للانحطاط... لكننا نريد أن نحتفظ بكرامتنا. وقد احتفظنا بها رغم كل شيء.

لم يَعُد لنا حقُّ بشيء. عدا قليل من الطعام الفاسد. حُرمنا من الكتب، ومن الأدوية. وما علينا في حال المرض إلا أن نتدبّر أمرنا. حتى مريم المصابة بالصَّرَع حرمت من دوائها. وكانت تتناول حتى ذلك الوقت اثني عشر قرصاً يومياً، عمل والدي على إرسالها لنا عن طريق وزارة الداخلية؛ ومنعت عنا بين ليلة وضحاها. لن أغفر لهم ذلك أبداً. تجرؤوا على مهاجمة مريضة، طفلة أغلق فمها الداء، عاجزة عن

أي أذى. هي لاتعلم حتى سبب وجودها في السجن، وتتعذّب عذاب الشهداء. توصلنا إلى الاحتفاظ سرّاً ببعض عُلَب من الموغادون نعطيها بعض أقراصها أثناء النوَب الشديدة. إضافة إلى ذلك، أصيبت بالبواسير، وعانت منها خلال خمس سنوات، تستيقظ مع الفجر، وتبكي من الألم مدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم. في كل صباح كانت تنزف دماً ملء علبة من البلاستيك يخرجها حراسنا دون أن تستثير شفقتهم. رجوتهم أن يشتروا لنا مرهماً، إنّما دون جدوى. حاولت معالجتها بزيت الزيتون لكن هذه المعالجة غير الملائمة زادت من آلامها الرهيبة مما اضطرني إلى إيقافها.

رأيت مليكة تذبل تدريجياً وتتشوّه متورّمة من وذمة عوز غذائي(*)، ويتساقط شعرها، وتشكو من آلام في أسنانها، ثم تصاب بالتهاب الصفاق(**) الذي سيسبّب لها العقم... مع أنّها كانت فتاة رائعة، فحتّى في السجن كنت أرى جمالها مذهلاً.

أخذ أولادي ينهارون صحيّاً واحداً بعد الآخر، تنتابهم أمراض نجهل أسبابها ولانتمكن من معالجتها. سُكَينة تصاب بحمى مستمرة دون انقطاع مدة عشرين يوماً؛ وماريا تعاني من فقر الدم، ومن التهاب الكبد، وتعرّض رؤوف لخرّاج في البطن مترافقاً بأعراض زحار، مما ألزمه التردُّد على المرحاض خمسة عشر مرة صباحاً، ومثلها مساءً. بعد ثلاثة أسابيع نصحته حليمة بأن يدهن داخل الشرج بالصابون... فكانت كارثة: انفجر الخرّاج وأعقبه نزيف حاد استمر أربعة أيام خلت أثناءها أنه سيموت، وكل ما استطعت الحصول عليه من أحد *المخزنين* هو دواء السولفاميد. لم أعلم أنه مضاد استطباب لمثل تلك الحالة، وهكذا زاد من خطرها بدلاً من علاجها. لم نستطع الحصول حتى على قرص أسبيرين، بينما كنا نعاني كلّنا من خرّاجات سنيّة تستمر أشهراً؛ وأنا الآن أستخدم جهازاً سنيّاً بعد أن فقدت قسماً من سقف الحلق بسبب خرّاج كنت أثقبه وأفرغه كل صباح مدة ست سنوات.

(*) oedeme de carence: قلّة في المواد الغذائية تسبب إن طالت تربلاً أي انتفاخاً ناتجاً عن ارتشاح مصلي في الأنسجة الرَخوة ـ المترجم.

(**) التهاب الصِّفاق Peritonite: التهاب الغشاء المصلي الشفّاف المبطن للتجويف البطني ـ المترجم.

لم تقتصر محنتي على معاناة الألم وقضاء أجمل سنوات عمري بين أربعة جدران، منها رؤية أولادي يذبلون. أولاد لم يقترفوا أيّة جريمة سوى انتمائهم إلى عائلة أوفقير. هي أمور لايمكن أن تُنسَى أو يُصفَح عنها. فقدت ماريا وسكينة الصغيرتان كل مرحهما، وكل آمالهما. هما الآن لاتؤمنان بشيء. أما وضع مريم، وقد أضناها الصرع، فهو أسوأ من ذلك بكثير.

مع ذلك قاومنا. كنا نعرف أن القرار المتخذ يقضي بتعريضنا لعذاب مرّ. أردنا أن نصمد أمامه، وأن نبرهن لهم أننا أقوى مما يظنّون وأننا لن نستسلم للذبح. وهذا ما أنقذنا.

يروي جاك شانسل في كتابه الصادر حديثاً *الذهب والتوافه*(*) أنه أتى على ذكر حالتنا أمام الحسن الثاني، وقد أجابه الملك:

ـ بالنسبة لهذه القضيّة لم أعد أكترث بها، لكنني أمرت بعدم المسّ بحياتهم.

العذر يشير إلى الذنب، يشيرإلى أن من الممكن تعريضنا لكل شيء باستثناء الذبح.

بالطبع عرفنا أوقات قنوط شديد. آمال المستقبل تخبو مع مرّ الأيام التي تزداد قسوة ورتابة. أراد عبد اللطيف وهو في العاشرة من عمره أن ينتحر، ويترك عالماً لم يعرف فيه إلا التوافه. ابتلع ثمانية أقراص موغادون بتاريخ 23 تشرين ثاني (نوفمبر) 1979 ... كاد يموت لو لم نكتشف الأمر، ولو لم تهتدِ حليمة إلى العلاج.

ـ لدينا الحِنَّاء(**)؛ يمكن أن نعدّ منها منقوعاً نسقيه إيّاه فيتقيّأ كل ما في معدته وينجو...

أخذت بضع أوراق حنّاء وحضّرت منها مغليّاً جرّعته إياه بعد

(*) من نشر بلون Plon.

(**) الحنّاء Henne نبات اسمه العلمي Lawsonia inermis شجيرة صبغية ذات زهر أبيض كالعناقيد يُستعمَل ورقها ولحاؤها خضاباً أحمر للشعر واليدين والشفتين مهدها الأصلي الهند وتنبت في المناطق الحارّة ـ المترجم.

تبريده بوساطة قُمع أعدّ بشكل مرتجل؛ وبالفعل تقيأ وَلَدي كلّ ما في معدته، لكنه بقي نائماً ثماني وأربعين ساعة... حاولنا عبثاً إنذار الحراس بالطرق على أبوابنا بشدّة، لكن لم نلق جواباً على نداءاتنا القلقة إلا الصمت.

بقيت إلى جانب هذا الطفل الراقد على حصير قذرة، معلقاً بين الموت والحياة، دون أن أعلم هل سنبقى نحن أحياء أم سنموت... تأمّلت هذا الولد الصغير الذي أراد أن ينتحر، نظرت إلى هذه الزنزانة ذات الجدران الرطبة وفكرت بمعاناة المعتقلين في المعسكرات زمن الحروب... كنت أجهل أننا مانزال في المراحل الأولى من رحلة العذاب؛ فنحن نتواسى في شقائنا بقضاء معظم ساعات النهار معاً. إنّما بعد محاولة انتحار عبد اللطيف الفاشلة بات من الضروري معاقبتنا على كل تلك الضجة التي أحدثناها طلباً للمساعدة.

منذ ذلك الحين فُصِلَ بيننا ليلاً ونهاراً. بنيت جدران في كل مكان لعزل مختلف الزنزانات بشكل أكثر إحكاماً. بقيت مليكة ومريم وماريا وسكينة معاً، طالما حافَظْنَ على الهدوء؛ أمّا في حال تمردّهن فيفصل بينهن. حليمة وعاشورا وحدهما يحقّ لهما التنقّل بين زنزانة وأخرى لحمل صواني الطعام في الأوقات المحدّدة.

أعتقد أنّ الإنسان، في المآسي وفي الأوقات الصعبة، يكتشف في نفسه جرأة غير متوقّعة. يستنفر من أجل بقائه على قيد الحياة وسائل لاتخطر بالبال؛ وتنبثق في ذهنه أفكار مدهشة. يُخيَل لمن يلاحظ وضعنا أننا نفضل الموت. بالعكس، كنا متعلّقين بالحياة ووجدنا ألف ذريعة لتحمّل السجن والعزلة.

عندما يخرج أحد أولادي من زنزانته ويمر أمام بابي المقفل، أسكب الماء على بلاط الأرض وتحت الباب مما يشكّل صفيحة برّاقة عاكسة تمكّنني من رؤية وجهه... إنّما كنت ألاحظ ما يثير ذعري: النحول والهزال على وجه كل منهم! خاصة رؤوف، فقد غدا جلداً على عظم...

في أوّل يوم من وصولنا وجدت في الفناء خرطوماً لرشّ المياه؛

أخذته دون أن أعلم ماذا سأفعل به. أخذت منه قطعاً بطول متر ونصف إلى مترين لكل منها، مددناها عبر الجدران، وبذلك تمكّنا من الاتصال بين زنزانة وأخرى. كانت تلك القطع بمثابة خطوط هاتفية.

حَسَّنا هذا النظام فيما بعد. سبق للحراس مصادرة شبكة الهاي ـ فاي، لكنني تمكنت من الاحتفاظ بالبافلَين(*) اللذين كنت أستخدمهما كمنضدتين صغيرتين بعد تغطية كل منهما بقطعة قماش صغيرة. كان كل بافل يحوي عدة مكّبرات صوت؛ وخطرت عندئذ لرؤوف أن يستخدم هذه الأجهزة لتطوير منشأة الاتصال بيننا؛ وذلك بوضع مكبّر في كل زنزانة، والربط فيما بينها بسلك كهربائي يتصل مباشرة بالقواطع الكهربائية.

طلب مني رؤوف فتح كل بافل وتحرير المكبرات وتفكيك القطع الموجودة فيه. قضيت نهاراً كاملاً في هذا العمل بين تفكيك وتجميع، واستعادة الأغشية الحسّاسة. وجب بعد ذلك توزيع هذه المواد على الزنزانات. عمدت إلى تخبئتها في أطباق مغربية بالقرفة نقلتها حليمة بين زنزانة وأخرى. استخدمنا لنقل التيار الكهربائي بضعة نوابض انتزعناها من أسرّتنا، وركّبناها عبر الجدران. لكن هذا الحلّ لم يكن مُرضياً؛ فالصوت لايصل بوضوح، ومن الصعب إخفاء التجهيزات في حال مفاجأتنا بالتفتيش.

اكتشفت بالمصادفة وسيلة لتحسين التقنيّة؛ فقد أغرم عبد اللطيف بشاحنة مرسيدس لاحظها من أحد الثقوب؛ وحاول أن يصنع علبة مماثلة لها بما يتيسّر له من مواد: خيوط، ورق، كرتون؛ يجمع مختلف العناصر بمادة لاصقة يعدُّها من الطحين. وفي يوم وجدته أمام حقيبة: يقطع من أجل لُعبه داخلَ البطانة الحريرية السمراء الفاتحة بمقصّ. رأيت عندئذ نابضاً صغيراً يبرز... كان حرف الحقيبة محشواً بنوابض صغيرة دقيقة جدّاً ومتراصة سحبتها من حقائبي واستخدمناها نواقل كهربائية خفيّة وفعّالة.

أتاحت لنا هذه الطريقة القديمة أن نتواصل، فمكّبرات الصوت

(*) بافل Baffel: صندوق يحوي عدة مكبرات صوت. ويستخدم اثنان منه في شبكة الهاي ـ فاي لمنع تداخل الموجات الصوتية فيما بينها ـ المترجم.

قامت مقام الميكروفون. أمكننا بوساطة هذه الشبكة أن نستمع معاً إلى البث الإذاعي الصادر عن جهاز راديو في زنزانة رؤوف؛ وقد تمكّنت من الحصول على هذا الجهاز الترانزيستور، بفضل سلسلة ذهبية تعود إلى أوفقير أعطيتها لأحد الحراس طالبة منه أن يشتري لي جهازاً يستطيع التقاط محطة فرنسا الدولية RFI. كان متساهلاً وأتاني بجهاز مناسب، وقد أمّن لنا بطاريات جديدة كل شهرين وهكذا أمكننا أن نستمع إلى البث الإذاعي الفرنسي؛ تسلية رفعت من معنوياتنا خلال سنين.

مع الزمن بدأت الرطوبة تقرض ببطء مكّبِرات الصوت وتتلفها واحداً بعد الآخر. كان لدينا لحسن الحظ ثمانية مكبّرات في البافلين مما مكّننا من استبدال الصالح بالتالف. ثم ندعك القديم بعلب الكبريت للتخلّص من الرطوبة، ونفكّه نازعين بعض الأغشية فيصطلح الأمر، ونرى الأشياء التالفة تستعيد قدرتها على العمل رغماً عنها، فيخف قنوطنا.

نستمع إلى البث الإذاعي، إنّما كنا أكثر توقاً إلى الاستماع لمليكة وهي تبثّ لنا عبر تلك الشبكة مسلسلة روائية انبثقت من مخيلتها المبدعة...

«... في قرية تغمرها الثلوج ضمن روسيا القرن التاسع عشر، اغتصب أمير شاب فتاة فلاحة ونتجت عن هذه الجريمة ولادة طفلتين، إحداهما شقراء والأخرى سمراء... وتمر السنوات. يفقد الأمير أهله، تحلّ عليه اللعنة ويشعر بالوحدة، يعيش في كَنَف جدّته ويكتشف أنه والد الطفلتين. يريد أن يتزوج تلك التي اعتدى عليها سابقاً، لكنها ترفضه وتتزوج ثانية من أحد الجنرالات...».

تتطوّر الرواية مع مرور الليالي، وتتعدّد شخصياتها، وتتخلّلها مفاجآت غير متوقّعة، ونتعلّق كلّنا بما تنطق به شفتا مليكة وإبداعها في القصّ. ويعطي كل واحد رأيه في تطوّر أحداث الرواية. هل يجب قتل هذا؟ هل يجب أن تتزوّج تلك؟ وهل يجب أن يذهب ذاك الآخر في رحلة؟ نلاحق مليكة لتغيّر الرواية وفقاً لما نتمّناه. هذه المسلسلة في النهاية تعود إلينا كلّنا؛ فقد غدا واقعنا هذا الاستيهام الروائي، خاصة ونحن نتواصل بالصوت؛ والانقطاعات الوحيدة لتطوّر شخصيّاتنا

الروائية ناتجة عما تعانيه مليكة من آلام في فترة حيضها الشهرية، إذ يتعذر عليها رغم توسّلاتنا أن تنطلق معنا في الخيال إلى سهوب روسيا. ويبقى الميكروفون صامتاً... وتعتبر تلك الأيام فترة حداد بالنسبة لنا.

لكن مليكة تستعيد بسرعة سياق مسلسلتها، وتقوم أصغر البنات، سكينة، بكتابة ما تمليه عليها بخطّ منمنم جميل.

أردنا، مهما كلّف الأمر، أن نحتفظ بأثر من روايتنا الجماعيّة. رجونا *المخزّنين* وقبّلنا أيديهم لنحصل على قلمين من الحبر الناشف كل شهرين؛ وكنا نصنّع حاجَتنا من الورق انطلاقاً من علب الكرتون التي يُنقَل إلينا الخبز بوساطتها. نبلّلها بالماء وندعكها بالأيدي إلى أن نحصل على لفافات من ورق رقيق يمكن الكتابة عليه ـ إنّها أوراق «البردي» بالنسبة لنا ـ ومنها نُعِدُّ دفاتر الكتابة لتدوين روايتنا.

يتوقّف البث أحياناً في شبكة الإرسال بشكل مفاجئ. يصفر رؤوف لنشير لمليكة بالصمت قبل اللجوء إلى إصلاحات عاجلة. هذا الصفير نبّه الحرس فجاؤوا في أحد الأيام يسألون ابني عن سبب قيامه به خلال الليل. أجابهم دون ارتباك:

ـ إن الفئران تضايقني، وهي تهرب عندما أصفِّر.

دام هذا الوضع ثمانية أعوام. في النهاية تجمّع لدينا كيس ممتلئ بأوراق تغطيها أسطر كتبتها سكينة بخطّها الدقيق. ثمانية أعوام دون أن نتمكّن من اللقاء وجهاً لوجه، نعيش عبر شبكة بثّنا مسلسلة روائية ابتكرناها عن روسيا القيصرية.

* * *

بعد خمس سنوات من وصولنا إلى بير جديد، خمس سنوات كنا خلالها منعزلين داخل السجن دون خروج إلا في نزهة ضمن الفناء الصغير. هذه النزهة التي تتمّ لكل منا على انفراد. يخرج رؤوف أولاً من التاسعة إلى العاشرة، ثم يأتي دور البنات من العاشرة حتى الحادية عشرة. ثم دوري مع عبد اللطيف ورفيقتي محنتنا اللتين تنتهزان الفرصة لنشر الغسيل ليجف على أحد الأسلاك الممدودة في الفناء، ولجمع دقاق الحطب لإشعال النار.

ذكر لي أحد الحراس: عندما تسيرين ذهاباً وإياباً في الفناء تحت أشعة الشمس، يأتي بن عايش أحياناً متستّراً إلى إحدى الزوايا ليتأمّل تأثير إجراءاته متوقّعاً أن يراني منهارة متألمة.

استمعنا عن طريق الإذاعة مساء 25 كانون الثاني (يَناير) 1983 إلى نبأ وفاة أحمد دليمي. عقب حادث سير، وفقاً للرواية الرسمية المعلنة، لكن الناس لايخدعون: عصف انفجار بسيّارته بلغ من عنفه - وفقاً لما ذكره شهود عيان - أن طقم أسنانه الاصطناعية وُجِد معلقاً على أغصان شجرة... كان مقرّراً أن يزور فرانسوا ميتران المغرب في اليوم التالي. لم يتغير شيء من برنامج الزيارة الرسمي، كأن جرذاً مات في العشيّة. بضع كلمات مُسكّنة من العاهل عن «وزيره الأمين»، ومع المأتم الذي وجب إقامته بحضور ولي العهد لمراسم الجنازة، انتهى كل شيء حتى الكلام. واستمرّت احتفالات زيارة الرئيس الفرنسي في مراكش... مهيبة، رائعة!

لم يقعوا في الخطيئة الرعناء التي ارتكبوها عند تسليم جثة أوفقير مكشوفة: أرسلت جثة دليمي إلى عائلته في تابوت مرصّص لم يجرؤ أحد على فتحه؛ وكمّت أرملة دليمي فمها، فهي عليمة بما حدث لنا...

شعرنا كلّنا أن موت دليمي كارثة. إذ أنّه أغرقنا في مزيد من القنوط. النمط السيّء يستمرُّ، ولاشيء يدلّ على ضعف النظام أو تبدّل موقف الملك. لم أكن أحسّ بأي تعاطف مع دليمي؛ فهو من قتلة أوفقير، وهو رجل عاقّ، جشع، انتهى أخيراً إلى أن يفقد صوابه سعياً وراء المال. إنّما في الفترة التي كانت قضية سجننا تابعة له لم يضيّق علينا؛ وأمنّ لنا شروط عيش مقبولة. كنا على الأقل لانعاني الجوع.

إذا كان بالإمكان السماح بتصفية شخصيّة في أوج مجدها، وهي محاطة بحرسها الخاص، ولها الطائرات الطوّافة لتنقلاتها. إذا أمكن سحق تلك الشخصيّة بالطريقة التي سمعنا بها دون أن يجرؤ أحد على إبداء أي احتجاج؛ فالأمل بالنسبة لنا قد غدا ضعيفاً جداً، فنحن منسيون من العالم كلّه.

IX

فرار اليأس

تتابع الرؤساء في فرنسا، ولم يتبدّل شيء بالنسبة لنا، بومبيدو، جيسكار ديستان، ميتران... كان جيسكار مقرّباً جدّاً من الحسن الثاني، كنّا نعلم ذلك، وبنيت عليه آمالاً كبرى. اعتقدت خلال مدة طويلة، وحتى بعد خروجنا من السجن، أنّه لم يحاول أن يفعل شيئاً لمصلحتنا، وحقدت عليه. لم أفهم لماذا بقي هذا الرجل صامتاً، رغم ادعائه الصداقة لملك المغرب، ولم يُبد أي احتجاج تجاه قضيتنا باسم حقوق الإنسان. بيد أن رئيس الدولة الفرنسية السابق كشف حديثاً، في مقابلة صحفية أنه تطرق إلى وضعنا مرتين أمام العاهل المغربي، وتهرّب الملك في المرة الأولى من الموضوع؛ وأبدى غيظه عند المحاولة الثانية.

أما ميتران فأنا أعلم أنه ينظر إلى مصالح فرنسا قبل الاهتمام بأيّة قضيّة إنسانية. نحن لانمثل شيئاً بالنسبة لهذه المصالح. لاعلاقة لنا بالموارد النفطيّة، ولاتوجد شخصيات ذات وزن سياسي تدافع عنّا. بالمقابل كافحت السيدة ميتران من أجلنا، وبسبب ذلك، وبسبب قضية الصحراء أيضاً، اختلفت مع الحسن الثاني إنّما دون تحقيق نتيجة ملموسة ذات أثر على مجرى حياتنا.

اقترب حلول العام 1986 وهو يمثّل أملاً كبيراً للمعتقلين أمثالنا. إنّه الذكرى الخامسة والعشرون لاعتلاء الحسن الثاني العرش. بهذه

المناسبة لن يتأخّر عن إعطاء الدليل على تسامحه، فيطلق سراح المساجين السياسيين ويتذكّرنا أخيراً، نحن المنسيين في «حدائق الملك».

مضى علينا أربعة عشر عاماً في السجن. أربعة عشر عاماً، ونحن نطرح على أنفسنا دون انقطاع الأسئلة نفسها. ماذا نفعل في هذا السجن؟ ماهي جريمتنا؟ لماذا ينسوننا؟ ولأي سبب يعذبوننا؟

مع مرور هذه المدّة الطويلة لم أعد أستطيع الصمود. ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل أعطيهم بزّة أوفقير؟ إذا كان هذا كل ما يطلبون فأنا مستعدة لأعطيهم إياها. فأية أهميّة لها بعد أربعة عشر عاماً؟ هل أستمر في تحمّل العذاب من أجل إخفاء بزة تعفّنت كلياً؟ لم أكن أعلم أنّ هذا الدليل المثبت للجريمة قد اختفى منذ سنوات.

كان الأولاد يقترحون عليّ أن أستعطف الحسن الثاني وأسأله الرحمة، وأن أطلب على الأقل زيادة مخصّصاتنا الغذائية لأنهم يتضوّرون جوعاً.

أجبت على الدوام: كلا لن ألتمس شيئاً. لو أعلم أي احتمال لنجاح مسعاي لذهبت جاثية على ركبتيّ إلى أن أدميهما، أطلب الرحمة لكم، لأنكم أنتم المضطهدون. لن أطلب شيئاً لنفسي، ويمكنني أن أموت جوعاً. لكنني أعلم أن توسلاتي، حتى من أجلكم، ستكون دون جدوى. إنّهم يتشوّقون لرؤيتي ذليلة، لذلك لن أمتعهم بهذه الرؤية.

أمعن الأولاد الفكر بعد أن كبروا علّهم يهتدون إلى أسباب موضوعية لعذابهم المبرّح؛ قالوا لي:

ـ أنت سبب كل هذا. أبيت الخضوع، ولعلك تفوّهت بكلمات أغاظت الملك.

أمعنوا في سؤالي ساعين إلى كشف يبيّن أسباب وضعهم.

ـ أمي، قولي لنا حقيقة ما حدث مع الحسن الثاني. أي خلاف بينك وبينه؟ ماذا قلت له؟ ماذا فعلت له؟

كانت هذه الأسئلة تزيد من إغراقي، كل يوم، في العزلة. اغتظت وتألّمت لاكتشافي أن أقرب الناس لي، أولادي، يمكن أن يشكوا بي، وأن يفكّروا بأنني ارتكبت إساءة خفيّة سببت معاناتنا.

صحيح أنني في السابق لم أحجم عن التصريح بكل جرأة عن أفكاري حتى أمام الملك. لكنني لم أتوصل إلى فهم ما يمكن أن يسبّب أربعة عشر عاماً من الاعتقال في هذه الزنزانات. لم أعبر عن بُغض، أو أقم بأي عمل غير مشروع، أو أشترك في مؤامرة، لاأعرف الضباط الذين قاموا بمحاولة الانقلاب، ولم يكشف لي زوجي شيئاً عن هذه المحاولة.

كل ما أستطيع أن أفعله هو طمأنة الأولاد: يجب ألا يشكْوا، فالذكرى الخامسة والعشرون لتنصيب الملك ستشهد نهاية آلامنا. حتى لو أظهر الحسن الثاني فظاظته، حتى لو أراد أن يظهر بمنتهى القسوة معنا فإنّه لايستطيع الاستمرار في اضطهادنا بعد ذلك التاريخ الرمزي.

بالفعل، تحسّنت شروط اعتقالنا بعض التحسن، بدءاً من شهر آذار (مارس). أخيراً أمكننا أن نجتمع خلال النهار مع السماح بأن نتنزّه معاً في الفناء الصغير كل صباحٍ لمدة ساعتين.

لم نتواجه منذ ثماني سنوات؛ تحادثنا خلالها بانتظام عبر الشبكة «الهاتفية» المؤقتة التي ركّبناها بشكل مرتجل. لكنني لم أر طوال تلك السنوات بناتي، والآن لم أعرفهن، تركتهن فتيات، وهاهنّ أمامي نساء لقد تحوّلن تماماً. إنّها تعرّفات صعبة... اتخذنا عادات سجناء الأشغال الشاقّة الذين ألفوا البقاء منعزلين، يرتدون الأسمال البالية، ويتهالكون على حصائر القشّ العتيقة، لايعملون شيئاً، وأعينهم زائغة مسمّرة في السقف. كانت وجوهنا كالحة، مقطّبة؛ يشوّهها توتّر الأعصاب، ومع ذلك حاول كل منا أن يطمئن الآخر:

ـ كلا، لابأس، إنني في حالة حسنة، لاتقلقي.

بذلنا جهوداً يائسة لنبدو بمظهر حسن، ولنعيد عقد تلك الرابطة من التضامن التي وطّدت اللحمة بيننا زمناً طويلاً.

هذا التحسّن الطارئ على وجودنا أعاد لي الثقة. أنا على حق إذن في أن آمل تحريرنا بمناسبة ذكرى الجلوس على العرش. لسنا منسيين تماماً. قريباً ستُفتح أبواب السجن. إنني متأكّدة. للأسف، تعاقبت الأشهر، نيسان، أيار، حزيران، تموز... مرّ الوقت ونحن ننتظر

عبثاً العفو الملكي؛ كما أن جرَايتَنا(*) بقيت على حالها شحيحة مقننة.

في شهر تشرين الثاني (نوڤمبر) أدركنا أن الوضع سيبقى على حاله. لم يبق أمامنا من الآن فصاعداً إلا أمل واحد: الفرار. لكن كيف يمكن الفرار؟ غدت هذه الفكرة تلازمنا كليّاً، وتشغلنا في كلّ لحظة. أخذنا نتحرّى بدقّة كل زاوية في سجننا بحثاً عن الوسيلة الأكثر أماناً للهرب، نضع الخُطط المختلفة؛ نتخلى عنها، نعود إليها مجدّداً لنعدّل فيها أو نغيّرها...

لم يَذُق عبد اللطيف، وهو عندئذ في السابعة عشرة والنصف من عمره، أبداً طعم الحرية؛ لكنه يترصد أمارات الحياة عبر نوافذنا المسدودة.

في حُجيرة استخدمناها حماماً نغتسل فيه، تلاحظ كوّة قديمة مغلقة بشبك مضاعف، ومسدودة بلوح من الصفيح المتموّج المثبّت على إطار من خشب. تسلّق عبد اللطيف إلى قرب هذه الكوّة محاولاً أن يُحدث فيها ثقباً ليشاهد مايجري في الخارج. حاول بوساطة لهب شمعة أن يُشعل النار في إطار الخشب... لم يكن يعلم أن حارساً يقبع قرب الجدار الخارجي لتلك الحجيرة، تحت الكوة المغلقة. شمّ الحارس في الحال رائحة الخشب المحترق، وأدرك أن شيئاً غير طبيعي يحدث في الداخل، فأنذر رفاقه الذين اندفعوا ليفاجئوا عبد اللطيف جاثماً قرب الكوة يحاول أن يزيح بخفة قطعة الخشب المحترقة. غدونا بعد هذه المغامرة متّهمين كلّنا بمحاولة الفرار...

في الحال صادروا منا الشموع، وجميع الأدوات القاطعة، وقرروا فصلنا من جديد نهائياً. منذ اليوم التالي بقيت أبواب زنزاناتنا مغلقة، وحكم علينا مجدّداً بالعزلة. مرة أخرى اقتلعوا مني أولادي؛ ولم أستطع أن أتحمل ذلك؛ قلت:

ـ إذا لم تجمعوا شملنا، سأعلن الإضراب عن الطعام...

توقفت عن تناول الأغذية بتاريخ 13 تشرين الثاني (نوڤمبر) 1986 .

(*) الجرَاية Pitance: مايناله الجندي في الثكنة أو الراهب في الدير أو الأسير في المعتقل من كمية طعام محدّدة يومياً ـ المترجم.

بعد خمسة أيام لحق بي رؤوف، ثم جرت على منوالنا مليكة وماريا وسكينة... في البدء، أردت أن أجنّب مريم وعبد اللطيف هذا الإضراب. لكنني فكّرت سريعاً بأن حراسنا سيتصوّرون عند إدخالهم الطعام لهذين الولدين أننا سنأكل خفيّة. لذلك طلبت من عبد اللطيف أن يشترك في إضرابنا، لكنه كان يعاني من مشاكل إفراز الصفراء ولايتحمل بقاء معدته فارغة مما يسبّب له إقياء مستمراً. أمّا مريم فإن نوبات صرعها تحول دون قيامها بهذه المحاولة الشاقّة، عدا عن أنها تُعَدُّ شبه صائمة يومياً لقلة شهيتها.

في البداية كنت أقضم قطعة سكر صباحاً، لكن أولادي قالوا لي:

- لايبدو عليك النحول، ويجب أن تمتنعي عن تناول السكر.

امتنعت عندئذ عن تناول أي شيء، باستثناء قليل من الماء. وكان حراسنا يحضرون أربع أو خمس مرّات يومياً ليطمئنوا على أننا مانزال على قيد الحياة...

طلبت رؤية أحد المسؤولين لكن ضابط المُخزّنين لم يرغب أن يعطي كبير أهمية لاحتجاجنا:

- يمكنك أن تذكري لي ماتريدين التصريح به للمسؤول.

- كلا، أريد التداول مباشرة مع أحد المسؤولين.

دامت هذه المناورة حتى 26 كانون الأول (ديسمبر)؛ أي ثلاثة وأربعين يوماً. لم أتناول خلالها شيئاً. خلال هذه الأسابيع الستة لم يخطر ببالي مرة واحدة أن أغشّ، أو أن يدخل فمي أيّ شيء مهما كان تافهاً، أو أن أفكر بشيّ فأرة. خلال ثلاثة وأربعين يوماً لم أحلم إلا بأشياء طيبة، ولم أشمّ إلا الروائح الطيّبة. برمَجت هذا الإضراب وائتلف جسمي دون شك مع إرادتي. بيد أنني بعد ثلاثة أيام لم أعد أشعر بالجوع، أتصور أنني آكل في حلم يقظة، لا أرى فيه إلا أطباقاً تُطبخ على نار هادئة وبكل تأنٍّ. كان الأمر غريباً جدّاً. لايمكن أبداً معرفة الطبيعة البشرية بحقّ، ولاكيف سيكون رد فعلها قبل أن توجد في مجابهة الوضع. لاحظت جيّداً جسمي، ورأيت كيف يمكن الصمود خلال كل تلك الأيام، وكيف تبرز الإرادة، والرغبة، والتوق للحياة وتجنّب الموت بغباوة. يجب على الطبّ أن يهتم بمثل هذه الأحوال.

غريب ومذهل الكائن البشري في تصرّفاته. خلال ثلاثة وأربعين يوماً تابعت الاغتسال بالماء البارد كلّ صباح، وترتيب سريري؛ إضافة إلى أنني كنت أنام كطفل في المهد. لا أتصور مثل هذا الرقاد السعيد والمعدة فارغة إلا في جنة الخلد. الانعكاس السلبي الظاهر: نزيف اللثّة المستمر. أضع مساءً على عنقي منشفة فأجدها في الصباح مضرّجة بالدم.

في اليوم الثالث والعشرين نزفت لثتي إلى درجة شعرت فيها بطعم الدم ورائحته الكريهة باستمرار في فمي. طلبت من الفتيات شيئاً يزيل هذا الطعم الذي لايحتمل من فمي. وافتني إحداهن عبر الفجوة الصغيرة بين زنزانتينا بُربَعي برتقالة. أعتقد أنني لم أذق في حياتي شيئاً ألذّ من هاتين القطعتين. خلتهما وأنا في زنزانتي من ثمار الجنّة، شيئاً من الأساطير والمعجزات، الطبق الألذّ طعماً في الدنيا. لكن تبكيت الضمير أعقب هذه المتعة. قلت في نفسي ألا يعني هذا أنني كسرت صيامي وتوقّفت عن إضرابي... لكن كلّا، رُبعا برتقالة لايشكّلان غذاءً! بيد أنّهما من الناحية المعنوية أنعشا حياتي وقويّا عزيمتي. أنا ماأزال إذن قادرة على الإحساس بشيء ما! أحسَّست بلذة فائقة وأنا ألتهم هاتين القطعتين من الثمار حتى أنني قلت في نفسي: «رغم كل هذه المعاناة، لم تصِلي إلى درجة الموت».

ألحّ آمر *المخزّنين* على أن نوقف إضرابنا بأسرع مايمكن. حمل إلينا لحوماً لم نَرَ في السجن أجود منها، وثماراً وخبزاً... وبكميات وافرة.

قال لي: إن متّم ستدفنون في الحديقة؛ وتستقرّ بعدها رصاصة في عنقي؛ لذلك أتوسّل إليكم أن تأكّلوا...

على كل حال، بدا أن بإمكاننا الاستمرار في الإضراب عن الطعام إلى ماشاء الله، دون أن تحرّك الرباط ساكناً... لم يرد أيُ ردّ فعل بعد ثلاثة وأربعين يوماً. لم نلقَ أي جواب على صرختنا المخنوقة. الحرّاس وحدهم كانوا يأتون، يلاحظوننا بهدوء ودَعَة، يترقبون، على الأرجح، نهايتنا القريبة.

أمام هذه اللامبالاة التي تحيط بنا، قررنا أن ننتحر جماعيّاً. إنّه نداء الاستغاثة الأخير. لم نُرد أن نموت حقاً، لكن قد نصل بهذه الوسيلة لإسماع أصواتنا ونحن مدفونون أحياءً.

كنت أحتفظ بمرآة قديمة في الزنزانة التي سُجنت فيها مع عبد اللطيف. كسرتها وطلبت من ابني أن يقطع لي أوردة معصمي... أجرى قطعة الزجاج في معصمي، خدش لي الجلد، حزّ بكل طاقته دون جدوى. لم يَسِل الدم. قُطعت الأوردة ولم تخرج منها إلا بضع قطرات. قد يكون السبب الحرمان، وكأنّ دمي قد توقف عن الجريان. غير أنّه ينزف كل ليلة عبر الأنسجة المخاطية المشكّلة للثّتي. أمّا الآن ومعصماي مجرّحان فلا يسيل إلا خيط دقيق أحمر يتوقّف بسرعة. ألححت وقلت لابني:

- حتى لو رأيتني أغيب عن الوعي، يمكنك الاستمرار...

أثخن المعصمين بالجراح، إنّه أمر رهيب بالنسبة إليه دون شك... تضرّجت المنشفة بالدماء دون أي شيء آخر. لم يتمكن عبد اللطيف أن يفعل أكثر من ذلك. نظرت إلى جراحي العميقة، ورأيت ابني وقطعة الزجاج في يده. اختلط كل شيء أمامي فجأة في منظر مشوّش ضبابي؛ وأغميَ عليّ.

من جهته تناول ابني البكر، رؤوف، مقصاً كان يحتفظ به سرّاً، ودون تردّد عمد إلى شقّ أوردته في العمق، وفقد من جرّاء ذلك نحو ليترين من الدم. انتشرت بقعة هائلة من الدم على بلاط زنزانته... وسقط سريعاً بلا حراك؛ إنّما وبمعجزة توقّف النزف، وانغلقت الجراح.

أتى الحراس في عتمة الليل بعد سماع أصوات استغاثة البنات... دخلوا إلى زنزانة رؤوف، وسأل أحدهم ببرود زميله وكأنه يتحدّث عن حيوان جريح:

- هل مات.

أجاب الآخر باللهجة غير المكترثة نفسها: كلا، كلا، لم يَمُت.

غادروا المكان سريعاً ليعودوا عند ظهر اليوم التالي، ليتأكدوا من أن رؤوف مايزال على قيد الحياة؛ وخلال الأيام الثلاثة التالية كان أحد

الحراس يأتي بانتظام ليفتح فم رؤوف ويجرّعه بالقوة كأساً من الحليب الطازج. أجبره على أن يتغذّى، لكنه رفض أن يعنى بجراحه المفتوحة قال:

ـ تلقينا أمراً بعدم الاهتمام بكم، وعدم إعطائكم شيئاً، إن ضمدنا الجرح وحضر أحد المسؤولين يجب اقتلاع الضماد في الحال.

هذه هي التعليمات، وهي ملزمة لهم؛ ومع ذلك وافقوا على تنظيف الزنزانة فالدم المتخثر ينشر رائحة كريهة. أخرجوا الحصير الملوّثة إلى بهو صغير ملحق بالزنزانة، وبينما كان *المخزّنان* ينظفان البلاط قام الرائد بُوّرو بمراقبتهما وهو يتحدّث مع أحد زملائه، كانا مقتنعين بالتأكيد أن رؤوفاً سيموت، وقد أشارا إلى ذلك في تقرير لرؤسائهما عن طريق التسلسل، وتلقيا، على الأرجح، جواباً بأن يتركاه يقضي نحبه...

كان رؤوف قد استعاد وعيه، وراح يتابع بانتباه كل كلمة يتفوّهان بها، أحسّ بأبواب السجن تزداد انغلاقاً وتضييقاً عليه وعلينا كلّنا.

سأل الزميل: لكن ماذا يريدون لهم. إنّه أمر مريع حقاً إضراب هؤلاء الأشخاص عن الطعام منذ أكثر من شهر دون أن يحضر أحد للسؤال عن مطالبهم. سيهلكون...

ـ أجاب بورو: ليهلكوا، على كل حال لن يستطيعوا الخروج من هنا إلا بمعجزة.

ـ لكن ما السبب؟ ماذا فعلوا؟

ـ إنّهم مطّلعون على أسرار كثيرة.

ـ لو أنني أمّهم لانتحرت لعلّ في ذلك خلاصاً لأولادها...

عقّب بورو عند ذلك:

ـ على كل حال، حتى لو انتحرت، فإنهم لن يخرجوا. مضت عليهم سنوات هنا، ولن يسمح أحد بمغادرتهم.

ـ مع ذلك، لن يبقوا هنا طوال حياتهم!

ـ يجب أن تعلم أنّهم لن يخرجوا مادام الملك هنا.

استمع رؤوف المسكين لكل هذه العبارات، وجرّ نفسه، عندما ذهب الحراس، إلى الثقب الذي يتمكّن منه أن يُحدّث حليمة وعاشورا:

ـ أخبرا مليكة أننا سنبقى سجناء هنا مدى الحياة!

سمعت من خلال الأنابيب جلبة تثير الفضول، همسات، ونحيب... طلبت من عبد اللطيف أن يقرع على الجدار الفاصل عن زنزانة البنات، إذ أنني لا أملك القوّة على النهوض. أجابتنا سُكيَنة، وهي تهمس عبر الأنبوب بصعوبة من شدّة التأثّر. ناشدتها أن تخبرني عما يجري خارج زنزانتي.

ـ لاشيء، يا أمي، لاشيء. قام الحرّاس بتنظيف زنزانة رؤوف، وهو في حالة جيّدة الآن.

ـ كلّا، يا سُكينة، إنّك تكذبين عليّ، أخبريني ماذا يحدث.

ـ أمّي، أؤكد لك...

ـ لتكلّمني مليكة!

كانت مليكة تنتحب، وهي تعاني من نوبة كآبة لن أنساها أبداً، ومع ذلك تمكّنت أن تقول لي بين شهقتين تفطران القلب: إننا مسجونون هنا مدى الحياة وفقاً لما صرّح به بورو الأثيم.

أجبتها: مايزال لدينا أمل، أعدك أننا سنخرج.

ـ كلا، يا أمّي، إنّك تحلمين، إنّك تهذين.

ـ أقسم لك أننا سنخرج من هنا. هل سيبقى الأشخاص الذين يحتجزوننا هنا إلى الأبد؟ كل إنسان فانٍ. حافظي على شجاعتك. سنجد حلاً...

ـ أي حل؟ وكيف نجده؟

ـ أضربتُ عن الطعام ثلاثة وأربعين يوماً. غداً سأنهي إضرابي. سأدفعهم إلى الاعتقاد بانتصارهم. بعد ذلك سنهيّء بجدٍّ لفرارنا.

في الواقع تحدّثنا عن هذا الهرب كثيراً؛ ورفضت الفكرة دائماً ومن أعماق نفسي. كنت أخشى أن يُقبَض على الأولاد، وأن يُعذبوا، وأن يُعدَموا كعصاة متمردين. أما الآن، وقد بلغنا أقصى القنوط، فإنني أغامر بالفرار، إذ لايوجد حل آخر: لا أحد يهتمُ بمصيرنا. مرت ذكرى

تنصيب الملك على العرش، وازداد وضعنا سوءاً. إنّنا أبرياء. لكن لاأحد يدعمنا، ليس وراءنا حزب أو أنصار في الجيش يطالبون بالإفراج عنا. تناسانا جميع الناس، بل تبرؤوا منا.

لم يبق إذن إلا الفرار، وتمتم الأولاد فيما بينهم:

ـ أمنا تهذي، إنّها تتضوّر جوعاً، ولاتعلم ماذا تقول.

كلا، أنا لاأهذي، لكنني تحت صدمة هذه الأحداث كلّها فقدت الوعي مرة أخرى. جرّب عبد اللطيف إيقاظي بتوجيه بعض لطمات خفيفة إلى وجهي، وصبّ الماء البارد عليه؛ وبما أنني قررت إنهاء إضرابي عن الطعام أعطاني قطعة من السكر، وهكذا أفقت من غيبوبتي.

نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، حضر حراسنا الكواسر ليروا ما أمسينا فيه... توجّهت بالكلام إلى بورو، فهو صاحب الرتبة العسكرية الأعلى إذ أنه رائد، بيد أنني كنت أناديه عن قصد «بالملازم» لإغاظته، قلت:

ـ ها أنا، أيّها الملازم، بعد هذه المدة الطويلة من الإضراب عن الطعام، دون أن أحظى بأيّ جواب، أقرّر الآن الرجوع عن إضرابي. إنني أدرك خطئي في التصدي لأشخاص بمثل هذه القوّة واللامبالاة بمصير الآخرين.

ـ آه، إنك تعودين إلى اتباع طريق العقل! هذا جيّد جدّاً.

خلال الإضراب عن الطعام قدّموا إلينا مزيداً من الطعام المتنوّع خلافاً لعادتهم، لإغرائنا ودفعنا للتخلي عن الإضراب. لكنهم الآن عادوا إلى الوضع السابق من حيث سوء النوع وقلّة الكمية. منذ صباح اليوم التالي وضعوا أمامنا لطعام الفطور، لي ولعبد اللطيف، قطعة من الخبز، ونصف ليتر من خليط مشبوه في أسفل قعر زجاجتين من البلاستيك: قطرات من حليب وكمية من ماء ساخن تسبح فيه بعض حبيبات قهوة، وقليل من منقوع الشعير والحمّص. بهذا يجب أن أجدّد قواي.

* * *

في زنزانة رؤوف عثروا على جهاز الراديو وصادروه. هكذا

انقطعنا هذه المرة عن العالم. ولم يبق لنا إلا فكرَة متسلطة واحدة: أن نفرّ. فكّرنا بحفر نفق. لكن في أي اتجاه؟ وبأي طول؟ ليس لدينا أي مَعْلَم.

ساعدنا القدر هذه المرّة، بأن يسّر لنا نجاحاً خارقاً، كما في إحدى روايات المغامرات الخيالية. قبل إضرابي عن الطعام اعتاد ابني أن يتسلّق بوساطة سلّم متنقل، موجود داخل زنزانتنا، إلى سقيفة تقع تماماً فوق غرفتنا. كان هذا الحيّز الضيّق سابقاً يحوي ثلاث نوافذ تطل على الفلاة المجاورة، وهي بالطبع مسدودة الآن، والحيّز بمثابة مستودع غارق في العتمة. خلال فترة صيامي بقي عبد اللطيف إلى جانبي في الغرفة، لكنه كان مشتاقاً إلى فترات عزلته في ذلك المكان القاتم في الأعلى، وعاد إليه بعد أن أنهيت إضرابي، وماكاد يصل حتى نزل وقد تملّكه الانفعال وقال:

- أمي، تعالي وانظري، يوجد ثقب صغير يتسرّب منه الضوء...

في الواقع توجد نافذة محاطة بشبك ومسدودة، يتسرّب منها الآن شعاع من نور... صعدت إلى السقيفة وتسلّقت على قفص من خشب لأرى كيف تمت تلك المعجزة. كان الزجاج خلف الشبك مدهوناً من الخارج بلون رمادي، وجاءت يمامتان تبنيان عشّاً على النافذة، وبتحريك ريش ذنبيهما على الزجاج تقشّر قسم من الدهان... توجهت إلى عبد اللطيف وقلت له:

- إنها بشرى، سننجح في الفرار.

الآن أنا واثقة من نفسي: هذه الكوّة الصغيرة التي انفتحت بتأثير ريش اليمام على الزجاج تتيح لنا المراقبة وتقدير طول النفق. إنّها علامة من القَدَر.

رأيت تحت ناظري الفناء الصغير المغلق، وإلى يساره سور بارتفاع ستة أمتار بُدئ بإشادته أثناء إضرابنا عن الطعام، وقد انتهى الآن؛ إذن يجب أن ينفذ النفق مابعد ذلك السور. بيد أنني أرى في مواجهتي جداراً آخر، وهو الذي يبدأ من واجهة المنزل حتى السور الجديد المُنشأ لحجزنا تماماً. ماتزال أحجار خفّانه ظاهرة ويمكن استخدامها مقياساً للطول لتقدير المسافة الفاصلة بين سجننا وبين

السور، سبعة أحجار... هذا يعني خمسة أمتار يجب اجتيازها أفقياً لعبور السور يضاف إليها ثلاثة أمتار وخمسة وسبعون سنتمتراً لاختراقٍ في العمق تحت أساسات المنزل المُنشأ على مصطبة ترابية عالية، ومثلها للصعود من النفق إلى الأرض البور خلف السور: في المجموع اثنا عشر متراً ونصف من أرض يجب أن تُنقب.

يجب تحقيق هذا العمل في ظروف بالغة الصعوبة، فنظام السجن المطبّق علينا ازداد قسوة، والحراسة تضاعفت. وسجّانونا على يقين، بعد فشل إضرابنا عن الطعام، بأننا سنقوم بأعمال أخرى، وهم يراقبوننا بقلق. إنّهم يأتون ثلاث مرّات في الأسبوع، أيام الاثنين والأربعاء، والجمعة، يفتشون المنزل، يقرعون الأرض بأحذيتهم الثقيلة بحثاً عن دليل أو قرينة، أو شيء ما يسمح لهم بمعرفة نوايانا. في أحد الأيام قلت لبورو بلهجة ساخرة:

ـ يشقُّ عليّ أيّها الملازم، رؤيتكم وأنتم تفكّرون بعزمنا على الفرار...

عقب على كلامي، وهو واثق من نفسه:

ـ إلى أين يمكنكم الفرار؟ إنكم محاطون من جميع الجهات، لا أحد يعلم أين أنتم، لاتستطيعون الفرار، وقد تلقيت أمراً بإنشاء سور إضافي، وقد أنشأته...

لم يستطع بورو أن يتصوّر بأيّة حيلة سنحاول الفرار، فعمد إلى تحري جميع الأدوات القاطعة والراضّة لدينا ومصادرتها: السكاكين وقضبان الحديد التي خبّأتها في مجاري المغاسل. كان الأمر الملحّ والعاجل بالنسبة إلينا إذن هو إعادة تأمين كمية من الأدوات.

خلال حملات التفتيش، كنت أبذل جهدي للتصرف بوقار واستعلاء، أتصنّع الابتسام واللامبالاة. غير أنني أمام *المُخزّنين* أحسُّ بعبق حمرة يضرّج وجنتي باستمرار، وقد أبدوا لي يوماً الملاحظة التالية:

ـ لماذا يبدو على وجهك الاحمرار عندما نكون هنا؟

إنّه الذعر الذي أحسّ به في أحشائي يصعد إلى وجنتيّ بعد ذلك أشعر بصداع طوال اليوم؛ غير أن حراسنا لايعرفون الأسباب، هذا ما

يهمني، وأنا حريصة على أن أظهر امرأة صلبة، لا أريد أن يفكر أولادي بأنني أمٌّ ترتعش أمام الشرطة، أو المخزّنين أو أيّ كائن.

عمد سجّانونا عبر رغبتهم الجامحة بتحديد حركاتنا إلى سحب السلّم الموجود في زنزانتي وإغلاق المدخل الموصّل إلى السقيفة الصغيرة الواقعة فوق غرفتي بالآجر والإسمنت؛ وهذا ملائم لي. هذه السقيفة المعزولة من الآن فصاعداً لن تكون هدفاً لرقابتهم الصارمة. في المساء نفسه، ونحن مسجونون جميعاً ومتفرقون. البنات في زنزانتهن، ورؤوف بمفرده، وأنا مع عبد اللطيف؛ يمكننا أن نعمل كل من جهته للهدف المشترك: النفق الذي سيقودنا إلى الحرية.

كانت المهمة المباشرة بالنسبة لي ولعبد اللطيف هي تأمين منفذ يتيح لنا الوصول إلى السقيفة المغلقة، من الآن فصاعداً، فوق رؤوسنا. يجب العمل من أجل ذلك في الحال: غداً يجفُّ الإسمنت، ولايمكننا فعل شيء بعد تصلّبه. وقفت على طاولة الفورمايكا، وصعد ابني فوق كتفيّ، وتوصّل إلى أن يكشط الإسمنت المثبت لآجرة كبيرة مؤمّناً ممراً ضيّقاً جدّاً بالنسبة لي، وأنا أعاني من رهاب الانغلاق(*)؛ لكن بإمكان عبد اللطيف أن ينزلق فيه مثل دودة الأرض. خُلخِلَت الآجرة وأعيدت إلى مكانها وبُلّل الإسمنت حولها بشكل منتظم للحيلولة دون تصلبه، وهكذا توافر لدينا منفذ جاهز للوصول إلى السقيفة. في هذه العليّة المعتمة تمكّن عبد اللطيف، صغيرنا الملقّب «جيو المبتكر» أن يُعِدَّ ويحفظ كلّ ما هو ضروري لمشروعنا. تمكّن أن يفكّ قضيبي نافذة سيستخدمان فأسين عند حفر النفق، كما اقتلع قطعاً من الخشب من فتحات النوافذ لتدعيم النفق تحت الأرض.

تأمّن لدينا إذن الآن مستودع مخفي نستطيع أن نضع فيه الحجارة والأتربة الناتجة عن حفر النفق. بسط عبد اللطيف على أرضية تلك السقيفة بعض أغطية الصوف العسكرية الموجودة فوق فرشنا لخنق

(*) رهاب الإنغلاق Claustrophobie: خوف مرضي يُشعر به في الاعتلالات العصبية متى انزوى المرء في مكان ضيق ـ المترجم.

الضجة التي يمكن أن يحدثها في هذا المكان المرتفع عند سيره أو أثناء نقل الحجارة إليه. إذ يجب الاحتراس: ففي المرآب الواقع تحت زنزانتنا أقام الحراس مطبخهم ويُخشى سماعهم مايحدث في الأعلى. بوساطة الأقسام الخشبية من مفارش أسرّتنا هيّأنا سلالم، وشحذنا قضبان الحديد لنصنع منها أدوات حفر حادّة، كما حوّلنا المنزل كالفئران إلى جبنة غروييير(*)؛ إذ يجب قبل كل شيء تأمين الانتقال بين زنزانة وأخرى. أجرينا في جدار زنزانتي فجوة يمكن أن ينزلق عبد اللطيف منها إلى زنزانة البنات لنقل الأكياس المملوءة بالأتربة المستخرجة من النفق لوضعها في مستودعنا السري. عمد رؤوف بدوره - وزنزانته في الطرف الآخر من البناء على بعد اثنين وعشرين متراً من زنزانتي - إلى إحداث فجوة خاصة به؛ وكذلك فعلت حليمة وعاشورا.

بدأت مليكة ومريم وماريا وسكينة، بتاريخ 27 كانون الثاني (يناير) 1987 بحفر النفق بعد رفع بعض بلاطات من أرضية زنزانتهما، لكن «صخرة» هائلة اعترضتهن، ولم يتمكنّ من زحزحتها.

قلت لهن: أغلقن هذه الحفرة، وفتشن عن مكان آخر. فزنزاتكن، إضافة إلى هذه العقبة، مكشوفة تلفت الأنظار.

وجدنَ مكاناً مناسباً في الغرفة المغلقة والعاتمة التي وضعنا فيها أغراضنا حيث يمكن عدم ملاحظة ما يتم فيها من أعمال، وبعد تحريات دامت عدة أيام تمكّنت الفتيات من رفع أربع بلاطات وهيّأن ثغرة مربّعة بضلع أربعين سنتمتراً هي مدخل النفق.

منذ ذلك الحين، ولثلاث مرات في الأسبوع - خلال الأيام غير الخاضعة للتفتيش - بدأن الحفر، غالباً أثناء الليل إلى جانب بعد ظهر السبت وهو بدء عطلة الحراس التي يقضونها خارج المقر. من جهتي أعددت فتائل مثل تلك التي كنت أراها أثناء طفولتي في دُوّارنا؛ وهي

(*) جبنة غروييير Gruyere: جبنة تصنَع في سويسرا وفرنسا وتتميز بوجود عديد من الثقوب والعيون فيها - المترجم.

تُغمَس في قليل من الزيت الموضوع في علب سردين فارغة وتُشعَل فتؤمن نوراً كافياً لسير الأعمال في النفق. صنعت أيضاً أكياساً لنقل الأتربة والحجارة. تحوّلت جميع «سراويلي»، وفساتيني، وقمصاني، وكل مالديّ من شراشف ومناشف إلى أكياس. كنت أخيط من الصبح حتى المساء، أدميت أصابعي. كانت «السراويل» عملية، بشكل خاص، لإعداد أكياس من جميع المقاييس ووسائد من قماش ـ كنا نسميها «السريجات» ـ وهي مخصصة لسدّ مدخل النفق، لأن الحراس يحضرون بانتظام لمراقبة وضع سجننا، ويجب بعد إعادة البلاطات بعناية إلى مواضعها ألا يصدر عنها صوت أجوف تحت وقع أقدامهم! إنّه عمل جبّار، ومهمة شاقّة، لاينهض إليها عادة إلّا الرجال مع أدوات ملائمة.

عندما كنت أسمع، وأنا في زنزانتي أعمال الحفر التي تقوم بها بناتي ينتابني ذعر رهيب، طاغٍ؛ ذعر يسمّر الحلق ويجفّفه. ذعر لاتعبّر عنه الكلمات، ولايفارقني أبداً. حتى اليوم تكفيني ذكرى تلك اللحظات لأشعر بقشعريرة أعجز عن التحكم بها؛ فلو أنّهم اكتشفوا أمرنا لما بقينا على قيد الحياة.

مع ذلك الرعب الذي يقلّص الأحشاء وجب أن أنقل طوال الليل أكياساً من الحجارة والحصى أناولها لعبد اللطيف ليرفعها إلى السقيفة. مأزال أتساءل كيف استطعت أن أجد القوة اللازمة لنقل خمسة أطنان من الحجارة والأتربة. من أين أتتني تلك القدرة؟ إنّها دون شكّ من إرادة التعرّف على حياة أخرى غير تلك المماثلة لانزواء جرذ قابع في جحره منعزل عن العالم.

مع الفجر يعاد ترتيب كل شيء، توضع البلاطات في أماكنها، وتخبّأ الأدوات، وتخفى الأتربة. كانت ساعاتنا قد سحبت منا، إنّما لاحظنا، أثناء وجود جهاز راديو بين أيدينا، أن حمار الحقل المجاور يأخذ في النهيق عند الساعة الرابعة صباحاً بدقة مماثلة لتوقيت منبّه. إنه بمثابة إشارة لنا. عند سماع صوت كورنيليوس ـ وهو الإسم الذي منحناه للحمار ـ نتوقّف عن العمل ونجري الترتيبات اللازمة لتمويه أعمال ورشتنا.

عندما يبدي الحراس دهشتهم أحياناً لرؤيتنا مستيقظين في مثل هذه الساعة المبكّرة نجيبهم بورع:

- إننا ننهض للقيام بصلاة الفجر.

تطلّب حفر النفق بذل جهود خارقة استمرت ثلاثة أشهر كانت جحيماً بما عانيناه من خوف مستمر يقضّ المضاجع ويُسقم النفوس.

صباح يوم جمعة من منتصف شهر نيسان (أبريل) استيقظت على ضجة أعمال تتمُّ على سطح زنزانتي... وسمعت الحرّاس يتبادلون الحديث. فهمت مما قالوه إنهم يقومون بإشادة مركزي مراقبة على السطح، أحدهما فوق زنزانتي والآخر فوق زنزانة البنات. إنّها كارثة. لولا هذا الحدث الطارئ يمكننا أن ننتظر حلول فصل الشتاء لنهرب خلال ليل قاتم دون قمر. أمام هذا التهديد الجديد يجب التصرف بسرعة؛ فبعد قيام مركزي المراقبة يغدو من الصعب جدّاً الفرار. استدعيت الجميع عبر الأنابيب، مستخدمة رموز إشارة النداء «SOS» العاجلة التي نستنفر بوساطتها في حال الخطر، وأنذرتهم:

- يجب الرحيل هذا المساء، إن بقيتم يوماً آخر، سترون مركزي مراقبة فوق السطح ولايمكنكم بعد ذلك القيام بأيّة حركة...

- لسنا جاهزين، مايزال أمامنا للنفاذ خارج السور خمسة وسبعون سنتمتراً وربّما متر ينبغي حفره؛ أجابت مليكة محتجّة.

إنه المتر الأخير... الأكثر صعوبة؛ فعند الصعود، باتجاه فتحة المنفذ تنهال الأتربة والرمال على الوجه. رغم كل شيء، وما أن انتهت الجولة التفتيشيّة التقليدية حتى هرعت الفتيات إلى الحفر طوال يوم الجمعة وصباح السبت. خلال ذلك اليوم هيّأت لهم نعالاً اقتطعتها من قماش كيس سَفَر... ودون انقطاع أتوجه إلى الأنبوب أسألهم:

- وبعد ماذا فعلتم؟ وإلى أين وصلتم؟

عصر يوم السبت تمكّن عبد اللطيف من الانزلاق في النفق وأعلنت البنات لي:

ـ تمّ الأمر، تمكن صغيرنا من رؤية النور ينفذ من فتحة الخروج.

أسعدني الخبر، وأحسست بقلبي يخفق بشدّةِ الانفعال. تقرّر الانطلاق مساء اليوم التالي، وهو نهار الأحد. وجّهت لهم بعض نصائح تؤكّد على التزام الحذر:

ـ التزموا إلى أقصى حد بالتخفّي. يوجد حراس في أبراج المراقبة. اتركوا ماتبقى عليكم فعله إلى فترة تشغيل مولد الكهرباء، فضجيجه سيغطي حركتكم. ويمكنكم أن تنطلقوا عند ذلك!

غير أن عبد اللطيف بقي في النفق لإنهاء العمل. بدا مُستغرَباً عدم مشاركته لنا في مخاوفنا، بل إن فكرة الفشل لم تخطر في باله، إنّه يغامر بحياته لكنه يبدو طلق المحيا، هادئ الأعصاب.

قررنا في آخر لحظة تحديد الفارين، في ذروة الانفعال أراد الجميع القيام بهذه المغامرة؛ لكن أليس المهم من الفرار الإعلان للعالم أننا هنا، واستنفار الرأي العام لإثارة قضيتنا؟ كانت مريم في حالة صحية سيئة لاتمكنها من الفرار، ويجب أن تبقى سُكَينة لإعادة إغلاق النفق لتؤمن للفارين مزيداً من الوقت قبل اكتشاف الأمر وإطلاق الإنذار لملاحقتهم. شَعَرت ببعض من خيبة الأمل لأنّها لن تشارك أخويها وأختيها في مغامرتهما لكنها اقتنعت بوجوب بقائها.

سيكون الهاربون أربعة: مليكة وماريا ورؤوف وعبد اللطيف. إنّها مجازفة بهذا العدد الكبير، أمّا محاولة هرب التسعة فمصيرها الفشل المحقّق.

كانت الانطلاقة الكبرى مساء يوم الأحد 19 نيسان (أبريل) 1987 . حمل عبد اللطيف معه مسدّساً، مزيّفاً بالطبع، أعدّه بمهارة من الخشب والإبونيت. وأخذت مليكّة حقّاً من الفلفل جمعته خلال أشهر لتضليل الكلاب التي يمكن أن تطلق في أثرهم. وأصرّت على أن تأخذ معها الدفاتر التي أملتها على سكينة، يوماً بعد يوم، والمتضمنة مسلسلتنا

الروائية عن روسيا القيصرية. حاولت أن أثنيها عن أخذها خشية ضياعها أثناء الفرار، لكنها لم تتراجع عن عزمها.

همسات أخيرة قبل أن يختفوا في عتمة الليل:

ـ إلى اللقاء يا أمّي. إذا لم ننجح سننتحر.

خرجوا كما توقّعت لهم، إلى ماوراء السور الثاني. لكنني لم أتصوّر أن العمال قد حافظوا على العليق والسياج الموجود من قبل... ظننت أن النباتات والشريط الشائك قد أزيلت أثناء إقامة السور. ولم يكن لدى الأولاد سكين ليقطعوا هذه العقبة الأخيرة التي صادفتهم، ووجب أن ينزلقوا من بين فُرجَات الأغصان والشَبَك، مما سبّب لهم خدوشاً مؤلمة... لم يجد عبد اللطيف وماريا النحيلان صعوبة كبيرة في المرور. غير أن الولدان الكبيران كانا يعانيان من وذمة العوز(*) التي سببت لهما تورّماً، فلمليكة بطن منتفخ ولرؤوف جذع ضخم... وبمرورهما عبر النفق الضيق واجتيازهما أشواك العليق والسياج المعدني جرياً باتجاه الحرية والحياة، بدا لهما أنهما يخرجان من بطن أمّهما مرّة ثانية.

بقيت سكينة حتى الساعة الواحدة صباحاً في النفق وهي تطل برأسها خارجاً. لكن الهاربين لم يعودوا. لقد نجحوا إذن في الفرار! عادت عندئذ بكل هدوء، وأغْلَقَت بتأنٍّ كل شيء من جهتها؛ وفعلت الشيء نفسه في زنزانتي. في الصباح كانت جميع آثار الفرار قد أزيلت. لا أحد يستطيع أن يخمن أن هذه البلاطات المرصوفة تماماً في أرضية الغرفة، وهذه الجدران المسدودة الثغرات بكل إتقان تخفي عملية فرار تمّ لها النجاح.

(*) وذمة العوز: استسقاء في البدن يبدو بشكل انتفاخ أو تورم في الأنسجة لقلة الوارد إليه من عناصر الغذاء اللازمة لتوازنه ـ المترجم.

X

بين يدي معذبِّ مفوضية شرطة بن شريف

نحو الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الاثنين وفد أربعة من حراس مساجين الأشغال الشاقة يجرون تفتيشهم المعتاد. دخلوا إلى زنزانتي؛ وعندما وجدوني وحيدة، سألوني مندهشين.

- أين الصغير؟

- إنّه في التواليت، فهو مصاب بإسهال.

فتّشوا في كلّ مكان، وفقاً للتعليمات المعطاة لهم، بحثاً عن السكاكين والأدوات التي يمكن أن نخفيها... وخرجوا راضين عن تحرياتهم. انتقلوا إلى زنزانة البنات، حيث كانت أغطية الأسرّة تغلّف لفافات من الأثواب مماثلة لأجسام أشخاص نيام. أخطرت الحراس:

- إنّهن يعانين آلام الحيض، وكما في كلّ مرة يقعن مريضات.

تقصّوا الزنزانة وخرجوا منها دون أن يلاحظوا شيئاً غير طبيعي. وصلنا في عملية إخراجنا المسرحي إلى السخرية منهم. تابعوا تحريّاتهم في زنزانة حليمة وعاشورا، فأظهرت كلٍّ تودّد وارتياح. الدقائق ثمينة: عندما سيدخلون إلى زنزانة رؤوف سيكتشفون الحقيقة. أخّرتهم بضع دقائق إضافية متذرعة بذكرى مولد الصغير، وبلوغه الثامنة عشرة من عمره منذ نحو شهرين، لكننا لم نستطع الاحتفال فيها في موعدها، وحصلت ابنة عمي عاشورا على إذن بأخذ كأس من الحليب الطازج وفطيرتين دسمتين. أخذت أتناقش معهم، بدوا منشرحين، راغبين في الكلام، غير مبالين بمرور الوقت... الوقت

يمضي. إنّها العاشرة تقريباً وأنا أفكّر بالبرنامج الذي أعطيته للأولاد: اللجوء إلى سفارة فرنسا، وفي حال تعذّر ذلك التوجّه إلى سفارة الولايات المتحدة. بعدها يمكن أن تبدأ المفاوضات بين البلد المستقبِل والحكومة المغربية. كنت أجهل في ذلك الوقت أن الحياة خارجاً قد تغيّرت بشكل جذري خلال خمسة عشر عاماً؛ لم أعلم أن السفارات غدت قلاعاً وأن الدخول إليها أصعب من الفرار من السجن.

بينما كنت أتبادل أحاديث تافهة مع الحرّاس، كنت أفكّر بأن الأولاد الآن في طريقهم إلى الدار البيضاء... وقد تمهّلت عاشورا قدر استطاعتها أمام زنزانتي. لكن حان وقت انصرافها؛ وقد نفد صبر الحراس، والمخزّنون الأربعة ينتظرون عودتها إلى زنزانتها لإغلاق الأبواب قبل أن يتمموا تحرياتهم في زنزانة رؤوف، وعندها سيكتشفون الحقيقة. إنّها ثوان فقط وهم يريدون إقفال بابي. أوقفتهم قائلة:

ـ أغلقوا باب زنزانة البنات أولاً؛ وعودوا إليّ، فلي حديث معكم.

فعلوا ماطلبته، وعادوا وقد بدا عليهم الفضول وبعض ذهول. ابتهجت لفكرة رؤيتهم عما قريب منهارين، خائري العزيمة. التفتُّ نحو رئيس هؤلاء الحمقى الرقيب العياشي الذي لقبناه المنكاش بسبب ذقنه الطويلة والمعقوفة. نظرت إليه ونطقت بكل هدوء بهذه الكلمات:

ـ هرب الأولاد، وأنا آسفة عما سينالكم من عقاب...

بدؤوا كلهم يتفجّرون بضحكة عارمة. تركتهم لحظة يستمتعون برضاهم عن أنفسهم، ثم تابعت بهدوء:

ـ أقول لكم الحقيقة. لقد هرب الأولاد.

نظروا إليّ وقد بدأ القلق يلوح في أعينهم:

ـ لكن ما دهاك أخيراً، إنّك تسخرين منا، من أين يمكنهم أن يمروا؟

ـ اذهبوا إلى زنزانة رؤوف وسترون.

هرعوا إلى هناك بسرعة، حتى أنهم نسوا إغلاق باب زنزانتي. فأطلقت عليهم كلماتي سهاماً جارحة:

ـ تحرّوا زنزانتي فابني غير موجود فيها. اذهبوا إلى زنزانة

البنات، لن تجدوا مليكة وماريا... استوعبوا هذه المرّة كلامي الجاد. سادهم الذعر والرعب والبلبلة. ردّد المنكاش حائراً:

- آه، كلا، آه، كلا، لماذا؟ كلا هذا غير ممكن.

راح المخزّنون يدورون حول أنفسهم يميناً ويساراً، ويركضون في جميع الاتجاهات، دخلوا إلى الزنزانات، ثم خرجوا منها، ثم عادوا إليها. بدوا في سحنة المحكوم عليهم بالموت. هذه هي نهاية العالم بالنسبة لهم.

* * *

خلال هذا الوقت، كان الأولاد قد تاهوا في الطبيعة، دون مَعْلَم، ودون أيّ حسّ اتجاه. كانوا يدورون ضمن نطاق محدود، ووصلوا أخيراً إلى مزرعة قريبة، هي مَعْلَم مخزّنين آخرين... وقد قصّت مليكة بالتفصيل هذا الفرار في كتاب شهادتها السجينة[1] وذَكَرت كيف أن الفارين عندما حاروا في اتجاههم اتكلوا على العناية الإلهية:

- لم يسبق لعبد اللطيف أن وضع رجله خارجاً. لندعه يمشي أمامنا، فقد يجد لنا الطريق.

مشى، ومشى، ومشى، وأخوه وأُختاه يتبعونه، أخيراً اكتشفوا طريقاً، وفي ذروة تأثَرهم قبّلوا الإسفلت. لم يسبق لعبد اللطيف أن رأى طريقاً مزفتاً، فأخذ يردّد ضاحكاً:

- الإسفلت، الإسفلت، الإسفلت...

توقّف سائق إحدى الشاحنات فأقلّهم في شاحنته حتى مشارف الدار البيضاء، حيث استقلوا سيارة أجرة - لقاء قطعة من سلسلة أبيهم الذهبية - جالت بهم في المدينة بحثاً عن الأصدقاء القدامى. منحهم واحد منهم قبل أن يطردهم قليلاً من الدراهم. استقبلهم بعد ذلك رجل شهم كريم لايعرفهم هو الدكتور الرافعي رغم مظهرهم الزري في ثيابهم البالية والوحول التي تلطخ أقدامهم، وفتح لهم باب صالته الجميلة المفروشة بالسجاد الأبيض، وقدّم لهم فطوراً شهيّاً، وأقلّهم

(1) السجينة La Prisonniere: تأليف مليكة أوفقير وميشيل فيتوسي نشر دار غراسه العام (1999) ترجمة ميشيل خوري، ونشر دار وَرْد العام (2000).

بناء على طلبهم في سيارته حتى باب أصدقاء آخرين. كان تصرّفه نبيلاً رائعاً.

هذا الطبيب هو الآن عضو في المجلس الدستوري المغربي، وقد خصّه الملك الحسن الثاني، قبل موته، بهذا المركز منوّهاً بمزاياه الإنسانية. أدرك الملك أن هذا الشخص النبيل المُنجِد يمكنه تقديم خدمات كبيرة لبلاده؛ وهذا ما سرّني. أحسّ الملك، على الأرجح، بقرب موته، فقيّم منجزات حياته: رغم قوّته وماله حلّ به المرض كالآخرين، وتألّم كالآخرين وقد يكون هذا ما دفعه ليقدّر الاستحقاق الصحيح لبوادر الشهامة ويمنحها الرعاية والاهتمام.

* * *

سبّب هرب الأولاد الاضطراب والفوضى في صفوف *المُخزّنين* فسدّوا علينا منافذ الزنزانات وذهبوا بسرعة لإعلام رؤسائهم، ثم عادوا وقد تملكهم الغيظ، وأخذوا بمنتهى الحمق والغباوة يعيثون فساداً في غرفنا وأغراضنا آملين أن يهتدوا إلى المنفذ الذي سلكه الفارّون في هروبهم. لاحظوا على جدار زنزانتي ثقباً صغيراً أثار ظنونهم: كنت في العشية قد سدّدت ثغرة المرور بخليط من الكلس والطحين لكن يبدو أن فأرة شرهّة قضمت بعضاً من هذا الخليط.

سألوني بقسوة: كيف حدث هذا الثقب؟

لكنهم بعد التفكير والتمحيص أدركوا أن هذا الثقب ضيق جدّاً بحيث لايمكن أن يمرّ منه شيء فضربوا صفحاً عن هذا الدليل، وتابعوا تحرياتهم برعونة في المنزل وهم يقلبون محتويات كل زنزانة رأساً على عقب حتى أنّهم راحوا يكسّرون جدراناً كاملة بضربات المعاول؛ وكانت مريم وسكينة في الفناء تتأملان أفعالهم متسلّيتين بإغاظتهم.

في اللحظة التي دخلوا فيها إلى زنزانتي لبعثرة كل شيء أوقفتهم، ونظرت بازدراء إلى المنكاش فغضّ من بصره؛ تابعت التحديق به ساخرة وقلت له:

ـ قف، من أنت؟ هل أنت بهيم؟ ما سبب هذا التصرف؟

ـ يجب أن أعلم من أين خرجوا...

ـ ليست هذه مهمتك. بل يجب أن تترك المنزل كما هو. بهذه

الطريقة لن تكون مسؤولاً عما حدث. سيحضر المحققون؛ فإن وجدوا المنزل غير ممسوس فلن يوجّهوا اللوم لك، بل ستقع كامل المسؤولية علينا.

ظهرت في نظرته علائم الاقتناع وقال:

ـ نعم، إنَّك على حقّ.

هكذا توقف عن التنقيب في زنزانتي، ولو ملك بعض الفطنة، لاكتشف الممر إلى السقيفة ولوجدها ممتلئة بأكياس التراب والرمل والأحجار.

ثأرت بعض الثأر من هؤلاء الرجال الذين أساؤوا إلينا كثيراً، وامتهنونا وحاولوا إذلالنا، ونظرت بازدراء إلى آمر *المخزّنين* وقسمات وجهي تعني: «سأنتقم منك عاجلاً أو آجلاً».

عند الظهر سمعت أزيز طائرات الهليكوبتر فوق رؤوسنا. رأيت بورو تتغير ملامحه ويشحب وجهه تدريجيّاً. ألقيت نظرة من شقّ صغير في الباب المصفّح فلاحظت حركة سيارات نصف مجنزرة، وسيارات جيب، وأشخاصاً يركضون في كل مكان... جيش كامل نزل في المكان بقيادة آمر المنطقة الجنوبية العسكري المسؤول عن القطّاع الذي يقع سجننا فيه.

دخل دركيون إلى المنزل مع كلب بوليسي وصاحبه. وأخذ الحيوان المدرَّب يتعقّب الأثر مابين زنزانتي وزنزانة رؤوف، ثم انطلق مع صاحبه يتحرّيان الحقول المجاورة فوجدا ثياباً وأحذية: تركها الأولاد دون شكّ أثناء هربهم؛ وشمّ الكلب بعد ذلك، كما هو متوقّع الفلفل المرشوش قصداً لتضليله فقفل راجعاً.

بعد الحقول ضاع الأثر... لم يبق عندئذ إلا أن يعود الدرك لاستجوابي:

ـ إلى أين ذهبوا؟

ـ لا أعلم.

أمسك ضابط ببورو ووجّه إليه صفعة شديدة قائلاً:

ـ أيّها الأحمق، أنت من يسّر لهم الفرار، الساعة الآن الثانية عشرة والنصف، وأنت لاتعلم من أيّ خَرْق خرجوا...

شحب لون رئيس *المُخزّنين*، وجرّب بتلاطف أن يُثبت براءته:

ـ لكن، يا سيدي العقيد، إنّهم من *الجِنّ*، والأبالسة، ليسوا كائنات بشريّة. لم أر أبداً أشخاصاً مثلهم! اسأل من تريد، فعلنا كل ما نستطيع، أقمنا سُورين، فعلنا كل شيء... أعلمناكم أنّ الروح المعنوية غير جيّدة، والأمور ليست على مايرام؟ لكنكم لزمتم الصمت، ولم نتلق منكم جواباً...

أمكن لابنتيّ من زنزانتهما أن تشهدا المحرس، وجاءتا لإعلامي:

ـ بدأ التغيير، تبدّل الحراس، حلّ الدرك محل القوى الرديفة.

في الواقع اختفى المُخزّنون العاديون، واحتلّ الدرك مواقع أمام زنزاناتنا، وحول المنزل، وفي كل مكان؛ وزاد انشغال حرّاسنا الجُدُد بمهامهم فتركونا دون طعام. إنّما لحسن الحظ، كنّا قد تناولنا صباحاً فطوراً جيّداً.

استمرّ البحث، واستمر، بحثوا في كل المنطقة بوساطة الكلاب وفصائل من الجيش، ومعدّات تحري متطوّرة. عادوا حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر مخفقين. تبينّ أن العقيد تيبَاري، الذي يقوم بأعمال البحث والتحري، كان مرافقاً عسكرياً لأوفقير. لم أكن أعرفه، ولم أره من قبل مطلقاً، لكنه بدأ حديثه معي بتهذيب جمّ، وبمنتهى الكياسة:

ـ سيّدتي، من فضلك، قولي لنا إلى أين ذهب أولادك.

ـ لاأعلم أين وصل بهم المطاف، ولا أستطيع أن أتكهن لك. دفعهم القنوط إلى الفرار... انطلقوا في الطبيعة دون هدف معين. الله وحده يعلم أين هم الآن.

في قرارة نفسي، كنت أفكر بأن شيئاً ما لم يسر وفق الخطة المرسومة، فالأحداث تشير إلى ذلك بداهة. حتى الساعة الخامسة بعد الظهر استمروا في البحث عنهم! هذا يعني أن الأولاد لم يستطيعوا اللجوء إلى سفارة فرنسا أو إلى سفارة الولايات المتحدة... لو سار كل شيء وفقاً لخطتنا لعرف رجال الشرطة أن من العبث متابعة البحث والتحري.

في مواجهتي انتقل العقيد تيباري من الهزل إلى الجَدّ، وكان يشعل سيجارة بعد أخرى، يأخذ منها مجّتين ثم يرميها أرضاً ويسحقها بطرف حذائه. أراد أن يكون ودوداً وحليماً لكنني كنت خارجة عن طوري، غير متأثرة بلهجته المسترضية. قلت له:

- أنت ترى ماذا فعلوا بنا. وجب أن ينتابكم الخجل، أنتم الجيش، عندما وجدتمونا في هذه الحالة!

كنت أرتدي بنطالاً عريضاً مرتّقاً في مواضع عدّة، وجلباباً تشوبه ألوان عديدة سوداء وكستنائية؛ وقد كان في السابق من نسيج صوفي ناعم لكنه غدا تخريماً حقيقياً. فمنذ خمسة عشر عاماً بلي لكثرة ارتدائه وغسله، لكنني حرصت على الاحتفاظ به لأنه الثوب الوحيد الذي يقيني من البرد. كنت في وضع يخيف أيّاً كان، ويُخجل أولئك الذين عرفوني من قبل. وبالفعل بدا العقيد متضايقاً جداً، وطأطأ برأسه، ولم يجب على احتجاجاتي الشديدة اللهجة.

بعد ذلك حضر رجال من الشرطة والاستخبارات العامة، وأخذوا بدورهم يطرحون عليّ الأسئلة. كانوا نحو عشرة يتناوب فريق منهم بعد آخر، واستمرّ الاستجواب حتى الساعة العاشرة ليلاً، وعندها أعلنوا لي.

- نحتاج إليك خارجاً.

كانت هي المرّة الأولى التي أخرج فيها من هذا السجن منذ عشر سنوات؛ وفي اللحظة التي اجتزت فيها الباب نادتني سكينة:

- أمّي، من فضلك، اجلبي لنا سجائر. إذا استطعت ذلك...

كانت سكينة في التاسعة من عمرها عندما دخلت السجن، ولم يسبق لها التدخين، واستبدّ بها الفضول لمعرفة الأحاسيس التي يمكن أن يثيرها التبغ.

ساروا بي إلى مزرعة مجاورة اتخذها رجال الأمن مقراً لأركان قيادتهم. دخلت إلى غرفة صغيرة مستديرة تقريباً، ملأى بالدخان وذات مظهر كئيب. إنّها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها هذه الأنوار المبهرة: بديهي أننا منذ عشر سنوات لم نحظ إلا بضوء حبابة كهربائية ضعيفة بقدرة أربعين واط تنار لمدة ساعة ونصف فقط كل مساء.

شعرت بألم في عينيَّ من أنوار النيون الساطعة في تلك الغرفة التي تتوسطها طاولة مستديرة تراكمت عليها نحو خمسين علبة سجائر من مختلف الأصناف. رجوت الشرطي أن يعطيني إحداها لأخذها لسكينة...

ـ كلا، يجب أن أستأذن أولاً.

خرج من الغرفة لحظة وتركني وحدي، سحبت عندئذ غطاء الطاولة وتناولت أول علبة سجائر وصلت إليها يدي، وزلقتها سريعاً في قلنسوة جلبابي؛ وهكذا ارتكبت السرقة الوحيدة في حياتي. كانت هذه السجائر ذات نكهة منتولية(*) ألِفتها سكينة وهي سجائرها المفضلة الآن.

فجأة رأيت من النافذة طوّافة تتأرجح لتحطّ في الحقل المجاور. نزل منها جنرال ببزة الربّان الرمادية. عرفته في الحال رغم أنني لم أره منذ خمسة عشر عاماً. إنّه الجنرال بن سليمان قائد الشرطة العام. ماكدت ألمحه حتى هرع الجنود ووضعوا عصابة سوداء على عينيّ.

أدركت تماماً لماذا لم يُرد بن سليمان أن أتعرف عليه: إنّه كالآخرين يجب أن يكون خجلاً لرؤيتي في هذه الحالة التي يُرثى لها، معروقة، شاحبة، أشبه بالأموات. عرفناه صديقاً في السابق، وأنا متأكّدة من أنّه قد تألم لرؤيتي في تلك الظروف الشاقّة. لكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ ماذا يمكنه أن يقول؟ يجب عليه تنفيذ الأوامر وإلا لحق بنا إلى السجن.

أعتقَدَ أنه حافظ على التستر بفضل العصابة التي تحجب عيني، وبادرني بالسؤال:

ـ حاجّة، اذكري لنا أين هم الأولاد؟

ـ ماذا؟ هل مازلتم تجرؤون على البحث عن هؤلاء الأولاد؟ وما السبب؟ ليسوا مجرمين. ماذا فعلوا لكم؟ ماذا فعلوا للدولة لتبحث عنهم بمثل هذه الضراوة؟

أطلقت لغيظي العنان، تفجّرت غضباً أشعرني بالارتياح، وخاصة

(*) منتولية Mentholee: معطرة بخلاصة مستخرجة من أوراق النعناع ـ المترجم.

في دفعهم إلى إضاعة وقت ثمين في تعقبهم للأولاد. فجأة، لا أدري ماذا انتابني. قد يكون ما أعرفه من أن الهدف من الفرار ووجهته غير ما أصرّح به تماماً، فاندفعت قائلة:

- إنّهم دون شكّ قد توجّهوا إلى الجزائر.

ماكدت أنهي عبارتي حتى تفرقوا، مثل سرب عصافير الدوري، ليلتقط كل منهم جهاز هاتف: رجال إدارة الأمن الإقليمي (DST)، والشرطة القضائية (PJ)، والدرك، والقوى الرديفة. انتاب الجميع سُعَار حقيقي لاتصالات عاجلة تعلن لجميع الجهات النبأ الكبير: أولاد أوفقير يهربون إلى الجزائر!

عند ذلك توجّهت التحريات إلى تلك الناحية، وتابع بن سليمان، في تصرّف لائق، التحقيق بوساطة العقيد تيباري، وتمسّكت بثبات بما صرّحت به:

- نعم، عملت على فرارهم. لن تستطيعوا الآن فعل شيء. لقد رحلوا. ابحثوا عنهم الآن في الجزائر!

تجاوزت الساعة منتصف الليل، والتحقيق يدور في حلقة مفرغة. كنت أردّد دون انقطاع... الجزائر... الجزائر... أدركوا أخيراً أنني لن أزيد شيئاً عما قلته:

- يمكنك العودة إلى زنزانتك، سنستدعيك عند اللزوم.

قلت في نفسي لأطمئن وأهدّئ اضطرابي: في مثل هذه الساعة يجب أن يكون الأولاد قد التجؤوا إلى إحدى السفارات.

أعادوني إلى سجننا وأخذوا سكينة ليحققوا معها بدورها. طرحوا عليها أسئلة عديدة. حدّثتهم عن النفق؛ لكنّهم لم يصدّقوا روايتها. شرحت لهم كيف عملت مع أخواتها، وكيف كنّ ينهين العمل كل ليلة ويموّهن بدقّة جميع المنافذ مع الفجر.

- كيف تتعرّفن على الوقت؟

- كنا نسمع نهيق الحمار كورنيليوس.

لم يقتنع أحد بقولها، وغضب العقيد تيباري:

ـ هل تحسبيننا أغبياء حمقى؟ هل ملكتم فطنة العالِم غاليليو(*)؟ هل تريدون تغيير العالم؟ هل يصدّق أحد أن حماراً ينبهكم في الساعة الرابعة صباحاً!

أصرت سكينة على القول: إنّها الحقيقة.

في تلك اللحظة تماماً، نهق كورنيليوس في الحقل المجاور. كانت الساعة الرابعة تماماً. إنّه الفجر. تبادل الجنود النظرات مذعورين، دخل في روعهم أن أرواحاً تسكننا. بديهيّ أننا في مجرى الحياة العاديّة لاننتبه لتفاصيل عديدة تجري حولنا، ولانعير أهمية لتحديد الوقت الذي تنهق فيه الحمير صباحاً.

في الواقع، لم يرد المحققون أن يقتنعوا بفرار الأولاد عن طريق شقّ نَفَق، بل إنّهم أصرّوا وهم في ذروة غرورهم المُهان على التوهّم باستفادتنا من تواطؤات عديدة؛ فجميع الأبواب كانت مغلقة بالأقفال التي لم يُكسَر أو يقتحم أيّ منها عنوة. فالمنطق السليم بالنسبة لهم يشير دون أدنى شكّ إلى إعانة تلقاها الأولاد للفرار.

لازمنا رجال الدرك باستمرار حتى عند ذهابنا إلى التواليت. كان أحدهم بديناً، تفوح منه رائحة العرق يتبعني كظلّي. رجوته أن يتركني لأذهب بمفردي إلى المرحاض. قلت له: ابقَ خلف الباب. هل تعتقد أنني سأنتحر الآن؟ هل أنت مصاب بالخَبَل؟ لن أقتل نفسي بينما الأمور تفور حولي حتى أنني لا أعلم أين أولادي.

مرّ الوقت ولم يقدّموا لنا أي طعام. وجدوا قبل ظهر يوم الثلاثاء، بعد أن نفد صبرهم، وحلّ بهم الإعياء أن من المهارة أن يصبوا جام غضبهم على هاتين المرأتين البائستين اللتين تقاسماننا المصير البائس فشتموهما وهددوهما بالضرب إن لم تعترفا... الضرب! لهاتين المسكينتين، الميتتين حيّتين. تكفي نفخة لتسقطهما أرضاً. سمعت كل

(*) غاليليو Galilee: (1564 ـ 1642) عالم فيزياء وفلك إيطالي. أيّد نظرية دوران الأرض حول الشمس ـ المترجم.

ذلك وأنا في زنزانتي، وأخذت أقرع الجدران منادية الحراس. حضروا يسألون:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريد أن أرى العقيد.

حضر العقيد بعد لحظة، فقلت له:

ـ إن ابنتي تريد أن تكشف لك عن المكان الذي خرج منه الأولاد. ولا حاجة لضرب هاتين المرأتين. هل يُضرب أشباه الموتى؟ عدا عن أنّ لاعلاقة لهما بكل ماجرى. ها أنتم منذ أربع وعشرين ساعة تتخبطون على غير هدى يميناً ويساراً. سترشدكم سكينة إلى النفق.

ذهب العقيد لينقل الخبر إلى رؤسائه، وليتلقى تعليماتهم وعاد في الحال ليقول:

ـ موافقون.

بعد نصف ساعة، دخل الجنرال بن سليمان إلى المنزل مع أركان حربه مجهّزين بآلات التصوير. أرشدتهم سكينة إلى المكان الذي بدأ منه النفق... لكن كل شيء كان قد أعيد إلى وضعه السابق حتى غدا من المستحيل التفكير بأن سرداباً يمر تحت هذه البلاطات المتراصفة بكل اتقان في مواضعها.

ـ هل تسخرين منا أو تعبثين؟

ـ كلا، أقول لكم الحقيقة. اعطوني سكيناً وسترون، سأفتح لكم المنفذ... أمام أعينهم المعبّرة عن الشك والارتياب، أزاحت سكينة «السريجات» الموضوعة لإخماد الصوت المقعّر، وأخيراً كشفت عن مدخل النفق... ورغم وجودهم أمام هذا الثقب الأسود فإنّهم لم يقتنعوا؛ بل راحوا يفحصون بمنتهى الدقّة «السراويل» المحوَّلة إلى «سريجات» وقُطَب الخياطة. بدا لهم أنهم اكتشفوا مايؤيد أفكارهم المسبقة فتحوّلوا نحوي يلوّحون بأعلام نصرهم قالوا:

ـ حصلنا على البرهان المؤكّد لوجود متواطئين معكم!

ـ حَسَن، أين هو؟

ـ الأكياس المشكّلة «لسريجاتكم» صُنّعت بماكنة خياطة، وليس لديكم هذه الماكنة!

بيّنت لهم أنهم ينظرون إلى درزات «السراويل» السابقة، أمّا الخياطة التي حوّلت هذه السراويل إلى أكياس لتعبئة الأتربة وتشكيل ما سميناه «سريجات» فقد أعدت بيَدي وبإبرتي...

أصرّ العقيد تيباري على رأيه وقال:

ـ كلا، كلا، يوجد من أعانكم، إذ لايمكن قيامكم وحدكم بهذا العمل.

ـ كلا لم نلق معونة أحد وقد أنجزناه وحدنا.

أخيراً اقتنعوا رغم أن النفق بدا ضيقاً لم يتح لرجال الدرك الحاضرين وكلٌهم من ضخام القامة جيدي التغذية المرور عبره. صوّروا السرداب من جميع الزوايا، وعند مدخله كما عند منفذه في الأرض العراء. أخيراً قدّموا لنا شيئاً نأكله بعد يوم ونصف يوم صيام.

أنذرونا نحو الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الثلاثاء 21 نيسان (أبريل).

ـ ارتدوا ثيابكم. اتركوا كلّ شيء في مكانه هنا. سنأخذكم إلى جهة ما ثم نعيدكم إلى هذا المكان.

لم أثق بكلامهم، ومع ذلك تصرفت بغفلة، كانت لدي رسائل، وأشعار، وخواطر كتبتها خلال تلك السنوات وأخفيتها في فراش، تركتها فيه، ولم أعثر عليها بعد ذلك أبداً.

أُعطيَ لكل منا جلباب من جلابيب *المُخزّنين* وشال طويل. ووُضِعتُ مع مريم وسكينة، وحليمة، وعاشورا في القسم الخلفي من سيارة جيب عسكرية وجلس حارس عن يميننا وحارس عن يسارنا والرشيشات بين أيديهم، واحتل ضابط من الدرك المقعد الأمامي، جانب السائق الدركي.

قام أحد الحارسين بتغطية وجهي بالشالِ وضغط على رأسي بيديه الإثنتين محاولاً أن يمنعني من رفعه قائلاً:

- يجب ألا تنظري حولك.

- لكنك تكاد تخنقني.

- بئس المصير.

لكن الضابط كان أكثر تحضراً، وطلب مني بتهذيب.

- أرجو أن تغطي عينيك، إذ يجب ألا تعرفي وجهة سيرنا.

- إلى أين تأخذوننا؟ إلى سجن آخر؟ لاأبالي، ولكن دعوني أتنفس.

لكن كلا، رؤية الطريق ممنوعة. وهكذا اجتزنا نحو خمسين كيلومتراً، ويدا الحارس تضغطان على رأسي؛ وتلويان عنقي. خمّنت أنواع الطرقات التي نسلكها من ارتجاج السيارة وحركتها. درب وعرة في البدء، ثم طريق إسفلتية، وأخيراً ازدادت السرعة مما جعلني أعتقد أننا نسلك إحدى الطرقات العريضة وحيدة الاتجاه.

وصلنا إلى المكان المقصود والشمس تميل إلى الغروب. أدخلنا في ممر مفوضيّة شرطة ذات حجارة بارزة وأوقفونا في صفٍ: أنا وسكينة ومريم وحليمة وعاشورا. بينما كان في صف آخر *المُخزّنون* القائمون على سجننا. عرفنا الآن أننا في مفوضية شرطة بن شريف. مركز اشتهر عنه ترويضه للمعتقلين السياسيين.

لاأعلم إن كان هذا المكان ذو الشهرة المحزنة مايزال قائماً. وأتصوّر أنهم عملوا، على الأقل، على إزالة الزنزانات المخصصة للسياسيين. مايزال بالتأكيد في هذا البلد تجاوزات وشطط في معاملات الموقوفين، لكنها لم تعد تطال السياسيين؛ وفي الوقت الحاضر غدا كلّ شيء أقلّ توتراً، وأكثر حرية إذ يمكن الكلام، ويمكن التعبير عن الفكر.

كنا واقفات بهدوء وصَمتٍ، وفجأة انهارت سُكَينة وسقطت أمامي متصلبة كأنها عمود تداعى. خلت أن جمجمتها تحطمت. فقدت وعيها بسبب الحرمان وفقر الدم والتهاب كبد كانت تعاني منه منذ أسابيع. هرعت لنجدتها؛ لكن شرطياً قفز وأمسك بقلنسوة جلبابي وطوّح بي

لأصطدم بحجارة الجدار. خرجت عن طوري، وبدأت بالصراخ غاضبة، ورنَّ صدى صرخاتي في أرجاء المفوضية كلّها:

ـ من تحسبني؟ كيف تدفعني هكذا؟ كيف تمدّ يدك إليّ.

تراجع الحارس أمام صرخات احتجاجي، ودبت الحركة في كل مكان. خرج رجال الشرطة من مكاتبهم، وتقدّم نحوي من أطلقت عليه الشائعات لقب «معذِّب مفوضيّة بن شريف». مفوّض شرطة عُرِف باستخدام عضلاته أثناء التحقيق. لكنه، بعكس ما قيل عنه، كان مهذباً ولائقاً في معاملتي.

على كل حال، وبشكل عام، لم تكن معاملة الشرطة لنا تدعو إلى أي تذمر أو شكوى، سواء عند موت أوفقير أو ما بعدها.

سألني معذب مفوضّية بن شريف وقد خرج من مكتبه إثر سماعه صراخي وصخبي:

ـ ما الأمر؟ ماذا حدث.

ـ انظر، دفعني إلى الحائط بينما كنت أحاول إسعاف ابنتي المنطرحة أرضاً من الإرهاق والمرض...

بدا الشرطي الذي لطمني مرتبكاً وآسفاً، قال:

ـ أسألك المعذرة، اعتقدت أنكِ أحد *المخزّنين*.

ـ كيف تعتقد أنني مُخزّن؟ هل ترى مظهر *المخزنين* علينا وواحدتنا لاتزن أكثر من أربعين كيلوغراماً... لحسن الحظ، كان رأسي محاطاً بالشال والقلنسوة فلولاهما لتحطمت جمجمتي.

نُقلت مع بناتي إلى غرفة صغيرة عارية من الأثاث، وأحضروا لنا أغطية صوفية فرشناها على الأرض حاولنا أن نستريح عليها قليلاً؛ بينما عُزلت حليمة وعاشورا في مكان آخر، منعاً لأي اتصال بيننا. الأولاد مازالوا فارّين والشرطة ترغب باستنطاق كلٍّ على حِدَة، بهدف انتزاع معلومات تساعد على القبض على الفارين الذين اختفت جميع آثارهم.

بالفعل قاموا باستجوابي مدة ثلاث أو أربع ساعات وكنت أسمع صيحات ألمٍ مبرّحة تصدر عن إحدى الزنزانات: إنّه بورو يُعذَّب. لم

أحتمل هذا الصراخ اللاإنساني فشحب لوني، وأحسست بقشعريرة تهزّ جسمي... أمسك مفوّض الشرطة بيديّ ووضعهما بين يديه وقال لي بلطف:

ـ اسمعي، يا حاجّة، لن يلمسك أحد، حتى جلالة الملك لايمكن أن يلمسك، وهذا يَسري، ومن باب أولى، علينا. لايحقّ لإنسان أن يرفع يده في وجهك.

* * *

أنا أيضاً لاأعرف أبداً أين هم أولادي وقد بدأت أقلق، فنحن في مساء الثلاثاء وقد فروا منذ ثماني وأربعين ساعة ولم نسمع أي خبر عنهم.

بقينا في الغرفة الصغيرة ننتظر الأحداث، ممدّدات على أرضيتها نلتف بتلك الأغطية الرمادية، وشرطي يطلّ من الباب كل ربع ساعة ليتحقق من بقائنا على قيد الحياة... نحو الساعة العاشرة ليلاً استدعيت مرّة أخرى:

ـ سيجري التحقيق معك مجدَّداً.

اعترضت قائلة: ليس عندي ما أضيفه على ما ذكرته سابقاً.

مع ذلك مثلت أمام محققين ليطرحوا علي السؤال الذي مافتئ يتكرّر على مسامعي منذ يومين:

ـ حاجّة، قولي لنا أين أولادك.

ـ لكنني لا أستطيع أن أقول لكم غير ما قلته سابقاً، قد يكونون في الجزائر، أو ربما توجّهوا نحو الشمال...

ذكرت الشمال عَرَضاً لأضيف شيئاً إلى ما ذكرته سابقاً غير الذي تعرَّضت فيه إلى سفرهم إلى الجزائر. مع أن الشمال لم يكن وارداً في مخططنا على الإطلاق، للأسف، وجَّهت، دون أن أدري، المتعقّبين من أفراد الشرطة إلى الحلبة التي يجب أن يقتفوا بها أَثَر أولادي.

XI

مدينة مراكش نهاية حلمنا في الهجرة إلى كندا

كنت متوتِّرة الأعصاب، مضطربة، وأنا مستلقية على أرضيّة تلك الغرفة في مفوضية شرطة بنِ شريف. طلبت من أجل تهدئة اضطرابي أن يُسمح لي بالاستحمام وألحّحت في الطلب مشترطة البعد عن رقابة الحارس! وافقوا. دخلت إلى الحمّام. لاحظت بذهول وجود صنبورين، أحدهما للماء البارد، والآخر للماء الحار. منذ عشر سنوات لم أستحم بالماء الحار. هكذا فتحت صنبور الماء البارد جرياً على عادتي، تسمّرت أمامه متشنجة أتأمل ببلاهة الماء الجاري. تردّدت في الوقوف تحت رشّاش الماء. استنفرت كل عزيمتي، وفكّرت: منذ عشر سنوات وأنا أستحم بالماء البارد مقتنعة بأنه أكثر فائدة لي، وأنه يقيني من الإصابة بالزكام، ويقوّيني. عبثاً أحاول إقناع نفسي بالاستمرار في ما اعتدت عليه. بقيت نحو نصف ساعة متجمدة أمام الماء البارد المتناثر من المِرشّة. قرّرت أخيراً فتح صنبور الماء الساخن. غمرتني حرارة مدهشة منعشة. كان الماء ينسكب بعذوبة على جسمي الذي ارتعش خلال عشر سنوات متتبعاً نظام استحمام مصقع. سقط القناع الآن: لن أعود إلى الماء البارد أبداً. غسلت شعري وبقيت أتنعّم بلذّة الماء الدافئ حتى آخر قطرة من ذلك الحمّام الرائع.

عبر إحساس استثنائي بالرفاهية تدثرت بأغطيتي لأتناول شيئاً

من الطعام. قُدّم لي نوع من حساء دون ملح، ودون أيّ محتوى، عدا شيء من الدهن يطفو على سطحه، وقطعة خبز أسمر بلون الرماد، غير أنني وجدتها ممتازة ورفضت الحساء: قليل من الشاي مع الخبز يكفيني تماماً.

حاولت أن أنام بعد ذلك. فمنذ صباح الجمعة، منذ اللحظة التي بُدئ بها بإقامة المحرسين على سطح سجننا في بير جديد لم تغمض لي عين تقريباً. يتملّكني تأثير غريب بأنني كلّما قلّ نومي بقيت عيناي مفتوحتين؛ وتعذّر عليّ الإغفاء وأنا أتقلب بين أغطيتي. طلبت منوّماً فاحضروا لي نصف قرص أغرقني بين ذراعي مورفه(*)... لكن هذا لم يمنع الحارس من المجيء لإيقاظي كل ربع ساعة ليتأكد أنني لم أحاول في قنوطي القيام بمحاولة انتحار.

* * *

في الرباط قام الأولاد عشية وصولهم بالتوجّه إلى سفارة فرنسا، فاستقبلهم حاجب مغربي: المكاتب مقفلة، توقّعنا كل شيء لكننا لم نفطن إلى أن يوم 20 نيسان (أبريل) هو اثنين عيد الفصح، وهو يوم عطلة في فرنسا، وبالمقابل فإن سفارات أخرى بقيت مفتوحة. حاول الأولاد دخول سفارة الولايات المتحدة لكنهم ذعروا أمام الحرّاس، وكلّهم من المغاربة. جربوا بعد ذلك اللجوء إلى سفارة السويد، وتوصل رؤوف إلى تسليم بطاقة لموظفة استقبال سويدية كتب عليها: «نحن أبناء الجنرال محمد أوفقير، نطلب اللجوء السياسي إلى السويد» قرأت السيدة البطاقة وانتهرتهم قائلة بالإنكليزية: اخرجوا من هنا! إذا لم ترحلوا في الحال سأستدعي الشرطة.

التقوا بأخي وحيد ثم لجؤوا إلى أصدقاء فرنسيين، لوك وميشيل بارير، عائلة نبيلة معتزة بنفسها، لكنها ليست على مستوى الأحداث؛ وقد ارتكبت مليكة عند مغادرتهم منزل تلك العائلة، خطأ العهدة لها

(*) مورفه Morphee: إله الأحلام في الميثولوجية الإغريقية ابن إله الليل وإلهة النوم - المترجم.

بالدفاتر التي دوّنت فيها سُكينة، ليلة بعد ليلة، قصتنا المسلسلة عن روسيا: إذ ماكاد الأولاد يبتعدون حتى أحرق لوك تلك الدفاتر خوفاً من الشرطة التي عرف إنّها جادة في تعقب الفارّين، وهكذا فالأمر العاجل بالنسبة له التخلص من تلك الأوراق المعرِضة للشبهة.

اعتَقَد أن هذه الصفحات المغطاة بكتابة صغيرة متراصّة - غير مقروءة بالنسبة له دون شك - تحتوي شهادتنا. سجناء ناجون من خمسة عشر عاماً من الجحيم لايمكنهم أن يتكلموا بداهة إلا عن تجاربهم... لكن من عانى الجحيم لايحتاج إلى وصفه. الهول يبقى ماثلاً لايمّحي في أعماق نفسه. الجراح تبقى مفتوحة. يكفيني أن أفكر به لينتابني مجدّداً الشعور الرهيب بالعذاب. عبثاً حاولت أن أسجِّل أثراً عنه حالياً، من المستحيل وصف العذاب اليومي، وهذه السنوات الطويلة التي كان يخالجني فيها كل مساء أن ألطم رأسي بالجدران لأجابه فورات الجنون التي تترصدني. لايمكنني أن أتحدث عن تلك العزيمة التي تدفع إلى التشبث بخيوط رجاء واهية تتقطع، ولايمكنني أن أحاول إشراك الآخرين في آلام الكلمات التي كنت أرددها: «لك عائلة، وأنت على بعد أقل من خطوتين لتنتقلي إلى العالم الآخر أو ليكتسحك الخبل واختلال العقل. لايحقّ لك أن تدفعي نفسك إلى الهلاك». كيف يمكن التعبير عن الهول المروّع والظلم الفادح؟

بعد الرباط توجّه رؤوف ومليكة وماريا وعبد اللطيف إلى طنجة. هو هروب من خطر الوقوع في قبضة قوات الأمن التي تتعقبهم ولايعلمون إلى أين المفرّ. اجتازوا المدينة والخوف يتملكهم، وتمّت معجزتان لإنقاذهم. كانت الأولى في منافذ محطة القطار، فقد طوّقت الشرطةُ المستنفرة، بعد تصريحاتي المتهوّرة، المحطةَ بانتظار الفارين بقدم ثابتة. إنّهم يُفتّشون عن أربعة شبّان، ولم ينتبهوا إلى ستة أشخاص مرّوا من أمامهم... في القطار تعرّف الأولاد على طاهٍ وامرأة بدينة طيّبة لطيفة المعشر كانا لهم بمثابة إجازة مرور. أمّا المعجزة الثانية فقد حدثت لهم على طريق الخروج من طنجة متوجّهين في سيارة أجرة إلى فندق «أهلاً» الذي يملكه أحد أصدقائنا السابقين،

صلاح بلفريج؛ وحلّ الليل وانتشرت قوى أمن كبيرة على الطرقات، جنود، ودرك، وشرطة، ومخزّنون يقيمون الحواجز، ويفتشون السيارات تفتيشاً دقيقاً مما يعرقل السير ويدفع الناس إلى التساؤل عن أسباب هذه الإجراءات. عندما وصلت سيّارة الأجرة المقلّة للأولاد أمام أحد الحواجز أوقفها شرطي ووجّه مصباحه على ركابها الأربعة يتأمّلهم من رأسهم إلى أخمص أقدامهم لأكثر من ثلاث دقائق... وليسمح لهم بالمرور بعد ذلك. علماً ألا مجال للشكّ: فالأولاد يشبهون والدهم إلى درجة كبيرة.

عندما سمع مفوض شرطة بن شريف بهذه القصة، انتابه الذهول:

- كلا؟ هذا غير ممكن، إنّه شيء لايصدّق... البحث جار عن أربعة أشخاص، وتعترض الشرطة سيارة أجرة فيها أربعة أشخاص، شابان وفتاتان، هم الذين يتعقبون أثرهم، لامجال للخطأ، كيف تركوهم يمرّون؟

لاأحد يعلم سبب تصرف هذا الشرطي المجهول بتلك الطريقة. أمّا أنا فأباركه كل يوم فلو أنه أوقف الأولاد في تلك اللحظة لما عرف أحد بأمرنا ولعدنا جميعاً لنتعفن حتى نهاية العمر في «حدائق الملك».

في اليوم التالي لوصولهم إلى فندق «أهلاً»، وهو الأربعاء 22 نيسان (أبريل) تمكّن الأولاد من الإتصال هاتفياً بإذاعة فرنسا الدولية في باريس. تمكّنت ماريا من التحدث مع آلَن دي شالڤرون، مدير التحرير:

- نحن أولاد الجنرال أوفقير، هربنا من السجن، إننا في طنجة ونحن نطلب عونكم، أرسلوا لنا أحداً، اعملوا شيئاً من أجلنا، أذيعوا النبأ.

لم يصدّق الصحفي في البدء هذه القصة الروكامبولية(*) وفكَر أن

(*) روكامبولية Rocombolesque نسبة إلى روكامبول بطل مسلسلة روائية ألّفها الأديب الفرنسي بونسون دي تراي Ponson de Terrail (1829 - 1871) وأمدّ بها على مدى عشرين عاماً الصحافة وهي تتضمّن أحداثاً خارقة يقوم بها روكامبول البطل الخيالي مما أكسب الرواية شهرة هائلة على مرّ العصور.

الأمر خدعة مُزاحٍ لكنه اقتنع أخيراً، ورضي بتقديم المساعدة لهم ونقل الخبر إلى الكي دورسيه(*) التي أوصلته بدورها إلى الرئيس ميتران، وهو في الطائرة التي تقلُّه إلى الرباط في زيارة رسمية.

الواقع الغريب أن تترافق زيارة الرئيس ميتران إلى المغرب في كل مرة مع بعض الأحداث التي تشغل الرأي العام. في المرة الأولى موت دليمي، وفي الثانية هرب أولاد أوفقير. نزل الرئيس من الطائرة وقد علا وجهه العبوس لهذا الظرف الطارئ. وتمّ حفل العشاء، الذي أعقب وصوله في جوّ فاتر على ما يبدو. ثم إن جميع الأحزاب السياسية الفرنسية وجميع الشخصيات، وأصدقاء الحسن الثاني وكذلك أعداءه، واليسار كما اليمين أعلنوا احتجاجهم على الظلم الذي أحاق بعائلة أوفقير.

خلال ذلك الوقت كان موفد من الكي دورسيه يتصل بأولادي في طنجة. كنا قد قرّرنا في السجن أن نكلّف المحامي روبرت بادينتر بالدفاع عن مصالحنا، ولكن لم نكن نعلم أنّه غدا عضواً في المجلس الدستوري، وهذه العضوية تحول دون توكيله للدفاع عن قضيتنا. نصح آلن دي شالڤرون الأولاد أن يتوجّهوا إلى المحامي جورج كيجمن مثنياً على نجاحه في المرافعات القضائية، وعلى شخصيته كوسيط. رضي المحامي الشهير بعد اتصال مدير التحرير في محطة الإذاعة الفرنسية التوكّل في قضيتنا، وأرسل في اليوم نفسه إلى طنجة شريكه برنار دارتڤيل الذي التقى مع أولادي مرتين في يوم الخميس وأخذ لهم بعض الصور ووضع خطة لتهريبهم إلى فرنسا بواسطة القنصلية الفرنسية.

بدورنا، تمتعنا منذ الخميس ونحن في زنزانتنا في مفوضية شرطة بن شريف بكل المراعاة! فوجود ميتران على الأرض المغربية، وما ظهر عليه من مزاج سيّء منذ وصوله كان لهما تأثيرات مؤاتية لنا: أحضر رجال المفوضية لنا من أحد المطاعم وجبة غداء شهيّة تضمنت سمكاً مقلياً، وشرائح عجل، وضلع خروف وبقولاً. بيد أن رؤية كل هذه الأطباق أمامي أفقدتني الشهية. حاولوا ترغيبي بالأكل لكنني لم أتمكن

(*) الكي دورسيه Quai - dorsay: مقر وزارة الخارجية الفرنسية في باريس.

من وضع لقمة في فمي. أردت فقط الحصول على أخبار أولادي وأجابوني.

- هذا ما نريد معرفته منك.

بينما كان الأولاد ينتظرون المحامي في حديقة فندق «أهلاً» للقاءٍ ثالث، يوم الجمعة صباحاً، ألقت قوة كبيرة من الشرطة القبض عليهم. قيل إن رئيسَ خدم في مطعم الفندق قد وشى بهم، لكن يخامرني الشكّ في هذا الأمر، وأعتقد من جهتي أن ترتيباً سرّياً تمَّ بين فرنسا والمغرب: يجب خنق الفضيحة. فضلاً عن أن خطة التهريب المقترحة تبدو بالأحرى خدعة لكسب الوقت أكثر منها استراتيجية حقيقية. كيف يمكن نقل الأولاد إلى فرنسا بوساطة القنصلية؟ سيعلم العالم كلّه أن فرنسا متورطة رسميّاً في هذه القضيّة. في رأيي أن الملك الحسن الثاني تمكن من إقناع ميتران ووعده بإطلاق سراحنا والسماح لنا بالهجرة إلى كندا؟ لكن لماذا كندا؟ لأن جلالته وبتعنُّت مبهم رفض أن يرانا لاجئين في فرنسا، إذ يجب دون شكّ، وعلى الأقل، أن يفصل المحيط الأطلسي ما بيننا وبينه.

اطمأن الفرنسيون لتلك الضمانة المقترنة بوعد ملكي فسلّموا أولاد أوفقير إلى المغاربة. على كل حال، رُوي لي أن رئيس الدولة الفرنسية أظهر استياءه الشديد لأن الملك، فيما بعد، أخلّ بوعده. لكن هذه هي طريقة صاحب الجلالة: يكفي أن يُفرَض عليه قرار ليقوم تماماً بعكسه.

غزت الشرطة إذن حدائق فندق «أهلاً» وأحاطوا بالأولاد، وقادوهم بالقوة العسكريّة إلى مفوضيّة طنجة، وكان بطل هذا التوقيف المثير المُنفَّذ على أربعة أولاد جياع، المحافظ قسوس، وقد اتصل هاتفياً مباشرة بوزير الداخلية لينقل إليه الخبر الطيّب. كاد الوزير على الطرف الآخر من الخط لايُصدّق الخاتمة السعيدة لحل عقدة هذه القضية؛ وسمع أولادي المحافظ يصرّح بلهجة اعتزاز يعجز الوصف عنها:

- ولكن، يا سيدي الوزير، أؤكد لك أنني قبضت عليهم. إنّهم هنا أربعتهم في مواجهتي.

على الحدود فُتّش المحامي دارتڤيل، في طريق عودته إلى فرنسا، تفتيشاً دقيقاً. قُلبت حقيبته رأساً على عقب. عُرّي من ثيابه كليّاً. صادرت الشرطة جميع الأوراق التي تضمّنتها الحقيبة، وخاصة صُوَر الأولاد التي يحملها: لو نُشرت صُوَر هؤلاء الأولاد الهزيلين، المجرّدين من اللحم، معروقي العظم لاهتزّت سمعة الحسن الثاني الطيّبة.

قام رجال الشرطة بعد ذلك بتمثيل بعض الأدوار السيّئة على معتقليهم لإثارة قلقهم، فأبعدوا عبد اللطيف عنهم، وقاموا باستجوابه على انفراد... وذُعر الكبار خشية أن تساء معاملة أخيهم الصغير لشعورهم بالمسؤولية عنه. ثم قاد هؤلاء الحرّاس الشرسون أسراهم إلى المدينة واشتروا لهم ثياباً وأحذية ليبدوا بمظهر لائق. أمّا وقد كُشفت قضيتنا أمام العالم، فقد صرح الملك أنّه لايَعلَمُ شيئاً عنها: كان أمراً ملحّاً رفع الظلم الذي حاق بنا طوال خمسة عشر عاماً.

أخيراً اقتيد الفارون الأربعة إلى مفوضية بن شريف حيث اجتمع شملنا. كان لقائي مذهلاً مع أولادي، فأنا لم أرهم أمامي منذ نحو ستة أشهر، منذ بداية صيامي عن الطعام، وأنا أرى الآن فتاتين وشابين حسني الهندام والمظهر قادمين نحوي، كانت مليكة ترتدي ثوباً رمادياً مورّداً، ورؤوف وعبد اللطيف في بزّات من الجينز: لم أعرفهم، فنسمات الحرية ترفّ من حولهم.

* * *

بقينا شهرين في مفوضية بن شريف قبل أن تحدّد إقامتنا في مدينة مراكش حيث انتظرنا الإفراج التام عنا ومنحنا الحرية، أربع سنوات أيضاً من أوّل تموز (يوليو) 1987 إلى 26 شباط (فبراير) 1991 .

نفي سرّي: يجب ألا يعرف أحد من يوجد في هذه الڤيلا الكبيرة المحاطة بسور أحمر صُفحت حوافه بشظايا الزجاج، وانتشر حرّاس مسلحون حوله. لكن مقرّ إقامتنا الجديد بدا لنا فخماً بقاعة حمّامه وحوضه الحقيقي الواسع، وغُرَفِه المريحة، وصالتيه الواسعتين، وحديقته الجرداء حيث لاتنبت فوق تربتها الحمراء القاتمة إلا نخلتان عجفاوان. كان قفصنا مذهّباً، لكن هذا لاينفي كونه قفصاً.

ماكدنا نستقرُّ في مكان إقامتنا الجبريّة حتى حضر المحامي

كيجمن في 3 تموز (يوليو) لزيارتنا. كان قد قابل الملك في العشيّة، وجاء يحمل إلينا الأمل، صرّح له الحسن الثاني أنّه يوافق على هجرتنا الوشيكة إلى كندا. وُضِع برنامج لهذه الهجرة وأعلن موعدها بتاريخ 27 تشرين الأوّل (أوكتوبر) 1987؛ وأعلن الملك عندئذ أمام كاميرات محطة التلفاز الفرنسية الثانية:

- إنّها قضيّة تتعلق بملك وعائلة هي واحدة من رعاياه وأعتقد أننا سنحلّها بالطريقة الأكثر انتظاماً وتوافقاً مع ما نعتبره مبدأً لنا.

منحنا حقّ استقبال أهلنا مرّة في الأسبوع. أبي أولاً الذي قضى جميع هذه السنوات يتتبع عبثاً آثارنا، ويحاول توجيه رسائل إلى الملك. كان تأثّري عند لقياه كبيراً لكنه شاق: تركته رجلاً وسيماً، ممتلئاً حيوية ونشاطاً، لأعود وأراه عجوزاً يجرُّ قدميه، ويضع جهازاً سمعيّاً في أذنه. بهدوء جدّدنا الصلات المنقطعة بيننا خلال خمسة عشر عاماً، واستأنف المجيء لرؤيتي كل أسبوع ترافقه زوجته الشابة التي اقترن بها خلال غيابنا في السجن. التقيت مجدّداً بأخواتي وأخي وجميع الأقرباء الذين فارقتهم منذ مدة طويلة. كَدَرٌ وضيقٌ في هذه المقابلات، إذ أن هوّة تفصل بيننا، هوة هذا الغياب الطويل جدّاً.

كان زوّارنا ينزلون في المدينة، وتقلُّهم سيارة الشرطة إلى مركز إقامتنا ليلاً، ليتعذر عليهم تحديد مكان إبعادنا؛ كما أنّهم يتعرضون للتفتيش الدقيق قبل دخولهم إلى الفيلا؛ حتى أن أخواتي وزوجة أخي يُلزَمن بإنزال سراويلهن الداخلية حتى في أوقات الطمث، فبعد مرحلة الذعر والترويع، حلّت مرحلة الإهانة والإذلال.

تحضيراً لمغادرتنا البلاد اشتروا لنا حقائب وثياباً صوفيّة، ومنحونا جوازات سفر. ثمّ نظّموا مقابلة مع والدي أمام كاميرات الشرطة. يجب تصوير فيلم عن هذه اللحظات التي يريدونها تاريخية وشعاريّة، وقد قام خلالها محمد شنّا بتوقيع أوراق تجعل منه مديراً إدارياً لأملاكي المصادرة، وقبوله مهمة استعادة عقاراتي وبيعها... داخلتني بعض الريبة أمام هذا العرض المفرط في إتقان إخراجه. لكن كلّ شيء كان يبدو سائراً نحو الأحسن؛ فلماذا لاأُوْمن بالسرّاء بعد أن عشت الضراء؟

في الليلة السابقة لموعد رحيلنا، ونحو الساعة الواحدة، أرسلوا إليّ شاباً أحمق يعتقد أنه في منتهى الذكاء. قال:

ـ عليك أن توقّعي تصريحاً تتعهدين فيه بعدم إحداث مشاكل للمغرب، وعدم كتابة أو نشر شيء...

أجبته مغتاظة:

ـ ما تطلبه في غاية البلاهة! حتى لو وقّعت لك، فلا شيء سيمنعني بعد أن أَحُلَّ في كندا من كتابة ما أريد...

بعد سنوات السجن العديدة، نما لدينا، نحن التسعة، حسٌ دقيق في معرفة النفس البشريّة، فنحن نتوصل بسرعة، أمام نظرة محاور لنا، إلى إدراك حقيقة عواطفه. نحسّ بقابلية استجابته أو انكفائه. لقد اكتسبنا هذه الحساسية المرهفة. رأيت سحنة هذا الأحمق الشاب الذي يطالبني بتوقيع ذلك التصريح تتغيّر؛ وهذا لايبشّر بالخير. خرج ولم أر وجهه بعد ذلك. بعد عدة ساعات، وعند الخامسة صباحاً، يجب أن نغادر مقرنا للحاق بمحامينا في الدار البيضاء...

لم يحدث شيء. لم يأت أحد لنقلنا إلى الدار البيضاء. نحو الساعة السادسة أو السابعة حضر أخيراً مفوّض شرطة ليعلن لنا أن سفرنا أُجِّل لمدة أسبوع.

ـ لأن الملك يريد رؤيتكم قبل سفركم.

استحسن الأولاد هذا النبأ، أما أنّا فلم أؤمن بكلمة من هذه التلفيقات:

ـ هذا غير صحيح، إنَّها مناورة سمجة لتأخيرنا، وعدم السماح لنا بالمغادرة...

حدّثتهم كيف طُلب مني بعد منتصف الليل توقيع تصريح، وكيف رفضت.

لامني الأولاد لفظاظتي. عتبوا عليّ عدم التعهّد بما طلب مني. غدوت تلك التي حرمتهم من الطيران نحو الحريّة.

لماذا أُجِّل سفرنا؟ في الواقع، في الليلة نفسها، وفي اللحظة التي أعلنت فيها محطات الإذاعة والتلفاز الكنديّة وصولنا الوشيك، هرعت جماهير غفيرة إلى مطار مونتريال. مئات من الصحافيين، والكنديين

الفضوليين، واليهود المغاربة(*) المهاجرين كانوا ينتظروننا وقد رفعوا الأعلام، وأعدّوا لنا الهدايا.

ساد الذعر في قصر الرباط. أقلق هذا التدفّق الشعبي السلطات المغربية التي كانت تخشى، دون شكّ، التظاهرات المضادة للملكية التي ستزيل بريق صورة الحسن الدوليّة؛ فقرّروا الانتظار ثمانية أيام لإفساح المجال لتهدئة الخواطر.

ومرت الأيام. كنا مانزال ضعفاء البنية، عليلين، ومنهكين حتى أنهم لم يجسروا على السماح لنا بالرحيل، ويجب أولاً أن نستردّ صحّتنا، وتستعيد الخوافي والقوادم(**) نموّها في أجنحتنا قبل أن يسمح لنا بالطيران في سماوات أخرى. في الواقع كشف الأطباء من الصور الشعاعية التي أجريت لنا في مركز إقامتنا في مدينة مراكش أن لطخات تشوب رئات ثلاثة منّا... وبالتالي ليس هناك ما يستوجب الإلحاح على الحسن الثاني لاحترام الوعد الذي قطعه على نفسه أمام ميتران بالسماح لنا في الحال التي نحن فيها بالسفر إلى خارج البلاد إذن، وجدوا جميع الأعذار، وجميع الذرائع التي يمكن تصوّرها لتعليل أسباب التأخير.

ليس هذا هو الوقت المناسب... الظروف غير ملائمة... يجب أولاً تنحية محامينا الفرنسيين... يجب عليّ أن أطلب مقابلة جلالته... أبقيت وكالة محاميّ، ولم أطلب مقابلة الملك. لو أراد الحسن الثاني مواجهتي لاستدعاني منذ مدة طويلة. لم أرد إلا شيئاً واحداً: الرحيل مع أولادي.

كانت ظروف حياتنا أفضل منها، بما لايقاس، عن الماضي، هذا مؤكّد، لكنها لاتُحتَمل معنوياً. عندما نجرّد من كل شيء، نكافح من أجل

(*) بعد الحرب العربية ـ الإسرائيلية في العام 1967 هاجر اليهود المغاربة بشكل كبير إلى إسرائيل وفرنسا وكندا، وكان للجنرال أوفقير كثير من الأصدقاء بينهم وسهّل هجرتهم (انظر رواية السجينة ـ مليكة أوفقير وفيتوسي ـ إصدار دار ورد ـ ترجمة ميشيل خوري. ص295) ـ المترجم.

(**) القوادم الريشات في مقدّم الجناح، وهي كبار الريش والخوافي صغاره وهي تحت القوادم والعبارة ترجمة لفعل Remplumer الفرنسي وجري على قول الشاعر «سأشكر أن رددت عليّ ريشي وأنبتّ القوادم في جناحي» كناية عن القوة والغنى ـ المترجم.

هدف محدّد ونجد في أنفسنا الجرأة المطلوبة. لكن لماذا نكافح عندما يُقدّم لنا الطعام الجيد والوافر الكافي، وعندما نتلقى الكُتُب. وعندما يمكننا أن نشاهد البرامج التلفزيونيّة.

في السجن كنا نقضي أياماً كاملة نتأمّل ونفكّر في عزلتنا. ليس لدينا أيّة ألهية.

تسليتنا الوحيدة خيالنا الخاص. يمكننا أن نسرح ونمرح بكل حريّة في الأفكار التي تخطر على بالنا، نُعدُّ مشاريع واسعة. لايمكن لأحد أن يوقفنا ولايقوم أي عائق أمام أفكارنا. إنّنا بطريقة ما أكثر حريّة مِمّن في الخارج.

في مدينة مراكش عدنا مجدّداً كائنات بشريّة، وآلاف المضايقات الصغيرة المفروضة بقرارات خرقاء تتخذها إدارة الأمن الإقليمي (DST) غدت غير محتملة لدينا. إنّهم يراقبون كل نواحي حياتنا. يمنعون عنا، على سبيل المثال، الحصول على بعض الكتب، أو قراءة بعض نتاج المؤلّفين. أيعتقدون أنني إذا قرأت ماركس أو لينين سأخرج في الحال لأؤلف حزباً سياسيّاً؟ كأنَّ الأشخاص الذين يسنُّون قواعد حياتنا الجديدة متخلفون عقليّاً، فهم مجردون من كلّ إحساس بحقائق الأمور. وكأنّ هذه الحذر السياسي لايكفيهم: فقد عمدوا أيضاً إلى مراقبة جميع أعمالنا وتصرّفاتنا. أخفوا أجهزة تنصّت في غرفنا، لم يسمحوا لنا بالتنزه في الحديقة إلا تحت المراقبة والحراسة المشدّدة. كما أن الشرطة مستنفرة حول الڤيلا.

بالمقابل، كان لنا الحق أن نطلب كل ما تشتهي الأنفس من أجل وجبات طعامنا. وكان الأولاد الذين عانوا الحرمان سابقاً يطلبون مزيداً من اللحوم والسكاكر والثمار والحلويات... وهذا ما دفع حراسنا إلى أن يطلبوا مني كبح هذا السُعار ملمّحين إلى أن نفقات معيشتنا باهظة التكاليف. فتّق هذا الطلب جروحاً لم تلتئم، فأجبت:

ـ بلغت بكم الجرأة أن تشيروا إلى نفقات طعامنا المرتفعة الآن متناسين أنكم كدتم تقضون علينا جوعاً خلال خمسة عشر عاماً.

كنا ننفق بالتأكيد دون حساب، ونحن سعداء جدّاً في ممارسة حقوقنا الجديدة. لكننا لم نكن نأكل كثيراً. لم يكن أيّ منا شرهاً. لم تكن

لوجبات الطعام أهمية كبيرة: نأكل عندما نجوع؛ وكجميع الأشخاص الذين تألّموا وعانوا الحرمان، كانت رغباتنا قليلة حقّاً؛ والغذاء يأتي في الدرجة الثانية. إنّه ليس غايتنا في الحياة.

غير أننا في السجن كنا جياعاً باستمرار. كنا نقضي أياماً كاملة نأكل في الخيال. لم أهيّء في حياتي أطباق طعام أشهى من تلك التي أعددتها أثناء إضرابي عن الطعام ـ إنما كان ذلك في الأحلام.

في ڤيلا مراكش التأم شملنا، فلا حواجز تفرّق بيننا. إنما لم نألف ذلك بسهولة فقد اعتدنا على العيش، كل بمفرده، منعزلاً في زنزانته، وفجأة وجب أن نتواجه مع الآخرين، أن نتعلم مجدّداً العيش اليومي المشترك، وأن نكتشف ثانية آداب المعاشرة، ونعيد تنظيم تصرفاتنا وفق ساعات اليوم، ونجلس إلى المائدة معاً في أوقات الوجبات المحدّدة. نسينا جميع هذه الأنظمة القسرية منذ مدة طويلة ووجب علينا أن نعيد تأقْلمَنا مع الحياة.

كان إخلاء سبيلنا يؤجّل دون انقطاع، وغَرِقْنا في القنوط مجدّداً. عدنا ثانية إلى ذلك القَلَق الذي حلّ في نفوسنا مدة طويلة. قام المحامي كيجمن بزيارتنا مرة ثانية في بداية العام 1988 ، لكن زيارته لم تعدل شيئاً في وضعنا رغم أن كلماته الطيّبة قوّت عزائمنا. أعلنّا إضراباً عن الطعام في السنة التالية لكنه حظي باللامبالاة نفسها التي لقيها إضرابنا قبل ذلك بثلاث سنوات في بير جديد؛ وبالرغم من مؤتمر صحفي عقده محامينا في باريس وأعلن خلاله:

من المؤكّد أن شروط سجنهم غدت، منذ سنتين، أكثر رفاهية مادياً ومختلفة كثيراً عن تلك التي عانوا منها خاصة خلال الاثنتي عشرة سنة السابقة حيث كانوا في معسكر اعتقال حقيقي. لكنَّ هؤلاء الأشخاص الثمانية (نُسِيَت حليمة دون حق) المحرومين من الحريّة رغم تعهدات الحسن الثاني، ورغم تعهدات المغرب الدولية، مُدركون وواعون إلى أنهم لايستطيعون الاعتماد إلا على أنفسهم.

بقي العاهل متشدّداً، ورفض القبول أنّه كان على خطأ. هذه الغلطة المرتكبة بحقنا كيف يمكن محوها أمام أعين المغاربة؟ كيف يبرّرها

أمام الأوروبيين الذين يعتبرون العاهل المغربي ملكاً مستنيراً، رجلاً عادلاً ومستقيماً؟ جرّب الحسن الثاني أن يخرج بصورة مشرّفة تقريباً من هذا المأزق. جرّب على مرّ السنين جميع الحيل، وأعدّ كيفما اتفق مجلساً استشارياً لحقوق الإنسان في المغرب العام 1990 ، وأعلن بعد ذلك أنه سيسوّي جميع أوضاع المعتقلين السياسيين واحداً بعد الآخر. هذا على الأقلّ ما زُعِم به وأُعلِنَ عنه جهراً وبقوّة. إذ أن تسوية مشكلة المعتقلين السياسيين فعلاً تقتضي الغوص أكثر فأكثر في مشكلة «حدائق الملك». وهناك كما يقول ـ بشكل غير مهذّب ـ أحد الأمثال المأثورة في محيطنا «سيتم الوصول إلى الغائط»... هذا المثل مستمد من إحدى نوادر جحا(*)، أديب الحياة وفيلسوف الحسّ السليم. الشخص الذي تنسب إليه باستمرار نوادر ذات مغزى أخلاقي.

في أحد الأسواق حاول جحا الطيب أن يتاجر بالعسل، وعمد المارّون في السوق لغمس أصابعهم في الجرّة ليذوقوا العسل الذي أخذ ينقص تدريجياً، فما كان من جحا إلا أن عمد إلى تنبيه الذوّاقين: «لاتغمس إصبعك في العمق، ستصل إلى الغائط...»

هذا ما يماثل إلى حدّ ما قصة الحسن الثاني مع حقوق الإنسان. في كل مرة يحاول أن يجد مخرجاً لها، ويطلق سراح المعتقلين، ويخفّف من قسوة النظام، يلامس أصبعه سجونه الصحراوية غير المعترف بها. أنكر الملك عبثاً خلال سنوات، وكرّر متحدّياً: «ليس لديّ معتقلون سياسيون»، غير أن قسماً من الحقيقة ظهر أخيراً للعيان يدحض ادّعاء الملك.

في سجن تزمامارت عندما يموت أحد المعتقلين بعد معاناة شروط لاإنسانية فرضت عليه، ولم يستطع تحمّلها، يُدفن وينسى كأنه لم يوجد، وعندما أزيل هذا المكان الرهيب ودُمّر(**)، خرج جميع من كان فيه، وأجسامهم قد اعوجّت وضَمُرت ونقصت عدة سنتمترات، لأنهم عاشوا مدة سنوات مثنيين في زنزاناتهم، ممدّدين على الأرض.

(*) جحا: رجل أسطوريٌ تُنسَب إليه نوادر وفكاهات ظاهرها حمق وبلاهة إنّما هي في عمقها تتضمن حكماً جرت مجرى الأمثال ـ المترجم.

(**) تزمامارت: أحد سجون الأطلس الأعلى أخلي وهُدِم في العام 1991 ـ المترجم.

سجن فيه نحو ستين معتقلاً، لم يبق على قيد الحياة منهم إلا ثمانية وعشرون، توفي أربعة منهم في المشفى بعد وقت قصير من خروجهم. إذا كان الملك قد استطاع تغييب عائلة معروفة مثل عائلتنا في شروط مريعة، فلا يمكن أن نتصوّر دون ارتعاش ما تعرّض له السجناءُ السياسيون المجهولو الأسماء.

لم ننقطع خلال السنوات الأربع، التي قضيناها في مدينة مراكش، عن تصوّر مخططات للفرار. ألم نَعُد اختصاصيين في هذا المضمار؟ كانت المنطقة تحت الحراسة، لكننا فكّرنا بمغامرة جنونية: نفق جديد! سرداب يصل طوله هذه المرة إلى مئة متر... مئة متر، ليست سهلة أبداً. عقبات لوجستية(*) كأداء أمامنا. كيف يمكن تدعيم مثل هذا السرداب الطويل؟ كيف يمكن إخفاء الرمال والأتربة الناتجة عنه؟

تسارعت الأحداث مع نشر كتاب جيل برُّو، *صديقنا الملك* في آب (أُغسطُس) 1990 ـ وهو كتاب يشي بتصرفات الحسن الثاني ويندّد بها ـ وإليه يعود بعض الفضل في إطلاق سراحنا ويعود بعض فضل آخر إلى أننا استعدنا قوانا وازداد وزننا، وثقتنا بأنفسنا، وغدونا بمظهر لائق.

رغم كل ماندين به إلى جيل برّو يجب أن أشير إلى أنَّ كتابه اعتمد غالباً على «مايقال» وعلى مختارات من مؤلّفات مناصرة له. في حديثه عن أوفقير اعتمد على شهادة منشورة من قبل شخص اسمه كِلِمن Clemen، ويبدو أنّه كان جنرالاً وشارك في الحرب العالمية الثانية داخل أوروبا مع زوجي. غير أن الملفّات العسكرية تؤكّد أن هذا الشخص لم يوجد يوماً إلى جانب أوفقير. ويبدو أن برُّو أصاخ بسمعه لجميع أعداء الحسن الثاني، الذين هم في الوقت نفسه أعداء أوفقير. كل هذا شكّلَ خليطاً غير متناسق، مشكوكاً فيه وهو أقرب إلى النميمة والحقد.

(*) لوجستية Logistique: من اللاتينية وتعني التفكير المنطقي، وهي في الرياضيات تعني العمليات الأساسية الأربع، وفي الشؤون الإدارية الميدانية العسكرية تعني التوفيق بين مختلف وسائل النقل والتموين وإسكان الجيوش. وفي المفهوم العام تعني النظرة الشاملة المتكاملة لعدة قضايا تتعلق بمشروع عام ـ المترجم.

أيّاً كان الأمر فإن نشر كتاب برُو أثار موجة استنكار حقيقية في أوساط المغرب القيادية التي ندّدت بالشتيمة وبجريمة المساس بالجلالة. والواقع أن هذا الكتاب لايستند إلى أي تحقيق موضوعي؛ إضافة إلى أن ما من حَدَث ورد في سياقه التاريخي. كان من الضروري في تلك الدراسة، المتعلقة بالناحية القاتمة من الحسن الثاني، إمعان النظر في الفترة التي صعد بها الملك إلى العرش. عندما تفرض الفوضى قوانينها تلزم قبضة من حديد لإعادة النظام.

الاستحقاق الكبير للعاهل أنّه عرف كيف يجمع قوى البلاد كلّها حول شخصه، أعداءه، وأصدقاءه. شعر جميع الناس في البدء بالحاجة إلى أن يأتلفوا حول هذا الرجل. لكن شيئاً فشيئاً، تحوّل الحسن الثاني الموحِّد إلى حاكم فرد صعب المراس. لم يَعُد أولئك الذين لايخضعون له كليّاً يشكّلون جزءاً من المغرب. غدوا مستبعدين من الحياة العامة وضاع صوتهم في الصحراء الواسعة...

* * *

في كانون الثاني (يناير) 1991 تفجّرت حرب الخليج. تمزّق قلبي، فأنا نصيرة للعراق كمعظم المغاربة، غير أنني لا أحبّ صدام حسين، فهو طاغية، وقد كرهته منذ اليوم الأوّل. فبدلاً من أن يكون شهماً متسامحاً، وأن يبدأ تقلّده السلطة بإصدار عفو عام، كما يفعل جميع رؤساء الدول قام بإعدام اثنين وعشرين شخصاً. لكن العراق مهد الحضارة العربية، ومصدر ثقافتنا؛ والعراقي نفسه يمثل الشجاعة والعزم. ثم إنني أحبّ تلك البلاد، فإنها بالرغم من كل ماقيل عَنها أمّة علمانية(*) ابتعدت عن التعصّب الديني، وكان بإمكانها أن تسير في مضمار التقدّم لو لم تتطوّر الأمور بشكل مختلف ولو لم يُطبق عليها الأمريكيون بضراوة، ولو لم تعزل أيضاً عن المسرح الدولي. واليوم يموت أطفال العراق جوعاً، إنّها كارثة عالمية لايجروٌ أحد أن يتكلم

(*) علمانية Laique: أي تأخذ بمبدأ فصل السلطة الروحية عن السلطة السياسية وعدم تدخّل الهيئات الدينية في شؤون الدولة أو التعليم كما أنها تعني في شؤون التربية والتعليم عدم تفضيل عقيدة دينية على أخرى ـ المترجم.

عنها. الحصار لايؤثّر كثيراً على الطاغية أو على من يحيطون به؛ لكن أطفال الشعب هم الذين يموتون. سقط خمسمئة ألف طفل ضحايا سوء التغذية هناك، ولايشعر الأوروبيون أن الأمر يتعلق بهم أو أنهم مسؤولون عنه. يجب رفع الحصار، جزئياً على الأقل، عن الأدوية والأغذية، لكن للأمريكيين نيّة مبيّتة، وهم يريدون حفر جحر لهم في الخليج العربي.

في شهر شباط (فبراير)، والحرب في ذروتها، حضر والي مدينة مراكش يُعلمنا بالعمل على إطلاق سراحنا خلال أسبوع على أبعد حدّ. لم نصدقه طبعاً. لكنه عشية اليوم الموعود عاد إلى زيارتنا وبرفقته عدد من الضبّاط وقال:

ـ هل جمعتم أغراضكم؟

ـ أغراضنا؟ يمكن أن نجمعها خلال نصف ساعة.

الواقع أن الڤيلا كانت تحوي كلاباً وقططاً أكثر مما تحوي ملابس. كانت هذه الحظيرة الحيوانية مصدر تسلية للأولاد، لكن رائحة القطط الكريهة كانت تنتشر في كل مكان، والكلاب تنبح دون انقطاع والكلبات تضع جراءها فوق الأرائك. غدا مقرُّنا ملجأ لحيوانات المنطقة الشاردة.

حَضَرَت في يوم الثلاثاء 26 شباط (فبراير) سيارات عائدة لإدارة الأمن الإقليمي (DST) لكنها خالية من علاماتها المميّزة ويقودها شرطيون مدنيون، لنقلنا من مركز إقامتنا الجبريّة؛ فإطلاق سراحنا ليس خدعة جديدة إذن، ولا هو نقل إلى مكان اعتقال آخر، بل هو تحرير فعلي لنا. فتح الحسن الثاني بمناسبة الذكرى الثلاثين لاعتلائه العرش أبواب سجننا.

تحركنا من مراكش باتجاه الرباط وأعيننا تحدّق بذهول في كل مانراه، نتطلع إلى العالم المحيط بنا بشوق وفضول: كأنّنا آتون من كوكب آخر. نتأمّل الخضرة في كل مكان، والأزهار، والخشخاش المنثور. ملاحظة الطريق الذي ينساب بسرعة أمامنا يصوّر الآن بواكير السعادة.

مع ذلك لم أشعر بأي سرور، لم أتوقع السعادة لنفسي. أوّلاً مرَّت

السنون وانتظرنا طويلاً، ثم حتى لو شعرنا أن الأمور قد تطوَّرت، وأنّها قد بدأت تتحرك، فأنا أعرف جيّداً هؤلاء الأشخاص، وأشك في تركهم لنا ننعم بالهدوء بسهولة.

تركونا في أغدال، أحد أحياء الرباط، أمام منزل أخي وحيد، وقالوا لنا كتحية وداع:

ـ تدبّروا أمر أنفسكم.

برز أصدقاء من الماضي وقد حضروا لاستقبالنا، متأثّرين لرؤيتنا من جديد، متألمين لكل ما حصل لنا. إنّما من الجهة الأخرى من الشارع كان رجال الشرطة يترصَّدون، ويعترضون طريق كل شخص وافد لتحيتنا باستنطاق مقتضب:

ـ ماذا يمثّل هؤلاء الأشخاص بالنسبة لك؟ ماهي علاقاتك بهم؟

إذن أخلي سبيلنا كمجرمين، كأشقياء مرعبين يجب الاستمرار في مراقبتهم. بالطبع من الضروري تبرير ماحصل لنا، ويجب ترويج إشاعة أن هذه المرأة، فاطمة أوفقير، شخصية خطيرة أرادت أن تقلب نظام الحكم.

في المساء نفسه حضر رجال الشرطة مع أحد المحامين مزوّدين بأكداس من الملفات تحوي كومة من سندات الملكية. قالوا لي بلهجة لاتخلو من التهكّم:

ـ يجب ألّا تكونوا فقراء مع كلّ ما تملكون هنا!

اللهجة الساخرة تُضمِر أن أوفقير جَمَع ثروة كالآخرين. أجبت:

ـ إنني آسفة، يجب أن أنظر في هذا عن قرب. إذا كان زوجي يملك كل هذه الثروات فأنا لاأعرفه إذن، وأنا مستعدّة للتبرؤ منه حالاً.

فتحت الملفّات مع المحامي الواحد بعد الآخر. بدأت أدرسها وأخذت الأسماء تتوالى: مولود أوفقير، من مواليد العام 1941 ، سعيد أوفقير من مواليد 1944 ، محمود أوفقير من مواليد العام 1946 ، كريم أوفقير، من مواليد العام 1953 ... لم أستطع إلا أن أبدي ملاحظة تفيد تعذّر حمل زوجي لجميع هذه الأسماء، أو أن تعود ولادته إلى جميع هذه التواريخ.

ـ ماذا؟ طلبنا جَرْداً بكل ما يملكه أوفقير.

- أتعتقدون أن زوجي وحده يحمل هذه الكنية؟ قد توجد ألفا عائلة تحمل اسم أوفقير!

راجعنا جميع الملفّات، ودققنا في جميع السندات؛ وجدنا خمسة منها تحمل اسم محمد أوفقير، أحدها يعود إلى المزرعة الصغيرة في ضاحية الرباط والأرض العائدة لها بمساحة خمسة وعشرين هكتاراً، تلك التي كان زوجي شديد الإعجاب بها.

علّق المحامي وهو مرتبك خجلاً: إنّك على حقّ.

كنت مغتاظة ورددت بحنق:

- أعرف جيداً زوجي؛ إنّكم في طريقكم لإعداد مسرحية تقصون فيها على الملأ أننا واسعو الثراء... بيد أن جميع الناس يعرفون ماذا نملك، ومن أين أتى مال أوفقير!

جمعوا ملفاتهم ورحلوا وقد أحسّوا بطريقتهم غير المهذبة. لكنهم أعلموني مايلي:

- قرّر الملك أن يهتم المحامي نصيري بشؤونكم، وكل ما لكم لدى الغير، أو لدى الدولة سيعاد إليكم.

وانتظرنا، ومازلنا ننتظر. ونحن لسنا من النوع الذي يتوسّل. وبانتظام وفي كل مرّة يتوسّط أحد الشخصيات السياسية الأجنبية، أو يطلق كلمة، أو يطرح سؤالاً؛ يأتون للقائنا وعلى أفواههم تلك اللازمة الرتيبة:

- نظّموا لنا قائمة بما تملكون.

نظّمت هذه القائمة مئة مرّة، وفي كل مرّة يأتي مسؤول آخر أو قانوني آخر:

- أنا من سيهتم بهذه القضيّة. أعدّوا لي القائمة...

في النهاية طفح الكيل ومللت:

- لن أفعل شيئاً، تصدّع رأسي من تنظيم هذه القائمة! ليس لديّ أشياء كبيرة، وهم يعرفون ذلك جيّداً. لديهم كلّهم محاضر الاجتماعات، ويعرفون المشكلة. إذا أرادوا تسويتها، سوّوها، أمّا إذا لم يريدوا فستراوح مكانها.

لم أعد أرغب في بذل جهود لاجدوى منها. أفضل أن أرى كل شيء يضيع بدلاً من أن أُجرّ إلى السعي عبثاً لألقى التسويف باستمرار. إنّهم يسخرون مني. يطلبون القائمة عندما يخشون اتصالي بالصحافة أو إدلائي بتصريح. يخطرونني بلطف متكلّف:

ـ كما تعلمين، لايحب الملك أن يتدخّل الأجانب في قضاياه ومشاكله. إذا أردت شيئاً أطلبيه بوساطة مغاربة.

لجأت إلى مدافعين محليين في محاولة لاسترداد أملاكي. لكنني لم ألق إلا الجبناء الذين يدبُّ الذعر في نفوسهم لفكرة أن يثيروا أمام الملك قضية تزعجه. غالباً ما فكرت، بهذا الخصوص، بتلك الملاحظة التي أبداها تاليران(*) بعد أن نفَّذ نابوليون حكم الإعدام بدوق أنجين(**): «هذا أكبر من جريمة، إنّه خطأ». في السياسة تُمحى الجريمة وتُنسَى، أمّا الخطأ فيَبقى ويُذكَر.

يجب خاصة الاستكانة كماء راكد. وعدم الحركة كموج البحر، وعدم تنبيه الأجانب واستنفارهم. غدونا أحراراً إنّما في بلاد مكمّمة الفمّ. غدونا أحراراً إنّما بشرط ألا نمارس حريّتنا.

(*) تاليران Talleyrand (1754 ـ 1838) رجل دين ودبلوماسي فرنسي، دخل عضواً في الجمعية التأسيسية وأيّد الثورة الفرنسية فأدانه البابا. تخلى عن ثوب الكهنوت وكَسِبَ ثقة نابوليون فعيّنه وزيراً للخارجية (1797 ـ 1807) اشترك في مؤامرة ضد الإمبراطور العام 1808 فأبعد. شكّل حكومة مؤقتة بعد انهزام نابليون العام 1814 وعاد مجدّداً وزيراً للخارجية في عهد الملكية الثانية ـ المترجم.

(**) دوق أنجين Duc d'Enghin: هنري دي كونده (1772 ـ 1804) آخر نبلاء آل كونده، هاجر من فرنسا عند بدء الثورة العام 1789 . كان من المطالبين بعرش فرنسا فعمل نابوليون على خطفه من ألمانيا ونقله إلى فرنسا. أعدم رمياً بالرصاص العام 1804 ـ المترجم.

XII

تَعلُّم الحياة ثانية

«أحرار لكننا نعيش في المغرب حياة مضطربة، خرقاء متخلخلة. مع أنها تجلت في البدء رائعة، خلال عدة أسابيع أخذ أولادي يخالطون الأميرات الشابات، بنات الملك. بكت ابنة العاهل الكبرى للّا مريم عندما علمت بالآلام التي لقيها عبد اللطيف في طفولته.

كنت قد عرفت، سابقاً، ولي العهد في طفولته. رأيته مجدّداً صيف العام 1991 في مطعم على شاطئ البحر، هو ملهى ليلي أيضاً. كان جالساً مع شبّان في مثل سنّه. جاء يرقص ببساطة، ودون تعقيد؛ وقد تعرّف عليه رؤوف سابقاً، فطلب مني الذهاب لتحيّته. تقدّمت من الأمير ووضعت يدي على يده، ونطقت بهذه الكلمات:

ـ سُميَّة سيدي. أنت كل أملنا.

وعدت إلى مكاني.

لماذا قلت له ذلك؟ كيف يمكن لهذا الشاب غير المتمتع في حينه بأيّة سلطة أن يكون أملاً بالنسبة لنا؟ ليس لكلماتي أي معنى. فالملك في صحة جيّدة، ويبدو وكأنه سيعيش عشرين سنة أخرى. بعد أن جَلستُ في مكاني، قلت لمليكة:

ـ أيّ خَبَل أصابني. كيف نطقت بهذه الكلمات؟ سيفكر بأنني مجنونة أو أنني أريد أن أؤلّبه ضد أبيه...

لكن الأمير الشاب سيدي محمد بدا سعيداً لتعرّفه علينا وقال لرؤوف:

ـ بيتي مفتوح أمامك، يمكنك الحضور إليه متى شئت.

لكن هذه الاتصالات انقطعت، للأسف، فجأة، بعد أسبوع من هذا اللقاء. فقد نُشِرت أصداءٌ رعناء في الصحافة الفرنسية عن هذا اللقاء تعلن أن ملك المغرب يحاول أن يعيد علاقاته الطيّبة مع عائلة أوفقير وقد أرسل أولاده وسطاء لهذا الغرض... أراد الحسن الثاني أن يقطع مباشرة دابر هذه الشائعة الخرقاء فوضع حدّاً لتلك العلاقة. وعندما أرادت للّا أمينة - أخت الملك - أن تدعونا فيما بعد إلى سباق خيل أُوعز إليها بشدّة أن تمتنع عن ذلك. قيل لها:

- حذارِ، ستجدين الصحافيين يلاحقونك، ويقصّون مايشاؤون عن دوافع هذه الدعوة...

لم يقتصر الملك على عزلنا عن أفراد عائلته الخاصة، بل عمل جهده لعزلنا أيضاً عن المجتمع المغربي. حضر في البداية بعض الأصدقاء لمواساتنا، غير أنهم تعبوا من مضايقات الشرطة الذين يستدعونهم للتحقيق عقب كل زيارة لنا. تتبّع عبد العزيز العبوش مدير الأمن الاقليمي خطانا وأرسل عملاءه يمطرون بالأسئلة المحرجة من يتصلون بنا عن كنه علاقاته معنا. استمرّ انتقام العاهل أو مأجوريه مابعد السجن. يجب متابعة إثارة الذعر من اسم أوفقير. النتيجة: أغلقت جميع أبواب المجتمع أمامنا.

آمنت على الدوام بعودتنا. في السجن كنت أكرّر للأولاد أننا سنعرف في يوم ما شيئاً آخر غير الجدران والأشرطة المسيّجة. لكنني كنت أجهل أننا سنجد أنفسنا معزولين، وأن انتقام الملك، بوساطة وزير داخليته إدريس البصري سيكون خسيساً، خافتاً ومستتراً لسنوات أيضاً. كنت أجهل أن الأولاد سيضطرون أحياناً إلى إرهاق أنفسهم في أعمال منهكة من أجل أجور زهيدة.

كان الماضي يُنبَش بانتظام ليغرقنا في القلق. حتى الملك أتى على ذكر وزيره السابق. في العام 1976 ، وفي كتابه *التحدي*[1] اعترف أن أوفقير «قدّم له، في السابق، براهين لاتدحض عن ولائه» ثم استشهد الحسن الثاني بقولٍ لشكسبير: «إعصِف، إعصِف، يا ريح الشتاء، لن تكون بمثل قسوة عقوق الرجال»، ليستخلص أخيراً: «هذا العقوق لاحدّ له، وبهذا المعنى يمكن القول إن الجنرال أوفقير شخصية شكسبيرية».

---

(1) التحدي LeDefi عن دار Albin Michel ألبين ميشيل - باريس.

وفيما بعد، في العام 1993 ، وفي محاورات مع إريك لوران، *ذاكرة ملك*[1] يتعالى الملك بنظرة فوقيّة إلى الجنرال المتوفي. فهو وفقاً لرؤيته المزيّفة والناقصة للتاريخ يكاد لايعرف الرجل الذي أولاه، مع ذلك، ثقته. غدا زوجي فجأة أداة قذفها القَدَر من مكان تافه. جاء على لسان الملك: «عندما عدنا إلى المغرب (بعد المنفى)، كان أوفقير الذي كان يعمل آنذاك في المندوبية الفرنسية، عند سلّم الطائرة. حيّانا واستقرَّ إلى جانب السائق بصفة مرافق عسكري. في اليوم التالي وجدناه مجدّداً في الحرس الملكي، وهكذا. أنا ورثت هذا الرجل ولم يكن لي أيّة علاقة شخصية معه».

في العام 1994 ، نَشَرَ علي يعته، رئيس الحزب الشيوعي، الذي غدا مع مرّ السنين عميلاً للقصر، متمرغاً على أعقاب السلطة، مقالاً، صرخ فيه باختصار: «الآن يجب القول لعائلة أوفقير بأنَّ عليها أن تعيد إلى المغرب ما أخذه زوجها وأبو أولادها من المغرب، وأودعه سرّاً في أحد المصارف الأجنبية». هي أسطر يجب أن تخجله حتى في القبر. إذ أنّه لقي الميتة التي لاأتمناها له: سائق أرعن ثَمِل دهسه بسيّارته وحطّم جمجمته.

فيما بعد أيضاً، كتب فقيه البصري، حكيم المعارضة، الذي بقي نحو ثلاثين سنة مُبعداً في باريس، في مجلة أفريقيا الفتيّة Jeune Afrique، أسطراً حاقدة يذكر فيها عدم وجود أوْفقير طيِّب أو أوفقير سيِّء. لايوجد إلا السيِّء. أسفت لهذه الكلمات لأنني أكنُّ الإعجاب للرجل والاحترام لأفكاره.

أريد جيّداً توجيه الانتقاد لأُوفقير، ولكن ليس بهذه الحُجج المضلّلة. أنا أشمئزُّ من الكذابين والمتلاعبين. بالنسبة لهؤلاء المخادعين مزوّري التاريخ، يُعدُّ أوفقير المسؤول الوحيد عن مصائب البلاد، وأوفقير هو المتحكّم في المغرب، وأوفقير مرتكب جميع الأخطاء، وجميع الجرائم.

يجب القول إن لهذه الحملة من القدح والذم أسبابها؛ فمع مشكلة الصحراء الغربية استخدمت قضية أوفقير بمهارة من قبل الدسّاسين، وكانت العنصر الوحيد الذي يتيح لإدريس البصري وفريقه أن يبقوا في

---

(1) إريك لوران Erie Laurent ذاكرة ملك La Memoire d'un roi عن دار بلون plon ـ باريس.

أماكنهم. فالوزير القوي المتشبث بكرسيّه، غير القابل للعزل، يلوّح أمام الملك بخطر تمرّدٍ، يُعَدُّ اسم أوفقير العامل المحفّز له.

إدريس البصري... التقيت به مرّة واحدة في العام 1967 . كان مفوّض شرطة بسيطاً مسؤولاً عن مدرسة الشرطة في مكناس. في صباح عيد الأضحى ذهبت لأقدّم تهانيَّ للملك، وعندما عدت إلى المنزل طلب مني أوفقير أن أبقى إلى جانبه لأن بعض الشخصيات ستأتي لتحيتنا وتهنئتنا بهذه المناسبة الإسلامية الهامة. مرّ بعض الوجهاء ومن بينهم رأيت رجلاً يدخل محني الرأس. وصل إلى قربنا وقدّم تهانيه، ولم أتمكن من تمييز نظرته... فقد خرج وهو يسير متراجعاً كأنّه أمام الملك. التفتُّ نحو زوجي وسألته من يكون هذا الشخص الغريب. تمتم لي أوفقير وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة:

ـ إنّه ذلك الذي سيحتل مكاني يوماً ما! رجل طموح ويعرف كيف يصل إلى مآربه. إنه رجل القصر.

أمثال البصري الذين دسّوا للوصول إلى مناصبهم العالية من مصلحتهم أن يؤجّجوا دون انقطاع ظلَّ الجنرال المتوفي، وأن يظهرونا دائماً متآمرين خطرين. ليس لرجال الحاشية أيّة مصلحة في تهدئة العلاقات المتوتّرة بيننا وبين الملك. وعلى المراقبين من الخارج ألا يدسّوا أنوفهم في هذه القضية، وألا يحاولوا التوسط فيها؛ وحالتنا يجب أن تبقى مأساة خفيّة تعالج وراء أبواب مُغلَقة.

ضمن هذه الظروف أدركنا بسرعة أن حياتنا في المغرب غدت لاتحتمل. يجب أن نرحل لنبني كياناً لنا في مكان آخر، إنّما في كلّ مرّة نطالب بجواز سفرنا تجيبنا الإدارة المختصَّة معلنة عجزها:

ـ تعلمون جيّداً أن تقرير ذلك يعود إلى الملك ونحن لانستطيع مراجعته بهذا الشأن...

أمام هذا الوضع وجه رؤوف باسمه واسم أخيه وأخواته نداءً إلى الرأي العام الدولي نشرته جريدة لوموند Le Monde بتاريخ 25 شباط (فبراير) 1994:

«بين السجن والحريّة، عشنا ومازلنا نعيش وضعاً قانونياً غير محّدد؛ مع انطباع بأننا بعد تسعة عشر عاماً من الاعتقال، نُرمَى في

الشارع دون اهتمام بأجسامنا المرهقة، أو قلوبنا المدماة، أو وجودنا المدمّر: دون أن نُمنَح حق إعادة بناء حياتنا، أو الحرية والوسائل اللازمة لذلك.

لزمنا الصمت معتقدين بحلّ دون صدمات جديدة، ودون مجابهة، ودون فقد الثقة ببلادنا. تمنينا بشوق أن يأتي هذا الحلّ، وسعينا إليه بكل ما نملك من قوة (...).

تمنينا أن نتمكن من الذهاب إلى خارج المغرب ثم العودة إليه، وهذا ما يضمنه دستورنا لجميع المواطنين، ورجونا أن يفسح المجال لنا للإبداع ومباشرة العمل وفق مبدأ تكافؤ الفرص نفسه الذي يرنو إليه كل هذا الجيل الديناميكي الذي لايحلم إلا بتحقيق العزة والازدهار للمغرب في ركب الأمم الحديثة».

أمام تعذّر فرارنا من البلاد، ضربنا صفحاً عن الماضي، حاولنا رغم كل شيء أن نؤسس لنا مستقبلاً في المغرب بالذات. فانطلقت مليكة في إنتاج أفلام دعائية؛ واتبع رؤوف دراسة خاصة في الحقوق والصحافة، واهتمت مريم بالأطفال المصابين بالتدرن الرئوي ثم تزوّجت؛ وعملت ماريا في إدارة سينمائية وتبنت ولداً صغيراً ابن سبعة أشهر وجدته في أحد المشافي اسمه ميخائيل؛ كان يحتضر، عيناه غائرتان، وبطنه متورم، وذراعاه شديدتا النحول. حوّلته إلى صبي صلب يحمل الآن كنيةَ أوفقير. وسُكينة تكتب أغنيات وتحلم بالتمثيل تحت أضواء المسرح. أما عبد اللطيف فهو الأكثر هشاشة بيننا وهو يفتش عن النسيان في حياة مضطربة، وازدادت معاناته بمصيبة أخرى أيضاً: فابن عمه حمزة الذي درّبه على التلاؤم مع الحياة اصطدم بسيارته الغولف في جدار وفارق الحياة بين يديه.

من جهتي وقد سجنت وأنا في السادسة والثلاثين من العمر، لأخرج وأنا في الخامسة والخمسين. مازال أكافح ليعرف أولادي الحدّ الأدنى من الرفاهية بعد هذه السنوات من الشقاء.

* * *

في حزيران (يونيو) 1996 ، هربت ماريا، المضطربة من فكرة

قضاء حياتها في المغرب. عملية خطرة متهوّرة يمكن أن تتعرّض فيها للموت. تصوّرت خطة جامحة بمساعدة سينمائي بمثل تهوّرها. على متن زورق أجرة انطلقت ماريا وصديقها وابنها ميخائيل، وابنة عمي عاشورا من محطة سمير ـ رستينكا(*) على أمل الوصول إلى إسبانيا. هبّت عاصفة رهيبة ذلك المساء، وأوشك الزورق الذي تتقاذفه الأمواج العاتية على الغرق... ورآهم حراس الشواطئ. المغاربة من جهة، والإسبان من الجهة الأخرى... لحسن الحظ وصل الإسبان أولاً، وأمكن لابنتي أن تعلن عن هويّتها:

ـ أنا ماريا أوفقير، هربت من المغرب...

كان بإمكان حرس الشواطئ أن يرفضوا التدخّل في هذه القضية ويسلموا هذه الزمرة إلى السلطات المغربيّة، وبدلاً من أن يفعلوا ذلك قادوا الهاربين إلى سبتة(**) واتصلوا بالسلطات المختصّة في مدريد لتلقي توجيهاتها.

لاعلاقة للسينمائي الفرنسي بالهروب. ونُقل المغاربة الثلاثة: ماريا وابنها بالتبني وابنة عمي عاشورا ـ إلى إشبيلية، على متن طوّافة (هليكوبتر) وأنزلوا في أحد أجمل فنادق المدينة، حيث بقوا ثلاثة أيام إلى أن تمكّنت السلطات العليا في مدريد من إنهاء المفاوضات مع فرنسا التي طلبت ابنتي اللجوء السياسي إليها.

لم يكن جاك شيراك متحمساً لمنح هذا اللجوء، وردّ على خوسيه ماريا أزنَار رئيس الحكومة الإسبانية:

ـ لماذا لاتحتفظ بهم لديك؟

ـ لو أنهم طلبوا اللجوء إلى إسبانيا لرحّبت بهم، لكنهم يريدون الذهاب إلى فرنسا.

قَبِل جاك شيراك، على مضض، فهو لايستطيع أبداً أن يفعل غير

(*) سمير ـ رستينكا: بلدة مغربية سياحية ومنتجع بحري على البحر الأبيض المتوسط على بعد نحو 20 كم من المدينة الإسبانية سبتة ـ المترجم.

(**) سبتة Ceuta: مرفأ حر على الشاطئ الأفريقي مقابل جبل طارق عدد سكانه نحو 100000 نسمة معظمهم من المغاربة، وهو مع مليلة المرفأ الآخر الواقع على بعد 500 كم تقريباً إلى الشرق منه والمماثل له في عدد السكان، مدينتان إسبانيتان ضمن أراضي المملكة المغربية التي تطالب بهما باستمرار ـ المترجم.

ذلك: خبر هروب ماريا انتشر وأذيع، وصحافيو التلفاز الفرنسي غدوا بيننا في المغرب لإجراء المقابلات والتعليقات ولايمكن التستر على هذه القضيّة. وبتاريخ 26 حزيران (يونيو)، وصلت ماريا إلى باريس.

بعد ذلك بيومين منحتنا السلطات المغربيّة جوازات سفرنا.

* * *

قُلبت صفحة من التاريخ، بالنسبة لنا وللحسن الثاني. تغيّرت الأجواء في البلاد. وكان الملك من الذكاء بحيث سار مع رياح التغيير، ومن الجرأة بحيث اعترف بأخطائه. تبينّ الوضع ونظر إلى الماضي متأمّلاً بعين ناقدة سنوات ملكه. في العادة لاتتيح ممارسة الملكية مطلقاً هذا التأمّل الباطني: فالحياة تجري مسرعة جدّاً، والدفّة موجّهة على السير إلى الأمام، نحو المستقبل. لكن الملك، مع شعوره بالشيخوخة، عمد إلى وقفة مع الذات، تطلّع فيها إلى صورته، واكتشف أخطاءه الماضية فحاول أن يتداركها على طريقته.

ألم يكن طاغية مستبدّاً، قادراً على أن يؤكّد بكل هدوء أنه قادر على إزالة ثلثي الشعب في حال اللزوم ليعيش الثلث الباقي بشكل أفضل؟ ألم يفسح المجال خلال عشرين سنة لاختلاس أموال الدولة ونهب ثرواتها؟

في بعض الأوساط، كان الفساد المعمَّم، والمتوطّد في مؤسّسات ملموساً وواضحاً: عرفت أشخاصاً ذوي أحوال متواضعة، وغدْتُ لأجدهم من أصحاب المليارات. أغمض الملك عينيه. من أجل أن يوطد سلطته في الداخل ويضمن السلام وضع أمام الشعب مَثَلاً أعلى في تحرير الصحراء الغربية، وترك الباقي بين أيدي بعض الأقطاب المتسلّطين الذين ملؤوا جيوبهم. في هذ الجو الفاسد انقلبت القيم في البلاد، وتحوّل بعض الموظفين الدمثين والشرفاء إلى أشخاص خطرين مرتشين. غدوا من الكواسر الذين يُسمُّون السادة عشرين بالمئة، وثلاثين بالمئة، وأربعين بالمئة...

لاحظ الحسن الثاني أخيراً، دون أن يتخلى عن السلطة المطلقة ـ التي احتفظ بها حتى مماته ـ أن العالم يتطوَّر، وعليه أن يتطوّر معه، في طريقة إدارته للبلاد، وفي نمط تقريره، وفي أسلوب سلوكه.

تحت تأثير الضغط الدولي رأينا أبواب السجون تفتح، ومعتقلات

الأشغال الشاقّة تأخذ منحى إصلاحياً وتوفيقياً؛ وإبراهيم صرفاتي، المعارض الشهير يُبعَد إلى فرنسا، رغم أنّه من أكبر الوطنيين الذين عرفهم التاريخ، وهو يعبد المغرب أكثر من جميع المغاربة مجتمعين؛ وقد خرج الأخوة بورَقّات الثلاثة من الجحيم الذي سجنوا فيه منكمشين، مرضى، شيوخاً عجزة قبل الأوان. كل ذلك لم يعط صورة طيّبة عن البلاد، لكنه دليل تحوّل في السياسة الداخلية.

أعتقد أن الحسن الثاني أراد فعلاً أن يغيّر عندما أصابه المرض. في العام 1994 أصيب بالتهاب رئة، وبتوقّف القلب عن القيام بوظائفه مع ظهور عُلل عديدة أخرى. عُرف عنه أيضاً أنه يعاني من مرض كرون(*)، لكن كل ذلك بقي غامضاً، محاطاً بالكتمان. قيل عنه إنّه مريض منذ سنوات، دون معرفة نوع علّته تماماً. يبدو أن مَرَض رؤساء الدول من المحرّمات التي لايجوز التحدّث عنها؛ هكذا كان مرض بومبيدو(**)، وميتران(***) من الأسرار الخفيّة.

هذا الملك الواهن الذي بردت غلته يريد أن يراني ثانية. أنا أيضاً أريد أن أجد نفسي في مواجهته. تقاسمنا أشياء أخرى غير الضراء، عرفته في لحظات ممتازة من حياتي وحياته. لكنني لا أعلم ماذا سأقول له. هل سأعاتبه؟ كلا. السجن والعذاب جعلا مني امرأة أخرى مختلفة لم تنكشف حقيقتها في حياة الدعة والطمأنينة: امرأة حقيقية، صلبة، واعية لمرورها على هذه الأرض. أنا أعلم الآن أن الأثواب والبهرجات والسهرات وحفلات الرقص لاتبرّر وجودنا العابر في هذه الدنيا. المعاناة والألم، بالمقابل، تتيح للكائن أن يحكم على نفسه، وأن يقدّرها، وكأن صوتاً هامساً في قلب الهول يتمتم في أذنه: «هل أنت حقير، أو أنك فعلاً تستحق الاحترام؟».

هيّأ لي الحسن الثاني «وحدائقه» السريّة البغيضة الفرصة لأدرك

(*) مرض كرون Maladie de Crohn: هو التهاب الأمعاء اللفائفية، وتنسب إلى مكتشفها الطبيب الأمريكي كرون.

(**) بومبيدو «جورج» G. Pompidou: (1911 - 1974) رئيس وزراء فرنسا 1962 - 1968 ثم رئيس الجمهورية 1969 قضى مريضاً بالسرطان.

(***) ميتران، «فرانسوا» F. Mitterand: (1916 - 1995) رئيس جمهورية فرنسا 1981 - 1995 قضى مريضاً بسرطان المثانة - المترجم.

حقيقتي، وأعرف قدري، وأقارن نفسي بالملك، يوماً بعد يوم، وخلال تسعة عشر عاماً. هذه المبارزة أتاحت لي أن أظهر أفضل ما أتحلّى به. في أحلك أيام شقائي التزمت بالبقاء أبيّة مرفوعة الرأس حتى في مواجهتي الملك ذاته. أنا مقتنعة بأنه عرف ذلك وأنه أدرك أنني تلقيت بالكرامة نفسها نعمته ونقمته.

كانت الإدارة تقدّم له، مرة في السنة، على ما أعتقد، تقريراً عن وضعنا وردود فعلنا. وهي تقارير مشوّهة ومزيّفة بالتأكيد. لكنني أعتقد أنه كان قادراً، بذكائه الحاد، على أن يستشف منها أن بعض الأشخاص يرفضون أن يبيعوا روحهم، وأنهم وهم المسحوقون، المضطهدون، بقوا واقفين أمنع من أن تحطمهم زنزاناته وقسوة سجّانيه. أدرك دون شك أن العدو الذي صنعه كان على مستواه.

عند خروجنا من السجن لم أفكّر أبداً أن الحريّة ستوفر لي ما أرغب به تماماً. والواقع، أنّها ككل شيء طال انتظاره، بَدَت مخيّبة للآمال.

في السجن كان ينقصنا كل شيء، وكنا نتألم، ونعيش المآسي؛ لكننا الشهود الوحيدون على انحطاطنا وشقائنا. نضعف أحياناً، ونقنط أحياناً أخرى، ولا أحد يرانا. نرتدي أسمالاً بالية، ولانجد طعاماً يسدّ جوعنا، فيتسلط علينا هاجس الحديث عن الغذاء كما شارلو في فيلم حمى *الذهب*(*) عندما يلتهم حذاءه وهو يحلم بفَرْخ دجاج. لكننا كنا متلاحمين فيما بيننا. أما الآن فقد انطلق كل فرد من العائلة يبني حياته، وتفككت هذه اللحمة مع مر السنين. ثقّف الكبارُ الصغارَ، ولم يعترف الصغار بسلطة الكبار. بقي الشقاء وحده موحّداً بيننا: عندما يلحق أي أذى بأحدنا يهرع الآخرون لنجدته.

تمنيت دائماً في حياتي فوق كل شيء أن أنعم بالطمأنينة الداخلية. لم أضع نفسي في المقدمة يوماً. صنعت ما تمكّنتُ من صُنعه للبلاد،

(*) شارلو: هو الممثل الكوميدي الانكليزي المشهور شارلي شابلن، كما ظهر في أقدم أفلامه «حمى الذهب» الذي يعود للعام 1925 ـ المترجم.

وعندما تمكّنت، رغم شبابي، ورغم مسؤولياتي العائلية. لا أحد يستطيع الآن إعطائي دروساً في الوطنية، أو الإخلاص، أو الشرف. مسلمة أنا مثل أيّة مسلمة أخرى، ووطنيَّة أكثر من أيِّ إنسان؛ وسأبقى وطنية متطرفة. لايمكن لأحد أن يواجهني متّهماً إياي بالفساد. أشعر أنني حرّة ونظيفة. يمكنني أن أتكلّم وأعبّر عن كل ما يجول في خاطري لمن أريد.

في حياتنا الجديدة تخليت عن كل طموح، وتعلّقت بالبساطة، لا أحبّ القصور، ولا الثروات الفاحشة، ولا الاحتفالات الصاخبة، ولا الظهور في الصحف. لا أريد أن أعتّم على أي إنسان، وأريد أن أبقى كما أنا بشخصيتي المعروفة.

جئت إلى الدنيا مرفوعة الرأس، وسأموت مرفوعة الرأس. لا أطلب شيئاً، ولا أدّعي بشيء. لا أريد سلطة، ولاشهرة. لي أصدقاء لكنني لا أخرج من منزلي. لا أريد أن يقارن الناس بين ما كنت فيه وبين ما أنا عليه. إذ أن النفوس الحقيرة ترى ما كنت في الماضي، والآن لاشيء؛ ترى أنني وُجِدت نسبة إلى أوفقير وإلى السلطة.

شاء القدر أن يدفع بي إلى مراكز لم أسع إليها. لم أطلب أبداً أن أكون زوجة أوفقير رجل الدولة. طلبت أن أكون زوجة الضابط الذي عرفته ظريفاً، لطيفاً، ممتعاً، مغرماً بي، يفعل كل ما أريد، فهو الأب، والصديق، والزوج، والعاشق الذي أحبّني حتى الساعة الأخيرة من حياته. وحتى تلك الساعة كان يمارس الحب معي بهوى العاشق، لا كواجب زوجي بعد مرور عشرين سنة على زواجنا. ساد بيننا حتى النهاية احترام كبير ورغبة تتجدّد كلّ يوم. عرفني وأنا دون الخامسة عشرة من عمري فصقلني وصاغني. فهم أسباب خيانتي الزوجيّة وعرف كيف يستردّني. عندما كنت أنقاشه وأبدي رأيي في الأحداث أو انطباعاتي عن الأشخاص، تظهر عليه أمارات السعادة، بل والاعتزاز تقريباً فأنا صنيعة يديه.

أشتاق إلى نظرته، وأبقى في الظل. هل أشترك في منظمات للدفاع عن حقوق الإنسان، وأناضل في جمعيات؟ هذا يضعني حتماً، نظراً لماضيَّ، تحت أنوار الكشافات الضوئية. ستُستأنف الأحكام علي، ويوجّه اللوم لي، وقد يلحقون بي الضرر أيضاً. أنا لاأريد إلا السلام.

أريد أن تظهر الحقيقة بعد أن جعلوا من حياتنا جحيماً من الأكاذيب والافتراءات. أريد أن يعرف الأولاد من هو أبوهم، وأن يقتنعوا بصدقي وحسن نيتي.

شخصيّاً لم أسبب أيّ ضرر لأي إنسان، ولم أستخدم سلطة زوجي ضد أيّ كان؛ أستطيع أن أتجول في أي مكان من المغرب، ولايمكن اتهامي بأنني استخدمت في السابق امتيازاتي. غير أنني أيضاً ذات طبع حاد، فإن لم أعامل باحترام أو يُحاوَلُ المسّ من كبريائي، أنتفض وأتمرّد. وقد عرف الحسن الثاني بي ذلك فلم يوجّه لي يوماً نقداً أو كلمة جارحة.

كلّ ما أتوق إليه الآن هو أن أقضي شيخوخة هادئة. ارتويت من كل شيء. لا أريد أن ألعب أي دور، أو أن أشغل أي مركز، أو أن أنافس أي كان. بلبلوا حياتي، وحياة أولادي، وسلبوا كل ما أملك، وحطّموا آمالي. لكل كائن بشري ردّ فعل على طريقته بعضهم لايستطيع أن ينفكّ عن ماضيه ويتوق دوماً إليه. وأنا لست من الصنف الذي يستعطف لإعادتي إلى المركز الذي كنت أشغله. كلّا، قُلبت الصفحة. وداعاً وشكراً. إذا تمكّنا أن نبقى أصدقاء، من بعيد، فهذا جيّد جداً؛ وإذا تعذر ذلك فالأمر سيان. أريد فقط الانسجام مع نفسي، وألّا أقسر على فعل شيء. أن أكون حرة أخيراً.

رأيت عائلات أكنّ لها كل الاحترام وقد تردّت في مهانة حقيقية، واستمرت تأمل عبثاً في منحها الفُتات. يجب القبول بظروفها الجديدة والرضى عن حياتها الجديدة. كنت على هذا المستوى أو ذاك، ولم أعد فيه. لكنني بقيت كثيرة الاعتزاز بنفسي. لم تمرّ عليَّ لحظة يمكن أن أقول فيها «إنني أخللت بالشرف»، كما لم تمرّ علي لحظة بعت فيها روحي للشيطان لأصل إلى غايتي. إنني مرتاحة الضمير حتى وإن كان أولادي يلومونني أحياناً على إفراطي في الكبرياء، وفي عدم التساهل.

* * *

رغم كلّ ما تعرّضت له، أبقى شديدة الولاء للملكية. حُدّثت دائماً في عائلتي عن مساوئ الانشقاق في الماضي... تلك الحقبة التي كانت القبائل تتنازع فيما بينها ويتمرّد بعضها على السلطان ويثيرون

القلاقل في البلاد ويعرضونها لحروب لاتنتهي. روى لي جدّي كيف كانت تقطع أيدي النساء لسرقة أساورهن لشراء السلاح والخيول والبنادق. قصّ علي تفاصيل رهيبة عن الصراعات الداخلية قبل مجيء الفرنسيين، ليستخلص:

- ابنتي، يجب ألا ننسى أبداً أن الملكية أساس الاستقرار في البلاد.

كبرت مع هذه الفكرة وبقيت أمينة لها. ماتزال كلمات جدّي تتردّد في خاطري. بالنسبة له كما بالنسبة لأوفقير، ولنا جميعاً، نحن الذين شهدنا الكفاح من أجل الاستقلال، تُعَدُّ الملكيةُ ملكيةَ الشعب، متحدّرةً من الشعب.

في الماضي كان السلطان يعيش مما يقدّم له رعاياه من المال والحبوب، والصوف، والخيول، وحتى من الأراضي والبيوت. كل سنة يُقام احتفال على شرفه وتأتي جميع القبائل تجدّد له *البيعة*، ميثاق الولاء للمعلم. السلطان للشعب والشعب للسلطان. لاتوجد أيّة هوة أو حاجز بين أحدهما والآخر. لم يكن السلطان يتجوّل محاطاً بحرس ويمكن لمن يريد مراجعته بشأن أو التحدث إليه الدخول مباشرة إلى القصر. هو في الوقت نفسه محاط باحترام مطلق: لا أحد يوجّه إليه النقد، والمؤمنون يخشون العقاب الإلهي إن تجرؤوا على رفع الصوت أمامه أو التنديد به، فهو سليلِ النبي، وممثّل الله على الأرض، والرابطة المقدّسة بين مختلف شعوب البلاد.

ذلك أن المغرب، الذي يعود سكانه إلى سلالات وقبائل مختلفة، على وشك التفجّر دوماً. ففي العام 1926 ، حدث انشقاق بين الشمال والجنوب شطر البلاد إلى قسمين: قسم يحكمه الفرنسيون، وقسم آخر يحكمه الإسبان. أخيراً تمكن محمد الخامس من فرض سلطته على جميع المغاربة؛ وفي حال إقامة نظام آخر، في الوقت الحاضر، يخشى أن تتحطم هذه الوحدة.

في الواقع تتألف أُمّة المغرب من شعوب ذات مشاعر خاصة شديدة التوقّد. فشعب منطقة الريف انفصاليٌّ في صميمه، والبربر الذين يعيشون في الجنوب يتكلمون لهجة إقليمية مختلفة عن اللهجات الأخرى. وفي سهل سوس توجد أقوام صينية في أصولها القديمة هي

ذكرى بقايا العصور التي كانت فيها قوافل إمبراطورية الصين الوسطى تصل إلى أفريقيا الشمالية للمتاجرة بالشاي واللؤلؤ والقيشاني والجواري...

لاوجه للشبه مع بربر وسط المغرب، المتهتكين، الثرثارين، المقاتلين، محبّي المظاهر، والمزدرين بالتهافت على المال. إنّهم يملكون خيولاً رائعة ذات سروج مطرزة ويقضون حياتهم في ألعاب فروسية. توجد قبائل الحدود مع الجزائر، وجنوب مراكش وهم خليط من العرب والأفارقة ويتكلمون لهجة بربرية مختلفة، كما أن لهم عقلية مختلفة، وهم أكثر خضوعاً من متمردي الوسط. ويوجد الجِبَالا في منطقة فاس، وهم أشخاص ذوو عقلية خاصة. المرأة عندهم ترهق نفسها في مختلف الأعمال، بينما الرجل متكئ ينتظر كأس الشاي، وهو يزدري امرأته رغم أنّه سيبقى دون طعام أو شراب لولا جهودها. كما توجد أيضاً البورجوازية الفاسيَّة التي تحتل مركز الصدارة وتمسك بمقاليد الاقتصاد.

لكل من هذه الشعوب طراز حياته وتقاليده. فنحن في منطقة زمّور نتحدّث عن الحبّ صراحة. وغالباً ما يلعب الفتيان على ضفاف الأنهار وفي مياهها مع فتيات برزت نهودهن عارية. فالأشخاص أكثر حريّة في منطقتنا، والحبّ أكثر جلاء فيها منه في المناطق الأخرى. بعكس منطقة الريف حيث المظاهر أكثر صرامة، والنساء يلازمن المنزل.

هذه المناطق المغربية المختلفة المأهولة بقبائل عديدة متباينة تحتاج إلى قلب موحِّد. من يمكنه أن يقول لهؤلاء الناس المتعددي الأجناس: «سنقيم جمهورية، وسننتخب رئيساً...»؟ إن أتى هذا الرئيس من مكناس، فأهل فاس لن يرضوا به، وكذلك أهل مراكش، والدار البيضاء.

لهذا تبقى الملكية شرّاً لابد منه. إنني مؤمنة بهذا أكثر من أي وقت مضى. للبلاد أن تختار: إمّا أن تتفجّر وتتبعثر، أو أن تبقى موحّدة خلف ملكها.

لكن الملكية لاتعني بالضرورة القول بسلطة مطلقة. يجب أن ننشئ دولة صلبة، ملكية نظيفة، ديمقراطية، ودستورية، تتشارك في القسم الأكبر من سلطتها مع رجال سياسيين من أحزاب اليسار واليمين، مع

منتخبين من الشعب. يقول المثل العربي: «يد واحدة لاتصفّق». لابدّ في الواقع لكل نظام من أكثر من يدٍ للإدارة.

يبدو من الضروري إشادة ملكية وجعلها أكثر تكتماً لأن السلطة صدّعت الرؤوس بالدعاية فنشرات الأخبار التي تستغرق ساعتين يومياً لاتتحدث إلا عن الملك وحاشيته. يجب أن يكون الملك حاضراً وقدوة، إنّما دون أن يثقل باستمرار على حياة المغاربة.

أدرك الحسن الثاني ذلك، أخيراً. قبل أن يوافيه الأجل المفاجئ في تموز (يوليو) 1999 وحاول إدخال نظامٍ ديمقراطي فاتر على أسلوب حكمه، دون أن يجرؤ على الانطلاق بعيداً في هذا المضمار. بدأ السير في سياسة جيّدة، لكنه لم يمتلك القوة، ولا التصميم، ولا اندفاع الزمن الغابر. غير أنه عمل ـ ربما بسبب ما يعانيه من ضعف ـ على أن يحوّل، إلى حدّ ما، مجرى الأمور. لم يُرِد، وهو النزق، العنيد، المتسلّط، أن ينفتح على مختلف تيارات الفكر في البلاد. لكنه بعد أن غدا مريضاً، معطوباً، حائراً، بدأ يستمع إلى الآخرين. ويُعَدُّ رئيس وزرائه الأخير عبد الرحمن اليوسفي ـ الذي مايزال في منصبه ـ سياسياً نزيهاً، وهو الزعيم السابق للمعارضة، وأنا أكنّ له كل الاحترام.

الملك الجديد شاب يُتوقَّع أن تَبْدُرَ منه المفاجآت. توافر له الوقت ليرى ويحلّل أخطاء أبيه. وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وقد استطاع أن يُعدُّ نفسه لملكيته. لم يتوافر هذا الحظ للحسن الثاني؛ فهو منذ السابعة من عمره مطّلع على مشاكل الدولة ومشارك لأبيه في قضايا البلاد خاصة بعد عودتهما من المنفى.

لكن محمداً السادس، المستبعد لمدة طويلة عن المشاركة في الحكومة، تيسّرت له مع ذلك الفرص لحضور جلسات مجلس الوزراء، والاستماع، وتعلّم مهنته كملك، وملاحظة الحاشية والمتملقين يزحفون على بطونهم للاحتفاظ بحظواتهم. إضافة إلى أن سنواته التي قضاها بعيداً عن السلطة أتاحت له أن يتعرّف على الحياة خارج القصر... حتى وإن كانت النظرة الملقاة على العالم من قبل ملك مُقبل تختلف عن نظرة عامّة المخلوقات البشرية.

قصارى الأمر، إن الحسن الثاني كان على حق في إبعاد ابنه. هكذا يمكن لمحمد السادس أن يصل إلى العرش رجلاً جديداً.

يتوجّب على العاهل الجديد أن يكون يقظاً، وأن يبقى، إذا أمكن، على طبيعته السابقة. وهذا هو الأمر الأصعب بالنسبة لملك. يجب أن يكون ملك جميع المغاربة، وألّا يتصرف مثل تصرّف أبيه، الذي حرّض عصبة ضد أخرى، وألّب قبيلة ضد أخرى، وأبعد البورجوازية عن الشعب ليعارض كل منهما الآخر. يجب إعادة الثقة، وإقامة الاستقرار، وإفساح المجال للاستثمارات.

سيتمكن محمد السادس من مساعدة البلاد على النهوض إذا بقي كما عرف عنه، وإذا لم يرتكب أخطاء أبيه نفسها، وعَرَفَ كيف يحافظ على عائلته متضامنة معه. يجب ألا تشعر أخواته بأنهن مستبعدات بعد موت والدهنّ، كما كان الحال مع أخوات الحسن الثاني. الأميرات شابات يتحدثن أربع لغات، ويتمتعن بشعبية كبيرة ويمكنهن، دون شكّ، أن يلعبن دوراً هاماً في المجال الاجتماعي.

ذلك لأن هناك أشياء كثيرة يجب فعلها. الفقر مدقع صارخ حالياً! أصحاب المليارات يتقلبون متنعمين في الترف، بينما آخرون لايحصلون من عملهم الشاق إلا على أقل من عشرة دراهم (ثمانية فرنكات) يومياً، لسدّ رمقهم. على جميع هؤلاء السادة «النُّجُب» الذين نهبوا البلاد خلال العقود السابقة أن يعيدوا الآن الأموال التي سرقوها لإعانة السكان المحرومين ولمحاولة اجتثاث البؤس والشقاء.

صحيح أن المشكلة هائلة، فعدد سكان المغرب سيصل قريباً إلى ثلاثين مليون نسمة. بينما كنا عشية الاستقلال سبعة ملايين إنسان، ومع كرّ السنين تغيرت البلاد وصَعُبت إدارتها: يولد الآن فيها ثلاثمئة وخمسون ألف طفل سنوياً، أجيال يجب فتح المدارس لها، وإنشاء الجامعات، وإيجاد فرص العمل.

يعرف محمد السادس أن على الملكية أن تأخذ منعطفاً جديداً، وأن تظهر بوجه جديد. على كل حال، كان من أوّل أعماله تصديه لمكافحة البؤس. هو يريد أيضاً أن يمحو مظاهر التّرَف التي كان يزهو بها والده.

كان يسكن، أثناء ولايته العهد، مقرّاً على طريق مكناس، وهو مايزال فيه؛ وكنت خلال السنوات الخمس التي قضيتها في المغرب، بعد إطلاق سراحي، أسير بانتظام في ذلك الاتجاه لزيارة أبي. كنت أرى دائماً معاقين وفقراء ينتظرون أمام تلك الڤيلا؛ وعندما يخرج الأمير يستمع إلى شكاويهم، ويحاول أن يحلّ بعض مشاكلهم، ويتناول الالتماسات المكتوبة التي يقدّمونها له. إنّه شاب يحترم جميع الناس، ويحترمه الناس بدورهم ويحبونه. الواقع أن تكون محبوباً أصعب من أن تكون مكروهاً، لأن عليك التزامات تجاه أولئك الذين يخلصون لك الحب. لكن الملك الشاب يعرف كيف يصغي، وكيف ينظر، وهذا أمر غير شائع كثيراً.

حتى الآن قلب بعض العادات والتقاليد وتجاوزها. قام بزيارة رسمية إلى بعض المناطق النائية التي لم يضع والده فيها رجله من قبل. ونحّى عبد العزيز العبوش مدير الأمن الاقليمي (DST)، ثم أقال إدريس البصري وزير الداخلية المتسلط المتعذّر استئصاله(*).

فيما يتعلق بصورة خاصة ـ بنا وبجميع المعتقلين السياسيين ـ شكّل محمد السادس لجنة من القضاة الوطنيين والدوليين لتدرس حالة كل واحد من ضحايا النظام بهدف التعويض بأسرع ما يمكن على جميع أولئك الذين نُكِّد عيشهم وسُلبت أموالهم وأرزاقهم. إنّها ثورة حقيقية

(*) في الواقع بدأت تباشير الإصلاح مع إحساس الحسن الثاني بتدهور حالته الصحية فقام بتكليف عبد الرحمن اليوسفي في آذار 1998 برئاسة وزارة ائتلافية من أحزاب المعارضة والموالاة بقي فيها إدريس البصري على رأس وزارة الداخلية التي تولاها منذ عشرين عاماً.

توفي الحسن الثاني في تموز 1999 واعتلى محمد السادس العرش. قامت مظاهرات طلابية في مطلع شهر أيلول تطالب بالحريات العامة. نحّى الملك عبد العزيز العبوش مدير الأمن الاقليمي ووضع محله العميد العنيجري وسمح لإبراهيم صرفاتي الزعيم اليساري ـ خليفة بن بركة ـ بالعودة إلى المغرب في 30 أيلول 1999 دون علم وزير الداخلية إدريس البصري.

شبّ حريق في إدارة الأمن الإقليمي اتهم إدريس البصري بافتعاله فأقاله الملك في 9 تشرين ثاني 1999 ووضع محله أحمد الميداوي مدير الأمن الوطني السابق ودعمه بفؤاد علي الهيما ـ السياسي الشاب ـ مدير مكتب محمد السادس أيام ولاية العهد سكرتير دولة للشؤون الداخلية ـ المترجم.

في المغرب لم يقدّر الغرب حتى الآن سعة ومدى هذا التغيير الجذري بنتيجتها.

* * *

أعود أحياناً إلى ماضيّ. إنني الآن في الثالثة والستين من العمر، ولدي انطباع بأنني عشت مئة حياة. عرفت المغرب زمن الحماية الفرنسية، والكفاح ضد المحتل. وملكية محمد الخامس، وعهد الحسن الثاني، والمعاناة الطويلة في «حدائق الملك»... أحسّ أحياناً بشعور غريب، شعور أنني عشت أحداثاً تفوق عمري الحقيقي، وعرفت كثيراً من الانقلابات.

اختلطتُ في المغرب زمن الحماية بعائلات إقطاعية، ورأيت هؤلاء الأشخاص بعد الاستقلال، وقد كانوا في العشية من كبار الأثرياء، عديمي الموارد يسيرون متسترين بالجدران خجلاً من فاقتهم وأسمالهم. نساء، كنت أصادفهن سابقاً يرفلن بالحرير والديباج، وقد غدون يجمعن القمامة في غُرَف المشافي. أنا أعرف أن شخصيات محترمة تجرجر حياة بائسة في الشوارع بعد أن جُرّدت من كل شيء. أعرف عائلات كاملة دُمّرت أو أفلست أو أبيدت من قبل السلطات ليس في المغرب وحدها بل في بعض البلدان العربية أيضاً. قضت تصاريف الحياة على سذاجتي. تعمّقت معرفتي بالكائن البشري وتقلّباته.

لم يبق لي الآن إلا الذكريات. تحلّل ماضيّ. دُمِّر منزلي في زنقة الأميرات، لأنّ شائعة زعمت أن نفقاً سريّاً يصل بينه وبين المنزل الذي كان يسكنه الحسن الثاني خلال ولاية العهد. تهمة تثير السخرية: منزلنا غير مجهز حتى بقبوٍ.

بعد رحيلنا وضعوا أغراضنا في الأرض العراء المجاورة للمنزل، وتعرّض معظمها للسرقة، ووُضّع ما تبقى في عنبر، نزحت منه وزارة الداخلية مايلزمها عند كل حفل استقبال تقيمه. لم أجد بعد غياب تسعة عشر عاماً إلا بعض الفضيّات، ولوحات ممزّقة، وبعض آنية المائدة المتناثرة والمهملة، وسكاكين للسمك لاتستعمل في المغرب.

واختفى الباقي. اختفت صحون الفضة وكؤوس الكريستال والسجاد والأثاث... مع ذلك قالوا للملك.

ـ أعدنا لهم كل شيء.

عندما جاؤوا لتسليمي البقية الهزيلة من روائع أُبَّهتي الماضية، أردت أن أترك لهم كل شيء. فأنا أستطيع العيش بدونها، وقد شربت خلال عشرين سنة تقريباً بقعر زجاجة من البلاستيك؛ ويمكنني الاستمرار في استعماله إن لزم الأمر، ليس هذا هو الأمر الجَلَل، المهم ما نشربه أهو سمُّ زعاف أم ماء عذب.

إنني أقيم الآن في باريس، المدينة الرائعة الموافقة لي تماماً. أتمتع فيها بما لم أعرفه من قبل: الحريّة. لا أفعل شيئاً. ألازم منزلي على الدوام لكنني أعلم أن بإمكاني أن أخرج للتنزه في الشارع عند الساعة الثانية صباحاً إن رغبت. إنّه شعور عذب. لكنني سأعود إلى المغرب يوما ما. من الصعب أن يتخلى الإنسان عن جذوره نهائياً.

أما أولادي فيحاولون، كل على طريقته، نسيان أربع وعشرين سنة من حياتهم تبددت، وضاعت بل تبخرت. تسع عشرة سنة من السجن وخمس سنوات من الإقامة الإلزامية في البلاد.

أودعت مليكة السجن وهي في التاسعة عشرة من عمرها، وخرجت منه وهي في الثامنة والثلاثين، وهي متزوجة الآن من مهندس معماري فرنسي وتقيم في جنتيي(*).

سجنت مريم وهي في السابعة عشرة وخرجت من السجن وهي في السادسة والثلاثين. وتسكن الآن باريس. وهي متزوجة من مغربي، وقيد الطلاق الآن؛ ولها طفلة صغيرة لطيفة جداً اسمها نوال؛ وقد عملت في مؤسسة للنسيج قرب بوبينيي(**)، وكان عملها شاقاً فقدت على أثره القليل من الصحة الباقية لها.

خرج رؤوف من السجن وهو في الثالثة والثلاثين، وهو يعمل الآن صحافيّاً في الرباط وله ابنة، هي تانيا، ثمرة علاقة حب قصيرة مع إحدى رفيقات صباه بعد لقائه بها عقب إطلاق سراحه.

(*) جنتيي Gentilly: بلدة إلى الجنوب الشرقي من باريس عدد سكانها نحو عشرين ألف نسمة.

(**) بوبينيي Bobigny: بلدة شمال شرق باريس ـ المترجم.

دخلت ماريا السجن وهي في العاشرة وخرجت منه في التاسعة والعشرين، وهي تسكن باريس، وعملت مدة مصممة أزياء لإحدى شركات السينما. أما الآن فقد أسست وكالة لتعهد «المناسبات» تجهّز من خلالها الصالونات والاستقبالات.

دخلت سكينة السجن وهي في التاسعة وخرجت منه في الثامنة والعشرين، وهي فنانة العائلة وتعيش أيضاً في باريس، وقد حصلت على الشهادة الثانوية منذ فترة وجيزة وتتابع دراسة الحقوق، وبدأت بكتابة إحدى الروايات. وهي متمسكة بالعزوبية لشدة توقها إلى الحريّة.

دخل عبد اللطيف السجن وهو في الثالثة من العمر، وخرج وهو في الثانية والعشرين، وعاد إلى المغرب بعد أن تسكّع فترة من الوقت في باريس. إنّه الأكثر تشوّشاً بيننا. يخاف الناس ولايثق بنفسه، ولايؤمن بشيء. أي رد فعل لمن لم يعرف إلا السجن والانغلاق والجوع والتنكيد خلال طفولته وفتوته.

دخلت عاشورا شنا ابنة عمي السجن وهي في السابعة والثلاثين، وخرجت منه وهي في السادسة والخمسين، وتعيش الآن في باريس مع ماريا.

سجنت حليمة عبود من التاسعة عشرة من عمرها حتى الثامنة والثلاثين، وقد أصيبت بالسرطان وعادت إلى أهلها في الدار البيضاء.

اضطر أبي إلى الاستقالة من الجيش بعد موت أوفقير. كانت علاقاتي معه مضطربة دوماً. وبقيتْ كذلك. احترف الجنديّة دون زهو. مع أنه كان ضابطاً لامعاً، وكان بإمكانه أن يصل بكل سهولة إلى رتبة جنرال، لكنه لم يتوصل أبداً إلى الانضباط وإلى قبول أوامر رؤسائه؛ وربما كانت هذه نقطة مشتركة بيني وبينه. إنه لايفهم إلا شيئاً واحداً يطبقه: النظام. هو كذلك ولايمكنه أن يكون شيئاً آخر. حصل في المغرب على مراكز هامة جدّاً، لكنه لم يحتفظ بها مدة طويلة. استلم مسؤولية المعدات الثقيلة في الجيش، ورفض أن يرسل مرؤوسيه إلى القصر بذريعة أن الجنود لم يؤهّلوا للعمل في الصالونات. طُلب منه إرسال وحدات من الجيش لحماية الرجال السياسيين ورفض مدعياً بأن هذا ليس من مهمة الجند وليس ملحوظاً في النظام العسكري

المقدس... كانت هذه هي أفكاره الخاصة التي أفقدته مراكزه واحداً بعد الآخر بسبب عدم مرونته ورفضه التنازلات. وبعد اختفائنا اهتم بإدارة أراض ورثها عن أبيه. إنّه في التاسعة والثمانين من العمر الآن، وقد عاد إلى قريته.

حُكِم على بورو ومُخزّنيه بالسجن سنة بعد هرب الأولاد ثم أخلي سبيلهم.

رُفِّع بن عايش سجاننا إلى رتبة جنرال.

تابع المحاميان كيجمن ودارتقيل الدفاع عن قضايانا منذ اثني عشر عاماً، وأمسيا صديقين لنا. لم يقبلا طوال هذه المدة أن يتلقيا أي مبلغ من المال لقاء أتعابهما.

بقيت أسّا مكان سجننا الأوّل ثكنة في منطقة ينتشر فيها الجيش في كل مكان بسبب النزاع على الصحراء الغربية.

في أَغْدز عاد عمدة البلدة إلى مسكنه الجميل.

هُدِم مَنزل بير جديد الذي سجّنا فيه.

شغل موظفون ڤيلا مراكش التي أقمنا فيها

غدا قصر الغلاوي في تاماتاجت مكاناً سياحياً ينوّه الدليل فيه باعتزاز إلى أن أرملة الجنرال أوفقير وأولاده قد سجنوا في هذا المكان.

* * *

أخلي سبيلنا منذ نحو تسع سنوات، ويمكننا أن نسافر كما نشاء منذ أربع سنوات. خلال هذا الوقت كله حاولنا أن نتكيّف مجدّداً مع عالم فقدنا مفتاحه في مكان ما من «حدائق الملك».

كنا شبه أموات وبُعثنا أحياء. إنني أدرك إلى أيّ مدى كان ذلك الاستمرار على قيد الحياة فرصة استثنائية لم تُمنح للجميع. سقط عديد من الأشخاص ولم ينهضوا أبداً، وقد اختفوا رغم ما وهبوا من ذكاء وغنى وشجاعة ودعم.

ارتضيت العيش مع هذا الماضي الذي يؤرّقني. إنّه يصعد أحياناً إلى السطح وألقى من جديد أحاسيس وكروب الأمس حيّة، حاضرة. وأحياناً يبدو لي أيضاً أن زمن الحبس قد امّحى ومسح كما يُمسح لوح

أسود؛ فقد أردت وأنا أغادر السجن أن أدير ظهري لصور مكدّرة للغاية ولذكريات أليمة لاتُحْتَمَل، وقد أبعدتها نهائياً وإلا غدت حياتي لاتطاق. كيف أعيش مع ذكرى تلك اللحظات التي أرتعش فيها على نفسي، وخاصة على أولادي؟

في آخر مرّة رأيت فيها الحسن الثاني، في العام 1972 ، قال لي:

- فاطمة، اعتني بأطفالك، إنك مسؤولة عنهم...

كان في طريقه إلى فرنسا، ولم تكن هذه العبارة دون شك إلا مجاملة لطيفة قيلت في لحظة وداع. لكن هذه الكلمات رنّت مع الأحداث كأنها إنذار، وأمر، وتهديد أيضاً... وبقيت بعدئذ متعلقة بأولادي وأنا أشعر أنني مسؤولة عنهم ماداموا لم يؤسّسوا مستقبلاً لائقاً، ولم يستعيدوا ما تركه لهم أبوهم، ما كسبه بعرق جبينه، والسلاح في يده، في الحروب من أجل فرنسا، ثم في خدمة المغرب، وما دامت صورة أبيهم ملطخة بالافتراءات.

أشعر اليوم، كشعوري البارحة أنني مسؤولة وعن حياتهم، ومسؤولة عن مأساتهم. وأتعذب: هل تركت نفسي أُقاد إلى القدر المحتوم كما تقاد بهيمة إلى المسلخ؟ ذلك أنني تلقيت بصمت كل ما كابدته، كأنني كنت أنتظر مصيبتي دائماً، وكأنَّ هذا هو قدري المكتوب، وكأنّني نُذرت منذ الأزَل لتحمّل هذا العذاب الذي أعدّ لي.

لكن إن كنت قد رضيت بمصيرنا، فإن أولادي بالمقابل قد رفضوه. لم يستطيعوا قبول فكرة تعريضهم من قبل والدهم لمثل هذه المأساة، ولم يستطيعوا أن يقبلوا خنوع أمهم وعدم سعيها لإنقاذهم. كنت أقرأ في عيونهم ملامات تمزقني. كانت نظراتهم تعني: «أنت أمٌّ، وضعتنا في هذه الدنيا، يجب أن تتحركي لنعرف حياة أخرى غير تلك التي ادّخرتها لنا».

لكن ما هو ذنبي؟ وماذا يمكنني أن أفعل؟ فالحياة والمصادفة قرّرتا كل شيء. هذا هو المكتوب. إنني مؤمنة بأن لكل إنسان مستقبله المكتوب في لوح القَدَر. لبعضهم حيوات وللآخرين أقدار. وقدري لم يكن ورديّاً دائماً. عرفت لحظات رائعة وعرفت فترات رهيبة.

لكن المفارقة إنني أحسست بالشدّة في الضراء أكثر من إحساسي

بها في السرّاء. عندما كنت مع أوفقير، كان يحدث لي في بعض الأيام أن أبكي، وأنا أردّد: «كلّا، هذا غير طبيعي». كل شيء متيسّر، سهل.

خلف القضبان، لاشيء، سهل، ويجب التمتّع بقوّة استثنائية للتغلب على أهوال الحياة. ربما خَرَجَ بعض من عانوا هذه التجربة مُتلَفين منهارين؛ أمّا أنا فقد شعرت أنني قوية، وأن الشقاء قد زادني صلابة. إنّني أعرف الآن مدى قدرتي، وما أستطيع تحمّله. من العذاب لايبرز إلا العذاب. وقد كنت أشعر في بعض اللحظات بسعادة تقريباً لا لأنني أتعذّب، إنّما لأنني أستطيع تحمل التجربة. عرفت لحظات لذّة لأنني كنت أقوى من العذاب، ولأن بإمكاني أن أقول لنفسي: «قاومت القدر».

عندما أعود إلى هذا الماضي أفكر بأننا كنا ضحايا آلة مجنونة بدأت سيرها ولم يُعُد من الممكن السيطرة عليها. سنة بعد أخرى بدت الأشياء أصعب بكثير من أن ترتب أو تُصلَّح. كرّ الزمن... كيف يستطيع جلادونا أن يبرّروا سجننا؟ غدونا مخلوقات غير أرضية، سكان كوكب غير منظور.

أرادوا قتلنا معنوياً. وكنّا الأقوى. يعود السبب، دون شكّ، إلى أننا أضفنا إلى التدرّب على المقاومة رفضَ الحقد. بعد سنوات من السجن يغدو السجين عادة نمرّاً هائجاً. أمّا أنا فقد جرّبت خلال تسع عشرة سنة أن أحتفظ بمشاعر الإحساس المرهف والشهامة. أردت أن يفكّر أولادي أولاً بأن يبقوا على قيد الحياة أباةً قبل أن يفكروا بالحقد. قد يكون هذا ما أبقانا ضمن المجتمع الإنساني.

الفهرس



حدائق الملك

عرفت فاطمة أوفقير كل شيء عن المغرب: الحماية، وحياة البلاط في عهد السلطان محمد الخامس، والكفاح من أجل الاستقلال مع بن بركة، والزواج في سن السادسة عشرة بضابط وسيم في الجيش الفرنسي ـ محمد أوفقير ـ وحياة القصر بعد أن غدا زوجها موضع ثقة الحسن الثاني. ثم الألم الصاعق بعد أن صُرع الجنرال أوفقير ـ منتحراً، وفق البلاغ الرسمي ـ لأنه، على مايقال، كان الرأس المدبّر لمؤامرة ضد ملكه. وأعقب ذلك العذاب، والنزول إلى جحيم «حدائق الملك»، تلك السجون المرعبة التي أراد العاهل الحقود المنتقم على مدى عشرين عاماً أن يغيّب فيها فاطمة أوفقير وأولادها الستة.

إنّها وقد غدت حرّة الآن تستذكر عبثاً السنوات السعيدة، وشخصية الحسن الثاني المحيّرة، والمؤامرات، ثم زمن النكبة. وبإبائها الصلب كحفيدة قائد بربري تحلّل في هذا المؤلّف الإرث الشائك للملك الشاب محمد السادس والأمل المتولد عن ارتقائه العرش.

حدائق الملك رواية مؤثّرة لشاهد يكشف لنا جانباً من التاريخ المعاصر في مظاهر أبّهته كما في تهوّراته الممقوتة.